KOMASHA EL-ALAYAN

رواية
NOVEL

عيون قذرة

قماشة العليان

روايتي الثقافية
www.rewity.com
مختلف

مختلف
شبكة روايتي الثقافية
www.rewity.com

عيون قذرة / رواية
قماشة العليان / كاتبة من السعودية
الطبعة الثانية، 2005
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت، الصنايع ، بناية عبد بن سالم،
ص.ب. 5460 - 11، العنوان البرقي: موكتّالي،
هاتفاكس : 752308-751438

الإدارة العامة:
الدمام: شارع الملك خالد، حي الربيع
هاتف: 03 8330 507
فاكس: 03 8330 599

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب. 9157 ، هاتف 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف :
فؤاد وهبي / لبنان
الصفّ الضوئيّ والاخراج الفنّي :
حسن سويدان / بيروت ، لبنان
التنفيذ الطباعيّ :
المؤسسة العربية / بيروت ، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the Arthur.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من المؤلفة.

ISBN: 9953-36-736-1

رواية

قماشة العليان

عيون قذرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

صدق الله العظيم

سورة البقرة، الآية: 286

«انعتـــاق»

(1)

تضيق أنفاسي، العرق الغزير يبلل جبهتي بغزارة ويسيل على ثيابي.. أجاهد لأتنفس، تحاصرني صور الماضي الكئيب.. طفلة ممزقة الملابس تصرخ هلعاً.. أفقد السيطرة على نفسي وتطفر عيناي بالدموع لاستسلم للنوبة مجدداً.. تكتسحني النوبة كلياً، فألقى كل أسلحتي.. الطفلة تصرخ صرخات مدوية لتزلزل كياني وتخترق رأسي بضجيج مؤلم تتفجر معه شراييني لتقفز خارجاً.. تمتلئ طبلتا أذني بلذبذبات موجعة.. ترتجف أوصالي.. يتلبسني الماضي بظلاله.. أغيب في ردهات مجهولة مجللة بالسواد لأسقط من علو شاهق.. أتشبث بتلابيب نفسي كيلا أصرخ من الفزع.. وتعلو ضربات قلبي ثم تعلو وتعلو حتى تهبط فجأة وأوشك على الموت لحظات وأعود إلى ذاتي تدريجياً وقد ابتلت ملابسي وانهارت قواي تماماً..

ـ شاي أم قهوة؟

نظرت برهبة إلى الوجه المبتسم أمامي.. قلت بآلية وقد أفقت على الواقع تماماً.. كلا.. شكراً.. سأذهب لدورة المياه أولاً..

شبكة روايتي الثقافية
www.rewity.com

همست المضيفة غامزة والابتسامة لا زالت تتوج شفتيها:

ـ هل ستخلعين عباءتك ونقابك كالأخريات؟..

تلفت حولي بذهول.. فعلاً، فبعد أقل من ساعة على صعودنا الطائرة تحولت أغلبية النساء من أجسام مجللة بالسواد إلى ممثلات ومذيعات وعارضات أزياء من الدرجة الأولى.. قبضت على نقابي بشدة وكأنني أخشى أن ينتزع منى قسراً.. هتفت نافية:

ـ كلا.. لا.. لن أخلع نقابي أو عباءتي..

صوت ساخر ينبع من أعماقي.. أتخشين من أن يرى الجميع ملابسك المبللة، أتخشين أن يطلعوا على مرضك وضعفك وعذابك، أتخشين من السخرية؟.. أردفت بعفوية وقد تمثل لي وجه أخي فيصل:

ـ لو رآني أخي دون عباءة فسيقتلني..

تحولت ابتسامتها الودودة إلى ابتسامة سخرية وهى تقول:

ـ وهل يعيش أخوك في لندن؟..

هززت رأسي بـ«نعم»..

تابعت بنعومة..

ـ منذ فترة طويلة؟

أجبتها بصوت كسير:

ـ منذ عامين تقريباً.. وأردفت مفكرة وتابعت بوجوم:

ـ لم يزرنا خلالها أبداً..

رنت ضحكتها كصليل أجراس معدنية:

ـ إذن اطمئني.. فقد نسى عباءتكم تماماً وسيذهل حينما يراك هكذا..

ومضت ورنين ضحكتها الهازئة يخترق عباءتي إلى مكمن أحزاني، فتفيض كما تفيض مياه البحر الهائجة لتغرق نفسي بطوفان من الأحزان.. تلبستنى الطفلة اللاهية في أعماقي وهى تفتح عينيها على النهاية المفجعة بين والديها.. لم تسمع سوى الصراخ ولم تر إلا الدموع.. تتكوم وشقيقها الأكبر في حجرة من حجرات المنزل ليتلقيا أول جرعات الحياة صراخاً وضرباً وبكاءً ونحيباً، ولم يدركا أن المودة والرحمة تسكنان بيوت الغير عدا بيتهما، لم يعرفا من الحياة غير جانبها المؤلم حتى فوجئت ذات ليلة بصراخ مؤلم.. صراخ مختلف عن ذلك الصراخ الذي آلفاه وعاشاه دائما.. كان صراخاً رهيبا صَارخاً يصدر من نفس ملتاعة مثخنة بجراح الأسى.. صراخ يحمل بين طياته الألم واليأس والعذاب..

اخترقني الصوت ليفتت روحي المنهارة.. التفت لأجد أخي يبادلني نظرات الفزع والذهول.. وفى الحجرة الأخرى كانت ذيول الفاجعة وخيوط المأساة.. أبي يصرخ ولا يملك سوى الصراخ بأنين مقتول، وقد اكتشف سر عذابه.. كانت صورة أمي لا تنسى أبداً ولازالت ماثلة أمام عينيَّ حتى آخر عمري مثلما شاهدتها تلك الليلة قوية.. غاضبة.. ثائرة.. كل ما فيها يهتز حتى رموش عينيها الطويلة.. قالت بحنق واضح:

ـ كفى.. انك لست طفلاً.. وأنا قد أوضحت لك مراراً بأنني لا أحبك

شهق أبي بعنف حتى خلت أن روحه ستخرج من بين جنبيه، وهتف بصوت جريح مشخن بالبكاء:

ـ لكنني.. لم أعرف أن هناك.. آخر..

انتفض الجبروت المقيت الساكن جسد أمي، ليتحور ثوبها الأحمر ويتحلق حولها مكوناً شبه دائرة نارية وهى تصرخ:

ـ إذن.. طلقني (!!)

انتحب أبى بحرقة وألم دافناً وجهه بين كفيه، والثوب الأحمر الطاغي يملأ الحجرة من حولي، ليفيض على عالمي البرئ كدماء تنبع من قلب أبي ورجولته وكرامته المهدرة:

ـ ماذا تفعلين هنا؟.. أغربي عن وجهي..

صفعة قاسية ختمت بها اكتشافي المهول وبدأت بها دنيا مضمخة بالحسرات..

في طريق أوبتي إلى حجرتي أتحسس الصفعة التي تركت آثاراً دامية على وجهي وجرحاً لا يندمل في فؤادي، أتتني الصفعة الثانية لتقضي على طفولتي للأبد وتقحمني دون رغبة مني ولا اختيار عالم المحرومين والأيتام والمشردين.. قالها أبى بصوت مُحطم وكرامة مسلوبة وشرف مُهدر:

ـ أنت طالق يا عواطف..

ثم بكى لتنبثق من عينيّ الدموع وفرحت أمي..

ـ هل يوجد من ينتظرك في الخارج؟.. لقد غادر الجميع الطائرة عداك..

حدقت بشدة في وجه المضيفة وقد عدت إلى أجواء الطائرة تدريجياً.. لقد غادر الجميع الطائرة عداي. بدأت أجمع أشيائي برهبة، وقد تجمدت أوصالي من شدة الانفعال.. أخذ قلبي يخفق بعنف والمضيفة تتساءل بخبث:

ـ هل ستنزلين إلى مطار هيثرو بهذه الهيئة؟..

ترددت برهة قبل أن أجيب بـ«نعم»..

لفحتني الأجواء الغريبة منذ وضعت قدميّ خارج الطائرة.. كل شئ مختلف.. الدنيا غير الدنيا.. البشر ليسوا هم البشر.. حتى الأشياء الجامدة المألوفة غدت غريبة ومذهلة في هذا المكان..

ابتدأت أذناي تتعودان على اللغة الغريبة من حولي.. هدأ بصري قليلا ليلاحق الأفواج المتتالية من البشر المختلفين.. تجاهلت النظرات المحدقة إليّ من كل صوب ومضيت بخطى ثابتة أبحث عن أخي..

خفق قلبي بعنف وأنا أراه بين جموع الناس.. وجه حبيب تربطني به وشائج قوية من الدم والأخوة والخيبات المتلاحقة.. رفيقي في رحلة الحزن والضياع والتشتت تاريخي التعيس أراه موسوماً في وجهه، دموعنا المشتركة.. صرخاتنا الخائفة في ليل وحدتنا الطويل ظلمها تجاعيد جبينه، ضياعنا.. ألمنا.. يتمنا.. تسدل على عينيه غشاء رقيق من الدمع لا يغادره أبداً.. من قال أن الألم الضارب في

الأعماق ممكن أن ينسى فيما بعد.. أبداً.. أبداً.. تكفى نظرة إلى وجه أخي وأنامله المعروقة وطريقته المنكفئة وهو يمشي لنعرف أن التعاسة لا يمكن أن تؤدى إلا إلى تعاسة.. وأن العذاب الرابض داخل القلب لا يمحى بسهولة ولو طال الزمان وتبدلت الأمكنة..

تناول يدي بأصابع مثلجة وطبع على جبيني قبلة باردة ثم همس وهو يتنهد:

ـ الحمد لله..

ولم أعرف هل هو يحمد الله على وصولي سالمة أم كان يقصد شيئاً آخر لا أعرفه..

سرنا جنبا إلى جنب أكاد أتعثر بخطاي وأتحاشى نظرات الناس حولي.. سألني بصوت مهزوز:

ـ كيف حالك؟

ثم أردف دون أن يسمع إجابتي:

ـ انني اقترح أن تكشفي عن وجهك والأمر يعود إليكِ..

التفتُ حولي باحثة عن شئ لا أدرى كنهه وقد اعتراني القلق مجدداً.. مرقت من جوارنا فتاة شقراء فارعة الطول تتأبط ذراع شاب أسود، تأملتهما وهما يضحكان ويتهامسان ثم يتبادلان القبلات دون أي حياء.. نكست رأسي خجلاً وأنا أسأل أخي بصوت خافت:

ـ هل كشف الوجه حرام؟.. أقصد..

قاطعني بلا اهتمام:

ـ كلا.. لا أعتقد.. إن غالبية المسلمات هنا يرتدين الحجاب فقط.. دون نقاب أو غطاء للوجه.. ثم أردف بعد هنيهة:

ـ ولا تنسى أن المسلمات هنا غير مرغوب فيهن بعد أحداث أمريكا الأخيرة ولو كنَّ سافرات.. فما ظنك بفتاة سعودية محجبة ومنقبة أيضاً.. سيظنون انك إرهابية حتماً..

وصلنا إلى موقف السيارات لنصل بعد جهد إلى سيارة أخي.. كانت صغيرة متواضعة كهندامه.. انطلقنا في شوارع لندن دون أن ننبس بكلمة.. وكأن العذاب الذي وحدنا سنين طويلة قد ملأ صمتنا بلغة لا يعرفها سوانا.. بهرتني المدينة بطرقها الواسعة ومبانيها العالية وأجوائها الضبابية التي لم أعهدها قبلاً سوى في فصل الشتاء لدينا، أخذت أحدق في زجاج النافذة، أتأمل الإعلانات العارية التي تملأ الطرقات، وتدفق الجموع رجالاً ونساءً وأطفالاً وكلاباً بشكل لم أعهد له مثيلاً.. يلفتني مشهد لعرس يقام في وضح النهار.. العروس تبدو كبيرة في السن، شقراء، دميمة.. عادت إلى ذاكرتي ليلة زفاف أمي إلى الرجل الذي حطم حياتنا وأحال أبى إلى رجل على الهامش.. كانت أمي في قمة زينتها وقمة فرحتها وقمة عنفوانها وجبروتها. وقفت ترتدى الثوب الأبيض ومن حولها المزينة وخالتي الوحيدة «عائشة»..

أمسكت بطرف ثوبها الأبيض وأنا أسألها بألم:

ـ أمي ألن نعود لأبي؟..

رمشت بعينيها غير مصدقة.. ثم هتفت بغضب:

ـ من أحضرها إلى هنا؟؟ القوها في الخارج فوراً.. إنها بنت أبيها.

بكيت طويلا على صدر خالتي وأنا أسمع الدفوف والزغاريد.. ولم أنتبه لدموع كانت تنهمر في صمت.. تلك كانت دموع أخي الوحيد..

ـ سارة.. ألن تنزلي من السيارة؟.. أم أن لندن لم تعجبك؟..

نزلت وأنا أمسح دموعاً حارقة فرت من عيني.. وأحمد الله أنني لم أخلع نقابي!!

(2)

في أيام قليلة اكتشفت كل شئ عن أخي وحياته البسيطة في لندن.. مواعيد ذهابه إلى الجامعة وعودته، عمله، سهراته أحياناً.. ثم اكتشافي المذهل لصديقته العربية.. لم يدهشني الاكتشاف رغم معرفتي الأكيدة بأخلاق أخي واستقامته وحياته المعروف، لكن طابع الحياة يختلف من مدينة إلى أخرى وكل شخص يتأقلم مع المحيط الذي يعيش فيه ويتواءم معه سواء برغبته أو رغم أنفه..

هدأت نفسي قليلاً وشعرت بطعم الاستقلال الذي لم أذقه طيلة حياتي، لكن ترى هل سأتخلص من مرضي؟

كانت كلمات أبي الأخيرة وهو يودعني:

ـ ودراستك يا سارة.. أخاف أن تطيب لك الحياة في لندن وتهجرين دراستك..

ردت زوجته وهي تحدجني بنظرة حقد مريرة:

ـ وبماذا تنفعها الشهادة؟ في النهاية سوف تعلقها في المطبخ.. إن مستقبل المرأة في بيتها وزوجها..

تجاهلتها قائلة لأبي:

ـ سأحاول يا أبي أن أعود قبل بدء الدراسة.. ثلاثة أشهر كافية جداً للتغيير.. ثم تابعت مترددة:

ـ ثم أنني لا أريد أن أثقل على فيصل.. انه مسكين يعمل ويدرس.. وينفق على نفسه بنفسه..

قاطعتني زوجة بحدة:

ـ ومن تريدين ينفق أن عليه؟ أبوك تعرفين أحواله المادية.. ثم أن كل الشباب يعملون ويدرسون..

جهد هائل أبذله لكبح جماح دموعي وأنا أقول:

ـ لكنه.. لكنه.. مسكين..

ردت بصوت صاعق جبار:

ـ نعم..كل الناس قساة وأقوياء ومخلوقون من أحجار عداك أنت وأخيك فأنتما المساكين فقط..

تحاشيت نظرة الانكسار المرسومة على وجه أبي ونظرات الحقد التي تكاد تطلق حممها النارية من عيني زوجة أبي.. قبلته قبلة سريعة ومددت لها يداً مثلجة رفضت أن تقابلها بيدها، فمضيت داخل الطائرة ونفسي تمور بغليان لا يهدأ حتى تلبستني حالة القلق الكاملة وأنا في الطائرة..

ـ سارة.. أين أنت؟ والى أين وصلت؟..

فوجئت بفيصل يحدق بي وعلامات الدهشة تكسو وجهه.. تخلصت سريعاً من همومي.. ابتسمت له قائلة:

ـ قررت اليوم أن أعيدك إلى أجواء السعودية فطبخت لك «مرقوق»..

ضحك بقوة وهو يقول:

ـ تقصدين «مرقوق محروق».. هل هذا هو الذي نسيته يحترق فوق النار؟

أسرعت كالسهم إلى المطبخ لأفاجأ برائحة الأكل المحترق.. فتحت الغطاء بسرعة وأنا أحمد الله، فهناك بقية نستطيع أن نأكلها..

سألني ونحن نأكل بقايا المرقوق المحترق:

ـ ما الذي يشغلك يا سارة؟.. لقد لاحظت شروداً كثيراً منذ مجيئك إلى هنا.. ألم تعجبك الحياة في لندن؟.. هل تودين العودة إلى هناك؟..

لاحت لي بؤر العذاب والحرمان هناك بين أهلي وخلاني.. ضائعة شريدة.. كل أسبوعين أو على الأكثر شهر أحمل حقيبتي الصغيرة وبضع ثيابي وزينتي وكل كتبي وأتنقل بين ثلاثة بيوت لا يتحملني أي منها أكثر من شهر.. شهر واحد أو أقل.. ما أن أعتاد على السرير وأتواءم مع اللحاف وتحتضن الوسادة دموعي الغزيرة وتردد الجدران دعائي وبكائي وزفراتي الحيرى كل ليلة، ما أن تألفني وآلفها وتطمئن لها نفسي الكسيرة وأتمنى لو استمر، لكن لا تلبث أن تتلبد الأجواء بالغيوم وتأذن السماء بالمطر وأعي أنني وحيدة بلا سند يتيمة الأم والأب رغم وجودهما على قيد الحياة، مطية للآخرين وشماعة لأخطائهم وخطاياهم.. يعاودني الاختناق.. يتلبسني المرض بكل بشاعته ومرارته، مرغمة أغادر وأغادر وأغادر بلا أي مأوى أو سكن أو استقرار أو انتماء.. كل البيوت بيتي.. وكلها أيضاً ليست بيتي.. كلها تتحملني بعض الوقت، لكنها ترفضني كل الوقت.. كلها

تأويني وتلفظي.. تحميني وتدميني.. تسترني وتجردني حتى من ورقة التوت.. وأعود إلى دوامة بلا نهاية ولا مستقر.

اغتصبت ابتسامة وابتلعت بحراً من الدموع وأنا أجيبه:

- كلا يا فيصل.. أنا بحاجة فعلاً للتغيير والبقاء هنا لبعض الوقت.. لكن ألا يوجد نوادٍ أو مكتبات أو أي شئ من هذا القبيل أقضي فيه وقتي أثناء غيابك يا فيصل؟

فكر برهة قبل أن يجيب:

- بلى.. بلى هناك الكثير.. فهناك مكتبات عربية كثيرة في ايجوارد رود Edgwar R.d ومعهد لدراسة اللغة الإنجليزية في منطقة فولهام Folham اسمه ستدى سنتر إذا رغبت في الدراسة.. لقد أخطأت بحبسك في البيت أخرجي يا سارة وأعذريني لانشغالي.. أخرجي لترى الناس والحياة والدنيا فلن تتكرر لك هذه المناظر بعد اليوم..

ثم أطرق مفكراً.. ومن يدري؟

مضيت أغسل الصحون وأنا أفكر.. فعلاً فيصل محق فيما قاله.. يجب أن أخرج، أتنزه، أرى الدنيا كما لم أرها من قبل، ولن يكون الأمر سيئاً كما تصورته، فالمرأة هنا ليست كالمرأة هناك.. المرأة هنا ذات كينونة واستقلال كالرجل تماماً، تمشي دون أن يضايقها أحد، تتسوق دون أن يتطفل عليها أحد تأكل.. تلعب.. تركض هي حرة.. ابتسمت ورذاذ الصابون الإنجليزي يتطاير إلى أنفي وأنا أتذكر حينما خرجت مع ابنة عمتي «ليلى» إلى السوق وكيف تعرضنا لمطاردة الشباب من محل إلى محل، تلاحقنا كلمات الغزل

الرخيصة والعبارات الخادشة للحياء، حتى اضطرت ليلى أن تضرب أحدهم على وجهه بحقيبة يدها.. لم يصمت أو يخجل أو يتراجع، وإنما قذفها بكتاب ضخم كان يحمله.. فأدار رأسها مما أقسرنا على العودة سريعاً إلى البيت..

هنا الأمر يختلف.. لن يطاردني أحد طالما أنا لا أرغب في ذلك.. لن يرغمني كائن من كان على فعل شئ لا أريده ولا يتفق مع ميولي واهتماماتي..

انتهيت من غسيل الصحون وبدأت أتجول في أنحاء الشقة الصغيرة.. فكرت أن أعود لأتأمل صور صديقة أخي التي تملأ حجرته.. الوقت طويل وهو قد ذهب إلى عمله المسائي ولن يعود مبكراً.. بالطبع لن يمكنني الخروج ليلاً إنها فاتنة شقراء لها ابتسامة مميزة بنقرة جميلة أسفل ذقنها لكن..ألا يدرك أن ليلى تحبه بل تعشقه وتقبل الأرض التي يسير عليها وتتمنى أن يعود سريعاً لأرض الوطن كي يتزوجها وتترك الدنيا كلها لأجله.. كما قالت لي مراراً..

إن ليلى جميلة بل قد تفوق صاحبة الصورة جمالاً وأنوثة، لكنه لا يعرف عنها شيئاً ولا تحتفظ ذاكرته سوى صورة ليلى الطفلة التي تبكى لأجلنا عندما يحين موعد رحيلنا من بيتهم، وتقرر والدتها انتهاء مدة إقامتنا القصيرة لنرحل من جديد ثم نرحل.. ونرحل..

ليلى الهادئة الرقيقة رفيقة الطفولة وصديقة العمر ومستودع أسراري.. في قلبها نبضات عمري الجريحة، وفي أصداء صوتها لهاث طفل جائع إلى ثديّ أم، وبين عينيها دموعي الهادرة أسى

وضياعاً.. لم أنس وقوفها إلى جواري في أشد لحظات حياتي حلكة ومرارة..

سمعتها تصرخ بأمها ذات يوم:

- حرام يا أمي.. إن سارة مسكينة.. أبواها تخليا عنها.. فمن لها سوانا؟ لماذا تعاملينها أنت ونوال بهذه القسوة؟.. ألا تكفى ظروفها القاسية؟..

ردت عليها عمتي باستهزاء:

- ومن نصبك محامية عنها.. أم أن عينيك على فيصل..

بكت ليلى وهى تقول:

- أنني لم أفكر سوى في الإنسانة الضعيفة التي تُمتهن أمامي كل يوم.. وكل هذا لماذا؟ ببساطة لأن ليس لها سوانا.. هذا إجرام يا أمي..

ابتعدت سريعاً كي لا أسمع المزيد.. لا أريد أن أعرف ولا أريد أن أسمع.. أنني أعي جيداً واقعي الذي لم أختره وظروفي التي لا أستطيع التنصل منها وحياتي التي لابد أن أعيشها شئت أم أبيت.. لكنني لم استطع منع دموعي من الانهمار ليس رأفة بحالي بل شفقة على من يحاول حمايتي واستجداء العطف والرحمة ممن لا يرحم.

ليلى.. إنها لا تستحق منك هذا الإهمال يا فيصل.. أعدت الصورة إلى الدرج لأرى دفتراً أزرقاً بزهور وردية جميلة خمنته دفتراً للصور، لكنه كان دفتر محاضرات باللغة الإنجليزية.. تصفحته وأنا أتأمل خط أخي ورسوماته الكثيرة..

كانت هناك جمل باللغة العربية وأشعار غزلية وحِكم ومواعيد لرحلات حتى وقعت على صفحة بخط يده كأنها كتبت على عجل..

فضولي وحبي الكبير للاطلاع أغرياني بأن أقرأ.. نظرت إلى الساعة.. كانت الثامنة مساءً.. لا يزال الوقت باكراً على عودته إلى البيت.. فبدأت أقرأ ما صدمني وأطاش صوابي..

رباه.. إنني أعاني وبصمت.. اجتمعت مرارة الغربة وقسوة البعاد والمرض فدمروني تدميراً لم أعرف بمرضي إلا حينما أخذتني كاتيا إلى المستشفى.. كانت الصدمة كبيرة.. لم أعلم بهذا قبل الآن.. تمالكت نفسي وكاتيا تواسيني بأن هذا ليس نهاية العالم وبأن الأمل موجود وأن الشمس ما زالت تشرق كل صباح.. استجمعت إرادتي لأبدو أمامها رجلاً قوياً لا تهزه العواصف، لكنني انهرت في سريري.. انهرت وقد تكالبت على ظروف المرض والبرد والغربة.. يالي من إنسان تعيس..

انتهيت من القراءة وسؤال كبير يملأ نفسي الحائرة.. ترى ما هو مرض أخي؟ مَمَ يعانى؟ هل هو مرض خطير كما يبدو أم أنه مرض بسيط عابر أصيب به ثم شفى منه.. ولماذا تبدو كلماته مضمخة بالحزن والألم والمرارة.. وما معنى أن الأمل موجود؟

سمعت المفتاح يدور في القفل، فأعدت الدفتر إلى مكانه وانسحبت بهدوء إلى حجرتي.. نمت حالما وضعت رأسي على الوسادة لأفيق سريعاً وأنا أنتحب.. لقد رأيت أخي في الحلم وهو ميت!!

(3)

هل هذه هي لندن الحقيقية؟ تساءلت في داخلي وأنا أسير الهوينى على الطرقات الحجرية المرصوفة، أتأمل الواجهات الزجاجية للمخازن والمتاجر الفاخرة.. أفواج من الناس من مختلف الألوان والأجناس تتدفق جيئة وذهاباً وكلاب من جميع الأحجام تتجول بحرية إلى جوار أصحابها.. لا أحد يفكر بأحد، ولا أحد ينظر لأحد، كل مشغول بذاته، لا يعرفون مقدار الحزن داخلي.. لا يعلمون الجروح الطافحة بالألم والصديد والحقيقة الجديدة المروعة مرض أخي.. وسندي الوحيد في هذه الدنيا الكبيرة.. حلمي وأملي.. رفيق طفولتي البائسة وتوأم الضياع والتوهان والتشرد.. وكأن تعاسة الماضي لم تكن كافية ليحمل كاهله الضعيف عبء مرض لا أدرى مدى ألمه وخطورته.. هل أصارحه؟ أسأله مباشرة هل يغفر لي فضولي وانتهاك خصوصيته وما لا يرغب في البوح به..

حدقت إليه ونحن على مائدة الإفطار، أحاول استقراء ملامحه الهادئة، أبحث عن مكامن المرض ودهاليزه الخفية.. أرصد ما اعترى وجهه من تغيير وما سلبته منا غربة عامين في الخارج.. انه مهموم!! هذه كانت ملاحظتي الأولى.. عيناه مطفأتان وكأنما مل الحياة وكرهها.. تأملت يده المعروقة وهى تمسك بفنجان الشاي.. توقف فجأة عن المضغ ثم سألني بحنان:

ـ سارة أنت غريبة الأطوار.. لماذا تتأملينني هكذا؟ وكأنك تريننى للمرة الأولى..

صمت ذهولاً.. ثم خطر لي خاطر غريب ففاجأته بسؤالي:

ـ فيصل.. هل.. أقصد هل تدخن؟

بصراحة وثبات أجاب:

ـ نعم.. ثم أردف حينما لحظ اضطرابي:

ـ تعرفين.. غربة ودراسة.. أيضا المسئولية.. أنت تدركين هذا يا سارة..

همست قائلة:

ـ نعم.. بالضبط..

ضحك مبدداً جو العتمة الذي خيم علينا: لقد أزلت عني الحرج.. وجنبتينى مشقة الاختباء.. منذ اليوم سأدخن أمامك..

ثم تابع وهو يحمل صينية الإفطار إلى المطبخ:

ـ لمَ لا تخرجين اليوم يا سارة؟.. وتتمشين في الجوار ثم تذهبين إلى المكتبة وتروحين عن نفسكِ، فأنت تعلمين أنني لا أستطيع أن أخرج معك إلا يوم الأحد.. من حظك، فالجو اليوم مشمس وجميل..

ابتسمت وأنا أسير في الشارع الكبير.. أين الشمس التي تحدثت عنها يا فيصل الجو ضبابي جميل وزخات منعشة من رذاذ المطر تصافح وجهي في كل خطوة أخطوها.. تذكرت بيت خالتي الطيني

في القرية التى تتبع محافظة القصيم.. الحنان يلف أجواء الدار مع زخات المطر المتساقطة على وجهي وشعري ورائحة الطين العابقة بماء المطر تداعب أنفي يخالطها الدخان المتصاعد من المقلاة الكبيرة على الموقد الخشبي، وخالتي تصنع رقاقات الخبز البر مع العسل والسمن الذي تبرع في إعداده، وتلقمني أياها مع فيض عامر من حنان يلوح في سماء حياتي كإضاءات خفية لامعة وساطعة، لكنها متباعدة ونادرة..

دخلت متجراً متواضعاً.. تأملت الملابس المعروضة.. رافقتني البائعة الشقراء وهى تنظر إليّ بريبة.. أحكمت ربط حجابي بحركة لا شعورية وكأنه مصدر خوفي وإعزازي، رهبتي واطمئناني، مسكني وضياعي، سألتني بتعالٍ أثار اضطرابي:

- هل تريدين شيئاً معيناً؟

أجبتها باضطراب وأنا أهم بالخروج: -

- كلا.. كلا..لا شئ..

وعدت إلى الشارع من جديد التحم مع الأفواج المتحركة من البشر والكلاب ذات اليمين واليسار.. أتأمل الناس وهم يتأملونني.. كل منا ينظر للآخر دون أن يراه، فلا أحد يعنى لأحد شيئاً..

جلست في أحد المقاهي القريبة احتسي كوباً من القهوة، واستشعر طعم حرية جديدة في حياتي.. لم أعتد أن أذهب إلى أي مكان في أي وقت أشاء بلا مواعيد محسوبة ومواقيت لا تتغير، لا أحد ينتظرني ولا انتظر أحداً.. ابتسمت في سري وأنا أتذكر عمتي

وهى تتصل بأمي لتتأكد هل البضاعة وصلت أم لا؟ وأنها قد سلمت الأمانة.. وبدورها أمي تتصل بزوجة أبي لترد الأخرى بعجرفة بغيضة: نعم البنت وصلت وهى موجودة الآن، هل تريدين محادثتها؟ أتصور أمي ترد بجفاء: كلا.. فالبارحة كانت عندي!!

أحتسي كوب القهوة الساخن وحيدة في مقهى لندني.. ترى ما وقع الصدمة على وجوههن حينما يعلمن بأمري.. زوجة أبي وأمي وعمتي، هن سبب تعاستي وشقائي وتشردي، أمي بانسياقها وراء أهوائها ونزواتها وتفضيل مصلحتها الشخصية على حساب أولادها، وعمتي بحقدها على أمي الذي تعاظم وتضاعف وامتد ليشملني وأخي دون ذنب أقترفناه.. وزوجة أبى بغيرتها الجنونية مني على كل شئ وأي شئ.. تغار من حب أبى لي.. من جمالي، دراستي، شخصيتي المرحة.. كل شئ حتى أحالت حياتي جحيماً لا يطاق ووصمتني بمرض نفسي لا يرحم..

نهضت بسرعة بعد أن وضعت النقود على منضدة المقهى، وكأنني أهرب من نفسي ومرضي.. مرضي الذي لم يعرف فيصل شيئاً عنه على الإطلاق رغم انه وصمني بالعار بين أهلي وقرابتي، الكلمة الدارجة على لسان كل من أراد إهانتي وإذلالي، وهم كثيرون.. فقط كلمة واحدة.. مجنونة مريضة.. وأتجمد في مكاني قهراً وألماً وعجزاً وأتوارى بعيداً عن الأعين لأبكي وأبكي وأبكي.. كيف أصابني هذا المرض ولماذا ومتى وأين؟

أتذكر جيدا أول نوبة أصابتني، كنت في الخامسة عشرة من عمري، وأمكث أيامها عند أبي.. كانت زوجته تقيم حفلة بمناسبة

نجاح ابنتها من الصف الأول الإبتدائي، وكأنها قد حصلت على الماجستير.. الزينات في كل مكان، البهرجة والبذخ والموائد العامرة، الهدايا الكثيرة التي انهالت على الصغيرة، أحسست بما يشبه الغثيان.. لا أدري أكان بسبب الأكل أم بسبب أجواء الاحتفال الخانقة.. انسحبت بهدوء لأستريح.. وما أن أغمضت عيني لأنام حتى فوجئت بزوجة أبي تقف بباب الحجرة منتفخة الأوداج.. غاضبة ينطلق الشرر من عينيها الصغيرتين:

ـ أهذه هديتك لأختك؟.. تنسحبين من حفلها وتتركين المدعوين وكأن لا علاقة لكِ بها..

تلعثمت وأنا أرد:

ـ إنني مريضة.. لقد أحسست ببعض الغثيان و..

قاطعتني بغضب:

ـ أنت مريضة وفيصل يذاكر دروسه.. لماذا؟.. لماذا تكرهوننا؟ ماذا فعلت بكم أنا وأطفالي؟.. لماذا تحرجونني أمام الناس؟

ثم اقتربت لتهزني بعنف متابعة:

ـ لماذا تجعلون الكل يعتقد أنني أعذبكم.. لماذا؟

دفعتني بقوة لأسقط أرضاً وهى تصرخ:

ـ ماذا فعلت بكم؟.. ألأنني تزوجت أباكم.. أهذه هي جريرتي..

سمعت صوت أبي ثم رأيته يمسكها من يدها ويهدئها..

صرخت في وجهه وهى تبكي:

ـ لقد أفسدت علينا ابنتك الحفلة.. بسبب غيرتها من أختها وحسدها لى أفسدت كل شئ..

تمتم أبى ببعض الكلمات:

ـ لا عليك.. لم يحدث إلا كل خير..

صرخت أكثر:

ـ ألن تفعل لها شيئا؟ أتتركها هكذا دون عقاب؟

وكأنما ضغطت على زر تشغيل لرجل آلي.. فتحرك أبى بسرعة لينتشلني من الأرض، ويصفعني للمرة الأول في حياتي.. وهو يقول ربما بلا اقتناع:

ـ كوني مطيعة لخالتك في المرة القادمة..

ثم يتأبط ذراع زوجته ويخرج..

هدأت العاصفة من حولي، بيد أنها تصاعدت داخلي، فبقيت أحدق في سقف الحجرة بذهول وتيارات قوية تعصف بذاتي من الداخل.. تمور وتمور وتمور.. غثياني يزداد ويتعاظم، العرق الغزير يبلل جسدي، أجاهد لأتنفس، أبحث عن نسمة هواء تضخ الحياة في رئتيَّ المنهكتين.. تتلون الدنيا أمامي وكأنها ليست هي الدنيا.. وكأنني أعيش على ضفاف المستحيل، سواد قاتم، ظلام حالك، صرخات لا أدري منبعها تدوي في أذنيَّ لتزلزل كياني..اشعر بقلبي يكاد يقفز من صدري..

تستصرخني دقاته الغجرية لينتفض جسدي المرة تلو المرة، حتى بت لا أعرف من أنا.. لكن رغماً عني صرخت بقوة وأنا أغرق في بئر بلا نهاية.. وأفقت على دموع فيصل شقيقي وهو يضمني إلى صدره.. أغمضت عينيّ بهدوء وكأنني أعود من رحلة شاقة قطعتها عدواً على أقدامي.. لم تفتني نظرات الندم في عيون أبي والشماتة في عيني زوجته..

وقفت لحظات أحدق مذهولة بالمرأة التي اصطدمت بها عفواً.. اخترقتني العينان الزرقاوان بتعجب، ثم تمتمت بكلمات لم أفهمها وان أظهرت خلالها امتعاضها.. سرت بخطى بطيئة متخاذلة، وكأن مجرد ذكرى نوبتي الأولى يحملني أحمالاً لا أطيقها وجبالاً من الهموم ينوء بها كاهلي رغم توالي النوبات بعد ذلك.. والتصاقها بي وانهزامي أمامها إلا أنها تبقى كما كانت، دائماً النوبة الأولى اللبنة الأولى في تفكك شخصيتي وانهيارها، الخيط الأول الذي قادني إلى دهاليز المستشفيات، فظللت أتخبط فيها ردحاً من الزمن دون أي شفاء يذكر.. البوابة الأولى لعالم المرض القاتمة ودنياه الكالحة واغتيالاته المفاجئة، البذرة الأولى للعار الذي لحقني ووصمني به أقرب المقربين، ليصبح سوءة يذلني بها من حولي.. في أي خلاف عابر لي مع أحدهم أو عدم انصياع لرغبتهم أو حتى لمجرد جرحى وإذلالي وإهانتي.. تتشكل الحروف وتنبض الكلمة لتندفع في وجهي حارقة.. مسمومة «مجنونة».. «مجنونة».. «مجنونة»..

في اليوم الأخير قبل سفري وأنا أودع عمتي وأبناءها همست لي ولعابها يتطاير من فمها:

ـ لا تنسي يا سارة.. استفيدي من ذلك البلد.. دعي أخاكِ فيصل يعرضك على الأطباء هناك.. ثم أضافت بسخرية مُرة..

«لعل وعسى»..!!

واغتالت فرحتي.. سرقت بهجة السفر ووأدت غبطتي بلقاء أخي الحبيب.. ألقت على مشاعري المشتعلة بالفرحة ماء بارداً مثلجاً أطفأ كل شئ داخلي..

فوجئت بالماء الحقيقي ينهمر على رأسي.. رفعت رأسي إلى السماء لتسقط قطرات من المطر في عينيّ.. أسرعت لأختبئ داخل أحد المخازن ودموعي تمتزج بحبات المطر لتمسح عن وجهي ما علق به من أحزان..

(4)

صحوت من النوم لأفاجأ بورقة مثبتة على باب الحجرة.. نزعتها لأجد توقيع أخي فيصل، ارتجفت وأنا أقرأها خوفاً من حدوث مكروه له «سارة.. لقد خرجت باكراً لأن لدي موعداً مهماً قبل العمل.. استعدي اليوم للخروج.. فقد قررت أن أعرفك على «كاتيا» صديقة عربية ونتناول العشاء في مكان جميل.. استعدي في السادسة مساءً»..

ابتسمت بيني وبين نفسي.. يبدو أنه يحبها حقاً وسيتزوجها وإلا لما تجرأ على أن يعرفني بها ويدعوها معي للعشاء أيضاً!!.. هززت كتفي بلا مبالاة، إنها حياته الخاصة ويسعدني بالطبع ما يسعده.. جلست طوال فترة بعد الظهر وأنا استعد لهذه الأمسية.. أخرجت كل ثيابي ولم يعجبني شيء منها، ثم أعدتها مرة أخرى وبدأت أختار من جديد، لابد أن يكون مظهري لائقاً وأن يجمع بين الحشمة والأناقة والتهذيب.. استبعدت أكثر من ثوب أبدو فيه كعربية بدوية رجعية.. أخيراً وقع اختياري على بنطال واسع جميل يتناسب مع حجابي ولا يناقضه ويتواءم مع هيئتي العامة دونما إسراف..

في السادسة تماماً هاتفني أخي لأنزل إلى السيارة.. لم يفاجئني مظهرها، فقد رأيتها مراراً عبر صورها، وقد كانت أجمل بكثير من الصور.. كانت رقيقة ودودة..

جلسنا متجاورتين في مطعم عربي راقٍ.. كنت صامتة معظم الأمسية عدا بعض الكلمات التى كنت أضطر للتفوه بها رداً على أسئلة كاتيا.. اقسرت نفسي لأسألها سؤالاً بدا لي غبياً في البداية:

ـ هل أهلك هنا؟

وعندما رأيت ملامحها تتغير أردفت بسرعة:

ـ أقصد هل تعيشين هنا منذ فترة طويلة؟

شعرت بها تغتصب ابتسامة وهى ترد:

ـ منذ حرب لبنان ونحن هنا.. أمي تمتلك مطعماً لبنانياً يساعدها أخي روبير..

أطرقت مفكرة.. لم تذكر شيئاً عن أبيها، ربما مات في الحرب وربما انفصل عن والدتها.. وربما!!

ـ ما رأيك تخرجين مع روبير لتشاهدي معالم لندن؟

لم أستطع استيعاب ما قالت.. لكن علامات الصدمة بدت واضحة جلية على وجهي وأنا أنظر إلى أخي، هل كنت أنتظر منه أن يصفعها ثم يشدني من ذراعي ونخرج، أم كنت أتوقع أن يصرخ في وجهها بشدة مبيناً لها أنني سليلة عائلة محترمة من المستحيل أن تخرج بناتها مع رجال كائناً من كانوا، ولست مثلها، وبأبسط الأحوال كنت آمل أن يفهمها بهدوء بأنني فتاة محجبة عشت وسط محيط صارم وتقاليد عريقة لا يمكن تجاوزها.. لكن.. تعودت دائماً ألا أنتظر شيئاً من أحد فربما تبخل عليّ به الأقدار، فأحزن وأتحسر ويستمر بي

الانتظار إلى الأبد، وقد فاجأني أخي تلك الليلة بشكل غير متوقع.. ألفيته يبتسم بهدوء وهو يسألني:

ـ نعم.. ما رأيك يا سارة.. فأنا وكاتيا مشغولان دائماً.. الجامعة والعمل أيضاً الصالون بالنسبة لكاتيا.. لكنني أعتقد بأن روبير يملك أوقاته أكثر منا فهو رجل أعمال..

هتفت كاتيا بلهجتها المميزة:

ـ ولو.. بالطبع سيتفرغ لها..

أطلت التحديق إلى أخي لأتأكد أنه لا يمزح أو يهزل أو يستظرف.. بدا لي جاداً وهو يقول:

ـ منذ الغد سأعرفك بروبير حتى يمكنك أن تخرجي معه..

كرهت صمتي.. مقت ضعفي.. لم أشعر قبلاً بأني صغيرة ضعيفة وهشة طوال حياتي البائسة رغم الهوان والإذلال الذي تجرعته منذ صغرى.. كنت دائماً أشعر بأنني وأخي كجزيرة معزولة في قلب المحيط تتقاذفها الأمواج والعواصف من كل جهة، لكنها تبقى ثابتة صلبة لا تغرق ولا تنقسم ولا تتفتت.. تلك اللحظة أحسست أن الجزيرة بدأت بالانقسام والتجزأ وأن عامين فقط في الغربة دمرت سنوات طويلة من وحدة اليتم والتشرد والضياع.. هل أنت فيصل؟ شقيقي وتوأم روحي الذي تخاف عليَّ من نسمة الهواء وجروح الكلمات.. أأنت ذلك الشاب الغيور الذي صفعني تلك الصفعة التي لن أنساها ما حييت لمجرد أن زميلتي وشقيقها قد أوصلاني إلى البيت فقط..

تتراءى لي صورته القديمة منتفخ الأوداج.. محمر الوجه يغلي غضباً وغيرة وهو يهتف:

ـ كان من الواجب أن ترفضي.. فصديقتك ليست محرماً لك..

ـ لكنه لم يرني ولم أتكلم.. انه..

قاطعني بحدة:

ـ المهم انك ركبت السيارة مع رجل.. رجل!! أتفهمين.. وأخذ يهزني بعنف رغم بكائي..

تعود الصورة الغائمة لذلك الفتى الغيور ذي الشهامة والمروءة والرجولة المبكرة لتنطبع على وجه أخي الماثل أمامي صورة باهتة بلا ملامح، مائية ضبابية هلامية، أتحسس مكان الصفعة القديمة وكأنني أشتاقها أو أبحث بين أطلالها عن جزء ناقص، رجولة ذهبت ولن تعود، ويحك فيصل أهكذا تتركني لقمة سائغة لهذه وأمثالها، أم أنني ربما كنت أهول الأمور وأحملها ما لا تحتمل.. تقتحمني سراديب مجهولة عميقة السواد.. صراخ.. صراخ فظيع يدوي في رأسي ويفتت أعصابي.. الطفلة العارية تقفز إلى رأسي من جديد.. قلبي ينبض بقوة مجنونة فلا أستطيع متابعته، خوف مرعب يشلني من قمة رأسي حتى أخمص قدميَّ.. أحاول جاهدة التماسك والسيطرة على وضعي.. أحاول بصعوبة أن أتمسك بتلابيب الواقع وألا أغيب في ردهات المجهول.. عرق غزير يبلل جسدي بلا حساب واسقط في فوهة بلا قاع.. تتلقفني أذرع مجهولة لتدفعني إلى مزيد من الضياع.. سقوط وسقوط وسقوط حتى أنعدم الهواء تماماً.. رئتاي تكادان

تنفجران.. أين الهواء؟ أنني لا أتنفس!! وكأنني أدخل نفقاً مفرغاً من الأكسجين، أضواء تبرق وتتلاشى، أناس يعبرون، الموت يشل حركتي حتى إنني أوشك على الجنون، تهبط نبضات قلبي، تكاد تقف ثم تتباطأ، وتتباطأ، حتى أوشك على الإغماء..

ـ سارة.. هل أنت على ما يرام؟

أعود فجأة إلى أرض الواقع.. أهمس لاهثة وكأنني عداءة قد أنهكها العدو في سباق فاشل..

ـ نعم.. لكنني متعبة قليلاً..

ابتسمت كاتيا قائلة:

ـ هل ضايقك شئ ما.. هل تشعرين بتوعك؟..

هززت رأسي نفياً دون أن أكلف نفسي ترف الرد..

أخيراً قال فيصل:

ـ يبدو أن سارة متعبة.. هيا بنا يا كاتيا.. هيا يا سارة.. فلنذهب الآن.. وعندما نطمئن على سارة نكمل السهرة أنا وأنت كاتيا..

في سريري داخل عتمة النفس وظلام الليل الدامس من حولي وفي أجواء باردة لم ألفها وبين عقارب الصحوة والنوم والتعب وخيبة الأمل تراءت لي أمي.. رأيتها كما أراها دائماً بطولها الشامخ وجسدها الممتلئ وشعرها المجنون يعربد من حولها وكأنه يوشك على اغتيالي.. اقتربت مني بسرعة وفى لحظة قصيرة مفعمة بالألم انتزعت

مني أعز ما أملك.. انتشلته بأصابعها التي تقطر دماً ثم همست وهى تغادر:

ـ كي تكوني عاقلة..

وتعددت الصرخات داخلي.. أماه كيف أكون عاقلة وقد انتزعت أغلى ما أملك في الوجود؟ ما يميزني عن غيري من المتزوجات وغيرهن، ما احتفظت به طويلاً وفى ظروف مفزعة تأبى إلا الاستسلام والرضوخ وضياع كل شئ، أماه أعيدي لي رمز أنوثتي وصك براءتي وعنوان غربتي وضياعي.. أماه..

لكنها تلاشت كما الظلام في الحجرة ليكتسحه النور الساطع.. أغمضت عينيّ بشدة لأسمع صوت فيصل:

ـ سارة.. ألا زلت متعبة؟.. لقد سمعتك تصرخين..

فتحت عينيّ بتثاقل.. طفق بصري يجوس أرجاء الحجرة.. ليس لأمي أثر.. تجمدت نظراتي على جسدي المغطى بالدثار السميك، بلا جروح ولا قطرة دم على أرض الحجرة الخشبي اللامع!!

تعلقت عيناي بوجه أخي ذاهلة.. سألني مرة أخرى:

ـ سارة ما بك؟ منذ البارحة وأنت متعبة.. هل نذهب لطبيب؟

طبيب.. نعم.. انني أحتاج لطبيب.. بل انني في حاجة ماسة لمشفى يعج بالبياض الناصع ويغرق في ملائكية احتاجها بلهفة.. لانتزع الماضي الأسود الذي يعيش داخلي ملتصقاً بأحشائي كحشرة بغيضة تأبى الابتعاد حتى وهى تتمزق.. أريد أن أنام وأنام وأنام..

ـ كلا يا فيصل.. لكنها الغربة..

انفرجت شفتاه عن ابتسامة ثم ما لبثت الابتسامة أن اتسعت لتسفر عن ضحكة كبيرة نقلت العدوى إلي فضحكت معه..

ـ غربة!! أيام معدودة وتقولين غربة.. إذن ماذا اسميها أنا الذي عشتها اكثر من عامين؟ غربات أو غروب ما رأيك غروب؟ غروبي عن العالم العربي.. هيا.. هيا انهضي.. ولنستقبل شروق يوم الأحد معاً ثم نودع الغروب..

اغتسلت سريعاً لكن حانت مني التفاتة سريعة إلى وجهي في المرآة فألفيته شاحباً ممتقعاً وبدت آثار المعركة الداخلية واضحة جلية على ملامحي وكأنني لم أذق للنوم طعماً منذ ليالٍ عديدة..

ارتديت ملابسي كيفما اتفق ووقفت أعد لأخي الفطور.. انتبهت لأخي فيصل وهو يشدني من يدي برفق هاتفاً:

ـ كل طعامنا اليوم ستتناوله في الخارج..

صافح الهواء البارد وجهي ليعيد شيئاً من التوازن إلى داخلي المبعثر.. اخترقنا أمواج البشر وأنا أشعر بفرحة وليدة تنمو في قلبي سرعان ما تبدلت إلى فرحة غامرة وأنا اغتسل من أحزاني بماء المطر المتساقط بغزارة وكأنني عدت طفلة بقلب خالٍ من جديد..

بعد أن انتصف النهار وأثناء تجوالنا سألني فيصل وابتسامته تتوج وجهه:

ـ ما رأيك في مطعم تبولة في الادجوار رود.. نتناول غداءنا

هناك..

هتفت غير مصدقة:

ـ ماذا؟ تبولة!! وفى لندن!!

قهقه ضاحكاً:

ـ سأريك العجب العجاب.. سأعيدك إلى العالم العربي من جديد، ولكن في قلب لندن.. هيا إلى ادجوار رود..

تأبطت مشترياتي الكثيرة وأنا أفكر.. ربما كان هذا المطعم هو ملك أم كاتيا التي أشارت إليه..

لم أسأل أخي ومضيت معه غير عابئة بشيء!!

«فى لجج التيه»

5 محرم سنة 1421 هـ

أول يوم في لندن.. يا إلهي.. المدينة الحلم.. مدينة الحرية والضجيج وآمال لا يحدها المستحيل، مدينة الزهور والنساء والعطور، مدينة المدائن.. بل مدينة العالم بأسره، كل شئ تجده فيها كما قالوا لي، كل ما هو ممنوع ومحرم ومستحيل يختبئ في زاوية من زواياها بل يظهر كأضواء النيون ساطعاً ومغرياً.. أنها تناشدك فاتحة ذراعيها لتسبر أغوارها وتعب من عالم الخيالات العذبة وبحيرات اللذة وتتمرغ حتى قمة رأسك بين المباح والممكن ولا شئ مستحيل.. العيون الزرقاء التى لا نراها سوى في إعلانات المجلات وتتصدر أغلفة الكتب الممنوعة والجدائل الشقراء التي نلمحها خطفاً في التلفزيون أو سراباً في هيئة حلم وأجواء الضباب التي نتحرق شوقاً لها ولا نراها سوى أيام معدودة في كل عام، الطعام، الشراب، المستحيلات بألوانها المتعددة كلها نراها هنا في كل مكان.. نكاد نلمسها بأيدينا بل نكاد نتجاهل وجودها من فرط اعتيادنا عليها.. لكن.. ما بالي لست سعيداً؟ بل إلى البكاء أقرب.. أهي صدمة الانتقال إلى العالم

الجديد، أم هو عذاب الهروب، أم هو فراق الأحبة رغم علمي انه لا أحبة لدي سوى شقيقتي سارة وليلى صديقة شقيقتي ورفيقة الجراح..

تؤرقني دموع سارة وهى تودعني أشعر بأن كل دمعة هي طعنة خنجر تغرس نصالها في قلبي قبل أن تنحدر على وجنتيها..

هتفت باكية:

- ألا زلت مصراً على السفر..

تماسكت بأعجوبة وأنا أجيب:

- لا جدوى من البقاء..

قالت بضعف:

- صدقني ستتغير الظروف.. ستعمل ثم تدرس ثم نبحث عن سكن خاص بنا وسننجح حتماً..

فاضت شفقتي عليها وزادني صوتها المهزوز الضائع في دهاليز الأماني المستحيلة من شفقتي وعطفي عليها..

كدت أبكي وأنا أقول:

- سأعود إن شاء الله قريباً ومعي كل المال اللازم لبناء حياتنا من جديد وستتزوجين يا سارة.. أليس كذلك؟ ستتزوجين حتماً ويكون لك البيت الذي تحلمين به.. ولا تخافي عليَّ فلن أضيع أبداً..

في الطائرة بكيت كثيراً لدرجة أنني لم أنتبه للساعات الطوال وهي تمر ولا للمسافرين إلى جواري ولا إلى الطعام المقدم على الرحلة..

كلما تذكرت سارة وهى تبكي ودموع ليلى من وراء غلالة سوداء شفافة أبكي بصمت والخواء داخلي يزداد ويعمق بغير نهاية.. وقابلتني لندن بوجه كئيب يحاكي الحزن المتنامي داخلي فلم أر منها سوى السواد حتى وأنا أدخل حجرتي المتواضعة في هذا الفندق القذر الكئيب..

15 محرم سنة 1421هـ

انتقلت إلى ايرلز كورت Earl's Court في فندق ضم غرفاً بنظام Bed and breakfast.. بعد أن تعذبت أياماً في البحث عن سكن مناسب وأرخص أجراً من الفندق الذي سكنته بداية قدومي إلى لندن، لأن المبلغ الذي معي محدود ولن يساعدني أحد إذا ما انتهى هذا المبلغ، فلا أنسى جملة أبي حينما أبلغته برغبتي بالسفر:

- من يدرس في الخارج هو أحد اثنين إما غني مترف لا تهمه النقود.. أو شحاذ هارب من شئ ما ومستعد دوماً للصعلكة والضياع لتأمين لقمة العيش..

رددت وأنا أزفر بألم:

- بالطبع أنا الشخص الثاني يا أبي..

أحسست به يتألم وهو يقول:

- إذا كان هذا هو اختيارك وتصر عليه فلتعلم منذ الآن إنني لن أساعدك بقرش.. فلا دخل لديَّ سوى وظيفتي ثم أنني أصرف على..

واعتصرتني دوامة الأسى، فلم أتابع بقية كلماته ليعطيني في

النهاية ألف ريال واقترضت الباقي من عمتي على أن أسدده لها أقساطاً مؤجلة.. لم أجرؤ على الاقتراب من منزل أمي، فعدا كوني أمقت زوجها فإنني احتقرها داخلي لعذابات متتالية تكونت في نفسي من الطفولة ولم تخجل منى بعد أن صرت شاباً فتجالس زوجها وهى بملابس النوم أمامي وتضاحكه وتداعبه وكأنها بفعلها هذا تقضى على رجولتي قضاءً مبرماً وعلى بقايا احترام كنت أكنه لها في السابق..

كان شريكي في الغرفة الجديدة شاب مصري يعشق الفن التشكيلي، جاء إلى بريطانيا بحثاً عن لقمة العيش.. فمصطفى الذي تخرج في جامعة عين شمس حاصلاً على بكالوريوس علوم لم يجد له وظيفة في بلده، وضاقت به الأرض بعد أن توفى والده وتركه هو وأمه وأخيه الطالب في كلية الطب وشقيقته الصغرى التي تدرس في الثانوية العامة، فقرر أن يبحث عن عمل ينفق من دخله على نفسه وأهله وبدلا من أن يتجه للخليج كبقية أقرانه، اتجه ليضيع في لندن مثلي!!

29 محرم 1421هـ

بدأ المال يتناقص.. وما بحوزتي لم يعد كافياً لسكني وطعامي، ولن أنس أبداً ما حدث لي يوم أمس.. نهضت مبكراً في السادسة صباحاً على صوت جلبة وضوضاء قادمة من الأعلى خمنت بأنها مشاجرة سكارى، لم أجد مصطفى في سريره.. عدت للنوم مرة أخرى.. فتحت عينيّ على منظر غريب لم أره من قبل.. مصطفى ومعه امرأة تبدو وكأنها عربية شبه عارية، قبل أن افتح فمي بكلمة عاجلني مصطفى بلسان مخمور:

ـ أنا حر.. لا تنس انك في لندن ولست في.. في بلدك الرجعي المبرقع.. ونساؤكم الأشباح..

وبعد ضحك متواصل مشترك مع المرأة، خرجت بسرعة من الحجرة كي لا أسمع المزيد، فيكفيني ما أعانيه.. اندفعت إلى الخارج دون إفطار وأخذت أهيم على وجهي أجوب الطرقات باحثاً عن عمل.. أي عمل.. لا يهمني مستواه أو وضاعته فقط لأعيل نفسي واستقل بذاتي بعيداً عمّا يمكن أن يخدش قيمي وما تربيت عليه..

في الحادية عشرة بدأت معدتي تصرخ من الجوع، قررت أن أصبر قليلاً حتى موعد الغداء.. فميزانيتي لا تسمح لي بترف ثلاث وجبات في اليوم.. قادتني قدماي لأحد الفنادق بحثاً عن عمل.. رمقني المدير بعينين خضراوين حادتين من أعلى إلى اسفل، بدءاً من شعري المتطاير وحتى ثيابي الرثة وحذائي القديم المتهالك إلى أعمق أعماقي حيث الجوع والغضب والاستياء.. سألني بهدوء:

ـ بالطبع تعرف كيف تغسل الصحون..

أجبته بحماس: نعم.. أعرف كل شئ وأستطيع عمل أي شئ..

غادرته على أن استلم عملي في الغد.. تناولت غدائي في مطعم رخيص وهو عبارة عن سمك وبطاطس بقيمة 3 باوند دفعتها وأنا أتحسس بقية النقود في جيبي لئلا تسرق أو تضيع، فأضيع معها في مدينة لا أعرفها..

لم أشأ العودة إلى السكن بعد الغداء رغم تعبي الشديد، كنت

مشتت الذهن خائر القوى، أفكر في مصطفى وما فعله بي وكيف سأعيش معه بعد الآن في حجرة واحدة. .عدت إلى السكن في الحادية عشرة مساء، وقد كلت قدماي من التعب والمشي في شوارع لندن بلا هدف والجوع ينهش أمعائي في جيبي 10 باوندات قررت أن ادخرها للغد فربما لا يكون عملي مؤكداً فأموت من الجوع. .

لم يكن مصطفى موجوداً. .فتحت الثلاجة بحثاً عن لقمة تسد رمقي. . لم أجد سوى تفاحة متعفنة وربع زجاجة حليب، شربت الحليب وتأملت التفاحة بحثاً عن طريقة التهمها بها دون أن أقترب من العفن. . فوجئت بمصطفى يدخل هاتفاً:

ـ أين أنت يا رجل. . لقد بحثت عنك كثيراً لاعتذر. . أعذرني يا فيصل كنت مخموراً والمرأة. . أنت. .

قاطعته بإلقاء التفاحة عليه وأنا أقول بانكسار:

ـ قريباً سأجد عملاً ثم استقل بعيداً عنك وسترتاح مني ومن عقدي. .

29 صفر 1421هـ

وقعت مشادة كبرى صباح اليوم بيني وبين هاري مديري المباشر، رآني التهم ما تبقى من طعام في طبق أحد الزبائن، عنفني بشدة، أفهمته إنها مجرد بقايا ولن تفيد أحداً سواء أكلتها أم ألقيتها في سلة المهملات. . أدار لي ظهره بعد أن خصم من راتبي بضعة باوندات قائلاً بأننا العرب متخلفون في كل شئ ولا نعرف أدب اللياقة، بصقت على الباب خلفه وأنا اشتمه بالعربية هذا الخنزير القذر. . صعب أن

يفهم معنى الجوع وهو لم يشعر به. . استحالة أن يفهم التقتير على الذات لأوفر نقوداً أنا في أمس الحاجة إليها. . فعملي هنا ليس إلا بداية وليس نهاية المطاف، بعد ذلك يجب ان التحق بالجامعة لأدرس وأحصل على شهادة تمكنني من العيش بسلام وسط أهلي في بلدي. . حاولت أن ازدرد دموعي، لكنها أبت إلا أن تنحدر على وجهي بمرارة إنسان مكافح يجد الصعوبات في كل مكان، ربت كاظم العراقي بيده على كتفي مواسياً ومشاركاً لي أوقات انهزامي وذلي من أجل لقمة لم استطع حتى ابتلاعها. . قال لي كاظم بلهجته العراقية المميزة:

ـ أنس. . أنس أخي فيصل. . أنس. .

لكنه لم يقل لي أنسى ماذا بالضبط. . وهل أنسى الجرح المفتوح بصديده وآلامه التي لا تنتهي؟

وازدردت الإهانة مع كمية من الدموع وذل بلا حساب، ومضيت إلى عملي كأي إنسان آلي بلا كرامة ولا كبرياء، أعمل من أجل لقمة العيش كأي وافد آسيوي ممن تعج بهم بلدي. . في تلك اللحظة فقط تذكرت «فريد» ذلك العامل البنغالي الذي يعمل لدى أبي، كم طرده وعذبه وبصق في وجهه. . لكنه صامد من أجل حفنة ريالات. . وسأصمد أنا من أجل حفنة باوندات!!

15 ربيع أول 1421 هـ

البرد شديد ينخر عظامي نخراً والجوع يفترسني في هذه الليلة الباردة، مشيت عائداً من عملي، أحاول أن اتدثر بمعطفي الجديد الذي ابتعته صباح اليوم من السوق الشعبي في Shpherd's Bush أمام

محطة القطار سعره كان زهيداً من وجهة نظر البائعة، لكنه باهظ الثمن في نظري فثمنه الـ 12 باوند يكفيني أن أتناول وجبة عشاء فاخرة في أحد مطاعم الايدجوار رود.. لكنه يصد عني هجمات البرد على أقل تقدير، أرقب الناس في المطاعم يتناولون ما لذ وطاب من الأطعمة ويضحكون غير عابئين بشيء، ترى هل هم سعداء؟ وهل السعادة في الأكل والشرب والضحك؟ إن الحيوانات تفعل مثل هذا وأكثر، لكنها بدون عقل.. هل العقل يعنى التعاسة؟ العقل يعنى التفكير والتفكير يقود إلى الهموم والمسئولية، الهموم تحبطك وتحزنك والمسئولية تحرمك من الطعام واللبس الفاخر بغية التوفير لأيام سوداء قادمة..

وجدت مصطفى يحتسى البيرة مضطجعاً على السرير.. يا إلهي كم كرهت هذا الإنسان!! حالما أدركت ما يحوي داخله من سواد وقذارة وحقد، كرهته كما لم أكره بشراً في حياتي.. يحقد عليَّ لأنني خليجي ولأن أهل الخليج أثرياء، ولأنه ولد فقيراً وسيموت فقيراً ومحروماً كما يقول.. وما ذنبي إذا كان أهلي أو أجدادي أغنياء، فليرى حالي ولينتشي حقده بفقري وضياعي وقلة حيلتي..

سألني وهو يبتسم ابتسامة صفراء وضيعة:

ـ معطف جديد.. هكذا إذن يا رجل.. اخرج النقود التي تخبئها.. هيا افتح مغارة على بابا واخرج ذهب الخليج.. أم لا زلت تدعى الفقر والجوع؟

ثم أردف بعد هنيهة:

ـ إن الفقر والجوع علامة تجارية لنا وحدنا فقط.. أما أنتم..

قاطعته بنفاد صبر:

ـ مصطفى أرجوك.. أنا متعب وجائع.. ولا طاقة لي على مثل هذه المناقشات العقيمة.. هل لديك ما يؤكل؟

ضحك بشدة حتى كاد يتقيأ:

ـ وكأنك لم تأكل في فندق الدروستشر.. هاه.. أجبني.. ليس لدى سوى هذه البيرة.. هل تريد؟..

بصقت عليه بغضب، واحتضنت جوعي وألمي ومعطفي الجديد، وحاولت النوم وأنا أقسم بأنني سأبحث عن سكن آخر في أقرب فرصة، لا يزعجني فيها أمثال هذه الطفيليات.. حلمت بعمتي تقدم لي صحناً كبيراً من الأرز تتوسطه دجاجة محمرة، وفطائر وسندويشات منوعة، وحلم آخر بأنني أسير وسط ولائم متعددة فيها أصناف هائلة من الطعام..

أفقت على أصوات غير مألوفة.. التفت إلى السرير المجاور كان هناك رأسان وأربع أقدام.. نهضت أترنح وأنا أعلم أني لا مكان لي هنا..

18 ربيع أول 1421هـ

الضباب يغشى المدينة والمطر يهطل بلا انقطاع ليقرع الزجاج بأصوات متوالية رهيبة.. وفى يدي نشرة فيها عناوين عائلات بريطانية تبحث عن تأجير إحدى غرف بيتها بأسعار مناسبة لميزانيتي.. همس لي كاظم العراقي:

- صدقني فيصل أن هذه العائلات أفضل لك بكثير من سكنك الحالي مادمت منزعجاً من رفيقك في السكن..

ثم أضاف:

- وستتعلم اللغة الإنجليزية بسرعة وبإتقان وبلهجة بريطانية أيضاً..

ابتسم وهو يضيف:

- وإذا كان لديهم فتاة جميلة فستكون صديقتك..

مضيت أغسل الأطباق الكثيرة وأنا أفكر.. نعم إنها فكرة لا بأس بها.. على الأقل ابتعد عن هذا المصطفى القذر، وأفكر في مستقبلي برؤية جديدة لأستطيع أن التحق بالجامعة ولو كان بالنظام المسائي، لأتمكن من تدبير نفقات إعاشتي.. لن يطول تفكيري وسأقرر سريعاً..

30 ربيع الأول 1421هـ

انتقلت للعيش مع عائلة سميث، وهى عائلة لطيفة تتكون من الأب ديفيد سميث والأم مسز سميث كما أطلق عليها دائما وابنتين اليزابيث الكبرى في الثانية عشرة من عمرها ومارى الصغرى في العاشرة عدا كلب الأسرة المدلل (هيب).. في البداية أحسست بالإحراج الشديد والخجل الأكثر إحراجاً، فلم أتعود أن أعيش وسط عائلة غريبة.. اجتمع بي مستر سميث في أول يوم من حضوري وأعلمني قوانين العائلة، لا تأخير بعد الساعة العاشرة مساءاً وستؤمن لى وجبتي الفطور والعشاء فقط وعلى أن أتدبر غدائي وفى حال كنت

موجوداً فسأتناول معهم شاي الخامسة كما يطلقون عليه.. عليَّ تنظيف غرفتي وأي شئ استخدمه بنفسي، وألا أتكل على الآخرين، فهنا كل فرد يخدم نفسه بنفسه.. وطبعاً ممنوع التدخين وممنوع استقبال الضيوف ويجب أن أشارك الأسرة في تنظيف الحديقة أسبوعياً.. لم أمانع ولمَ لا.. ما دمت أدفع 40 جنيهاً إسترلينياً أسبوعياً وهو أرخص من الفنادق البائسة وأكثر أمناً.. على الأقل أجد طعاماً آكله ولو مرتين في اليوم لا يهم.. ثم أن العائلة لطيفة.. لا مشاكل لي معهم سوى هذا الكلب هيب الذي أكرهه من كل قلبي.

10 ربيع الثاني

اعتصمت في حجرتي اليوم، ارتجف من الغضب ومن البرد ومن الخزى، ثلاثة أحاسيس متناقضة أخذت تموج داخل نفسي.. ولا أستطيع أن أتحرر منها وبنفس الوقت لا أستطيع التأقلم معها ومعايشتها.. ماذا أفعل إذن؟

عدت من عملي في الرابعة مساءً، وجدت السيدة سميث وحيدة.. قالت لي بأن زوجها في اجتماع عمل وان الطفلتين كما تطلق عليهما في رحلة مدرسية.. لا أدرى لماذا ارتبكت وارتجفت يداي لمجرد شعوري إننا بمفردنا في البيت.. أسرعت إلى حجرتي وكأنني أهرب من أفعى تطاردني رغم أنني لم أر أية بادرة منها توحي بما عكسه لي خيالي، حاولت طرد الشيطان، أفهمت نفسي بأنني متخلف ورجعى ولا زلت أعيش بعقلية القرون الوسطى.. الرجل + المرأة + الشيطان.. لمَ لا أنسى بيئتي وتربيتي وتزمتي.. لماذا يعيشون تحت جلدي حتى وأنا في لندن؟ لمَ لا أبدو طبيعياً وإنساناً

متحضراً كأي شاب بريطاني وأخرج لأتناول معها شاي العصر وبعض الشطائر والكعك التي كنت في أمس الحاجة إليها فمعدتي تئن جوعاً، فلم أذق لقمة واحدة منذ إفطاري في الصباح.. لم أستطع التحرك خطوة واحدة من مكاني، تشبثت بسريري كما يتشبث الغريق بقطعة خشب طافية على الماء.. لكن المفاجأة التي زلزلتني.. هي.. سيدة سميث..

طرقت الباب بهدوء أولاً، ثم بشدة، ثم دخلت قائلة: ما بك.. هل أنت مريض؟

ثم اقتربت لتجلس على السرير بهدوء وهى تقول:

ـ لقد لاحظت بأنك ممتقع اللون وترتجف.. هل تعاني من عارض مرضي؟

ازداد ارتجافي وهى تقترب، حتى كدت أقع مغشياً عليَّ.. مسدت رأسي بحنان ثم قالت بابتسامة لا تخفى عليَّ معانيها:

ـ منذ البداية وأنا أشعر بود تجاهك.. أشعر بك كفارس أسمر جاء من الشرق الأوسط ليسحرني.. هل أبدو لك جذابة؟

ولأول مرة منذ اقتحمت حجرتي أنتبه إلى أنها ترتدى ثوباً قصيراً وشفافاً يظهر أكثر مما يخفي..

وضعت يداً لاهية على صدري.. شعرت بها تحرقني «ويلي من وصم الإنجليز بالبرود».. لم أشعر بنفسي إلا وقد انتهى كل شئ.. تضافرت عليَّ الظروف، حرماني وألمي وقلقي..

أفقت لنفسي وكأنني عذراء قد سلبت عذريتها فجأة.. كدت أصرخ، أبكى ألطم، لكنني رجل.. وأي رجل!!

اجتمعت بمستر سميث وحرمه المصون وابنتيه على العشاء وأنا مجلل بالخزى والعار.. بالكاد كنت أتنفس، اللقمة لا تتحرك واقفة في حلقي، لا تخرج ولا تنزل، أشعر بأنني جرحت الرجل، أسأت إليه.. طعنته في شرفه ورجولته، مرغت كرامته في الأوحال، وهو الذي آواني في بيته.. صحيح أنني أدفع مبلغاً معيناً أسبوعياً.. لكن.. تباً للنقود.. وهل تشتري النقود الشرف الذبيح والكرامة السليبة.. كانت هي في قمة نشاطها وحيويتها ومرحها.. كان زوجها سعيداً بها.. وأنا أتمزق من الداخل..

وقفت فجأة.. سألني:

ـ إلى أين مستر فيصل؟

غمغمت بأنني متعب.. واعتصمت بحجرتي، أمقت كل شئ وأي شيء.. كتبت هذا لأستريح وأعلن أنها غلطة لن تتكرر لاعتبارات عديدة.. ديني، أخلاقي.. شرف الرجل الذي أسكنني بيته..و.. وغيرها.. ليتني غريب ملحد أو إنسان متبلد الأحاسيس، مجرم بالسليقة لأرتاح..ولن أرتاح!!

15 ربيع الثاني:

رباه.. ما هذه اللعنة التى تلاحقني.. كلما استقر في مكان ما.. يأتي ما ينغص عليَّ عيشي ويزعزع استقراري ويقوض سعادتي.. لم

أتم شهراً عند عائلة سميث وها أنذا أفكر في الانتقال إلى مكان آخر أو إلى جهنم حتى.. يبدو أن السيدة سميث لن تدعني أفلت من يدها شئت هذا أم أبيت..

حاولت أن أتحاشى لقاءها منفردين منذ اللقاء الأخير المشئوم، لكن يبدو إنها تتحين الفرص ولم ولن تيأس مني.. فوجئت ليلة البارحة وأنا غارق في لجة النوم بيدي تصطدم بجسد ناعم إلى جواري.. استوعبت المفاجأة وأفقت تدريجياً لأجد المسز سميث ترقد إلى جواري عارية تماماً، وفى الساعة الثانية صباحاً!! شهقت بفزع سارعت إلى إغلاق فمي بيدها وهى تهمس:

ـ اشتقت لك يا حبيبي..

غامت بعد ذلك الصور في نظري وتداخلت الأشياء.. أصوات قطرات المطر وهي تطرق زجاج النافذة مع فحيح الأفعى وهى تلتصق بي، تكاد تبتلعني ابتلاعاً..

حياتي في الغربة تمرق سريعة أمام ناظري كشريط سينمائي، اهترأ إعادة وتكراراً وأنا أتعمق في دهاليز سحرية لا أعرف من أين تبدأ ولا أين انتهي..

ألفيت نفسي وحيداً على سريرى كقطعة ثياب ممضوغة بالية، اسبح في عرقى وأغالب اشمئزازي وقرفي، أكره نفسي.. وأكره حجرتي.. وأكره بريطانيا بأسرها..

نعم.. لقد اغتصبتني السيدة سميث!!

30 ربيع الثاني

لا أدري هل أضحك أم أبكى أم الاثنان معاً، لأبدو شخصاً فقد عقله، وأنا سأفقد عقلى حتماً.. سأجن.. في سكني الجديد تطاردني السيدة سميث وأجد نفسي منساقاً إليها بالرغم مني، مع خليط حارق من الخزي والعار والاشمئزاز.. لكنني لا أرعوي ولا أستطيع عمل شئ سوى الانتقال لسكن آخر، وهذا ما أبحث عنه حاليا.. أننى أكره ضعفى، أكره ترددي وخضوعي.. وضعفي يطاردني حتى في العمل.. واجهنا هاري مديري المباشر أنا وكاظم وهو يتساءل باحتقار وغيظ مكتوم:

ـ من كسر الطبق؟

أنا الذي كسرته عفواً.. لكنني لا أجرؤ على النطق.. ضعفي يكبلني.. صمتنا معاً، أنا وكاظم.. هو يعرف أنني الفاعل ولا يتكلم، وأنا لا أستطيع النطق حتى ولا بكلمة.. جزَّ هاري على أسنانه بشدة وهو يقول:

ـ على من يتعامل معكم أيها العرب أن يتحلى بضبط النفس.. وإلا كنت حطمت بقية الأطباق على رأسيكما أيها الغبيان.. ستدفعان ثمن هذا الطبق مناصفة.. سأخصم من أجركما الأسبوعي ثمن الطبق..

تحدرت دمعة على خدي رغماً عني.. أحاطني كاظم بذراعيه قائلاً:

ـ ولا يهمك يا رجل.. مبلغ تافه.. هم يعطوننا في الأسبوع 90 جنيهاً لنفرض أن الطبق بـ20 يتبقى لك 70.. نعمة.. نعمة يا رجل..

قلت له أنني لست حزيناً على النقود.. ولكن حزني من أجله هو، فقد أقحمته معي دون ذنب جناه وتلقى الخصم والتوبيخ مثلي..

أخذ يهون الأمر عليّ.. ثم اقترح أن نشرب البيرة في مكان قريب بعد انتهاء العمل.. لم أمانع وشيء ما يحترق في صدري..

15 رجب 1421هـ

تغيرت معاملة السيد سميث لي.. اشك أنه عرف شيئاً عن علاقتي بزوجته، أعلم بأنه لن يثور ولن يطردني، فالعلاقات خارج الزواج والخيانات الزوجية في حكم المعتاد لديهم في بريطانيا، لكن يبدو أن الغيرة بدأت تؤثر على تصرفاته وتفقده بروده المعهود واتزانه.. جلست مع العائلة ذات مساء حول المدفأة نتابع برنامجاً تلفزيونياً.. سألتني اليزابيث:

- هل صحيح أن الفتاة في سني تغطي نفسها بالعباءة في بلادكم؟

تسمرت الأنظار على وجهي انتظاراً لجواب.. وازنت الفتاة بنظري لأدرك تكوينها الأنثوي رغم عمرها الصغير.. أجبت بدبلوماسية:

- نعم.. ولا.. فالفتاة إذا كانت ناضجة شكلياً وكانت علامات الأنوثة واضحة عليها، فلابد أن ترتدي العباءة حتى ولوكانت أصغر منك..

ردت اليزابيث بضجر:

- يا إلهي لو كنت هناك لهربت إلى أي مكان آخر.. إن بلادكم مثل الجحيم.

ابتسم الأب بتشفي وهو يقول:

- تعنى انك لم تر امرأة في حياتك سوى في لندن..

أجبته محاولاً تخطى السخرية في كلماته

- نعم ولا أيضاً.. لأنني أرى قريباتي من النساء بشكل دائم، أما الأجنبيات فلا أراهن..

ضحك بعصبية وهو يقول بكلمات مبطنة بآلاف المعاني:

- هذا يفسر تعلقك بنا!!

اتخذت الصمت متكئاً أمام سطوة نظراته القلقة المضمخة بعذاب الغيرة وألم الغدر، نهضت مترنحاً إلى الحمام، لم أستطع البقاء طويلاً، فأزواج من العيون كانت ترمقني في غدوي ورواحي.. تترقبني في صمت وفضول كالصياد الذي يترقب فريسته، اضطررت للذهاب لحجرتي باكراً، لم يطل بي الأمر كثيراً حتى أقبلت السيدة سميث.. قلت لها بحرقة:

- لا.. أرجوك.. يكفى ما حدث.. اعتقد ان السيد سميث يشك بوجود علاقة بيننا..

استمرت في خلع ثيابها بلا مبالاة وهى تقول:

- نعم.. لقد أخبرته بنفسي..

شهقت بفزع:

- وماذا قال؟

ابتسمت بهدوء وهى تقول: حبيبي.. نحن في لندن وليس في بلادكم المتخلفة.. المرأة هنا حرة.. حرة تماماً.. متى تفيق من تقاليدكم الرجعية؟

افترستني كعادتها وأنا أهمس.. ليتني لا أفيق؟!!

غرة شعبان

عرض عليَّ كاظم السكن معه ومع أحد أقربائه العراقيين على أن نتقاسم أجرة الشقة نحن الثلاثة.. وافقته مضطراً مع وعد مني له بأن أبحث عن سكن لنفسي خلال فترة وجيزة..

أبلغت المستر سميث برغبتى في المغادرة ولن أنسى أبداً ألق الفرحة في عينيه وكأنني سأقدم له جميلاً لن ينساه طوال حياته.. لم يسألني لماذا وأين سأذهب، بل أنه عرض على أن آخذ معي غطاء السرير إذا رغبت في ذلك، دفعت بقية الأجرة وهربت دون أن آخذ شيئاً، هربت قبل أن تحضر السيدة سميث وتبقيني رغماً عني في سجنها الممقوت.. وللمرة الأولى منذ أسابيع أسير في طرقات لندن الفسيحة وأنا اتذوق طعم الحرية المفقودة.. أطلق أنغاماً سعيدة وصفيراً راقصاً رغم تجهم الجو وقسوة البرد، وانهمار الأمطار الغزيرة بعد ذلك.. قررت فجأة أن أكافئ نفسي على هذه الحرية المستردة.. فاستأجرت «تاكسي» قلت له بصوت من عاد له دفء بلاده:

- نايتس بريج (knights bridge)

وأوصلني السائق إلى متجر هارودز (Harods).. تمتعت فيه بالتسوق الحر اشتريت ملابس جديدة بكل مدخراتي، بنطال وقميص

وبالطو.. غالية، لكنها نفيسة.. ثم ذهبت لألتهم فطيرة دجاج مع بيرة.. شعور بالانتشاء يلون الحياة من حولي بألوان الفرح، وانطلقت إلى عشي الجديد كانت شقة صغيرة جداً مكونة من حجرة واحدة ومطبخ وحمام، لكنها نظيفة وأنيقة.. استقبلاني باحتفال.. كان الآخر عراقياً أيضاً وهو ابن عم كاظم يعمل في مطعم عربي.. قال كاظم إن ثلاثتنا سننام في هذه الحجرة، والتنظيف يقسم بيننا على ثلاثة أيام، والطبخ يتولاه عباس بحكم انه يعمل في مطعم، وأوقاته أفضل منا، أما الشراء والتبضع فمناصفة بيني وبين كاظم.. دعواني بعدها إلى عشاء بسيط أعده عباس بهذه المناسبة.. مفاجأة كان باجه عراقية ومكبوس..

انطلقت آكل فرحاً مع إحساسي بأن هذا أسعد يوم في حياتي..

انتبهت على صوت كاظم:

- هيا يا فيصل فلنشرب نخب السيدة سميث..

رفضت بأدب قلت لكاظم.. أنت تعرف يا كاظم أنا لا اشرب..

رد ضاحكاً: لكنك تشرب البيرة وهذه ابنة عم تلك..

تمسكت برفضي وقد أدركت أن كاظم قد حكى قصتي مع السيدة سميث لعباس وربما إلى كل الأخوة العرب الموجودين في لندن!!

15 شعبان

البارحة تناولت طعام العشاء مع كاظم وحيدين، فقد كان عباس في المطعم الذي يستمر مفتوحاً حتى الثانية ليلا.. انتهزت الفرصة لأصارح كاظم بضيفي من وضعي وأنني حتى هذه الساعة لم أسجل

في جامعة أوكليةمع أن هدفي الأساسي وحضوري للندن كان من اجل الدراسة، لكن ماذا افعل بظروفي التي أجبرتني على أن اجمع ثمن دراستي وغيري يصلهم مصروفهم اليومي وهم نائمون! ضحك كاظم حتى بانت نواجذه وقال لي بإبتسامة عريضة:

ـ أنت محظوظ أخي رغم كل شيء.. فأنا هنا لا أفكر بدراسة ولا بغيرها، أنا هارب بجلدي فقط، هارب من نظام بلادي، من القتل والتعذيب، أحاول أن أعيش وأن أصرف على أمي العجوز وأختي في العراق.. وهأنذا خمس سنوات لم أدخر جنيهاً واحداً لنفسي، من عمل لعمل، من مكان لمكان.. بلا أمل ولا دراسة ولا يحزنون..

حاولت تغيير دفة الحديث كيلا أثير أشجانه وأشجاني، ونشرب دموعنا بدلا من كؤوس البيرة التي أمامنا.. سألته بابتسامة:

ـ وصديقتك ديانا ألا تكفيك عن الدنيا بأسرها؟

نجحت في تغيير الموضوع وإعادة الابتسامة لكاظم الذي أثبت لي فعلاً بالتجربة أنه إنسان رائع وصديق مخلص.. لكنه تذكر موضوع دراستي فقال لي ونحن نستعد للنوم:

ـ غداً يا فيصل إن شاء الله سأبحث لك عن كلية برسوم تناسب ميزانيتك الله يستر.. الجميع هنا حرامية ولصوص..

5 رمضان

ثلاثتنا نصوم بحمد الله رغم أنني أشك كثيراً بصيام عباس، لكنني أغمض عيني وأغض طرفي وافترض أننا جميعا صائمون.. أتذكر أجواء الصيام في بلادي فأشعر بغصة ألم في جوفي ليس بسبب حنيني

إليها، فأنا لا أحن إليها أبداً لأن لا بيت لي ولا استقرار في مكان معين.. دوماً أشعر بأنني ضيف ثقيل فآكل طعامي بحساب وأنتظر أن يتقدم الآخرون ثم أنتظر حتى ينتهون.. الطعام لا يختلف من بيت إلى بيت سواء بيت أمي أو أبي أو عمتي أو حتى بيوت بعض الأصدقاء.. ما يختلف هو شعورك بالانتماء لهذا المكان أو ذاك، وأنا لا انتماء لي أتطلع إلى أطباق رمضان المرصوصة أمامي على السفرة بشهية معدومة وكيان مهدوم ووحدة استشعرها داخلي ولا يعيها أحد سواي..

على مائدة إفطارنا البارحة ضحك كاظم كثيراً وهو يغمزني بعينه:

ـ اشتقت للطعام السعودي أم إلى رمضان في بلدك؟..

أجبته صادقاً:

ـ لا هذا ولا ذاك يا كاظم.. الأمور سواسية عندي..

قال عباس مبتسماً:

ـ يعني طعامي يعجبك فيصل أم تريد أن أعمل لك لقيمات مخصوصة غداً؟

ضحكت وقلت له أن الفطور هكذا جيد، مزيج من الأكل الإنجليزي والعربي لا بأس به..

أخبرني بعدها كاظم بأن رسوم جامعة لندن ربما تكون باهظة لمن يعيش ظروفي نفسها فهل أستطيع أن أدفع شهرياً 13.. جنيه..

بحساب بسيط فإن مدخولي من عملي الحالي هو 360 جنيهاً في الشهر، ويكاد يغطي نفقات الأكل والسكن، فمن أين لي بمصاريف دراستي؟ لابد من زيادة دخلي.. لكن كيف؟

20 رمضان

حقاً أنه شهر كريم ومبارك.. فقد تيسرت أموري بشكل لم أتوقعه، ولا أحلم به فقد عرض عليّ عباس رفيق السكن أن أعمل معهم في المطعم الذي تديره وتملكه سيدة لبنانية.. قال إن أحد العاملين في المطعم أصيب بأزمة قلبية وهو يحتضر في المستشفى، ولابد من بديل..

فأقترح عليهم أسمي، وأبلغهم عن خبرتي المزعومة في فندق خمس نجوم، ليس في غسيل الأطباق، لكن في تقديم طلبات للزبائن، وافقته متردداً، فإلى جانب انعدام خبرتي في هذا الأمر، كنت أطمح في تحسين دخلي والراتب المقدر لي جيد يوازي ضعف راتبي الحالي إن لم يزد.. بتشجيع من كاظم وافقته قال كاظم إنه يتمنى أن يأخذ هذه الوظيفة ليغادر وجه هاري النحس إلى الأبد، لكنني أكثر حاجة منه لها.. أكبرته في نظري وتقديري له يزداد ويتعاظم داخلي..

ودعت هاري وأطباقه وفندقه الكئيب لأتسلم عملي في مطعم لبناني وسط جو عربي أليف تقوده السيدة جورجيت الخمسينية اللطيفة التي تأتي مرة واحدة في اليوم لتشرف على كل شئ ثم تعود من حيث أتت.. إلى ابنها روبير المشرف العام على المطعم والذي لا يوجد دائماً.. ومدير المطعم جوزيف ثم بقية الطاقم العربي من عراقيين وشوام ومغاربة.. أعجبني الجو العام للمطعم بما فيه من دفء وحميمية وأغانٍ عربية حميمة تصدح في أرجاء المكان طوال الوقت.. لم يكن عملي ممتعاً ولم يكن صعباً في الوقت نفسه.. لكنه كان أفضل بكثير من عملي السابق.. من المهم في عملي الحالي الابتسامة

هدوء الأعصاب والتعامل اللطيف مع الزبائن مهما كانت ظروفي الداخلية..

كان المطعم راقياً وله زبائن معروفون.. لذلك ارتفع مدخولي الشهري مع البقشيش إلى حوالي 1000 جنيه إسترليني.. عندها فكرت في الاقتراض من شخص ما لأتمكن من دخول الجامعة وتحقيق أملي وطموحي.. لن أفكر بأمي حتماً وعمتي هي آخر شخص يقرضني، تذكرت حينها خال أحد أصدقائي في الرياض، فهو رجل شهم كريم ويحبني جداً، وقد عرض على مراراً أن يساعدني فرفضت.. لن أستطيع الرفض الآن، ولو حاولت.. إتصلت به وطلبت منه قرضاً على أن أرده له بعد مدة وجيزة.. وافق الرجل بل رحب جداً، ورفض أن يحدد مدة القرض وأن تكون إذا تيسرت أموري وانفرجت أزمتي.. سجدت لله شكراً لقد حّلت كل أموري.. حقاً أنه شهر مبارك وكريم..

29 شوال

انتظمت في دراستي بالجامعة إلى جوار عملي بالمطعم الذي كانت إدارته تراعي ظروفي إلى درجة كبيرة، بحيث أنني نسقت محاضراتي في الأوقات التي لا يكون لدى فيها عمل بالمطعم..

السيدة جورجيت من ألطف السيدات اللاتي قابلتهن في حياتي، وكانت تعاملني معاملة خاصة وتفتخر بوجودى في مطعمها وتعتبره فأل خير، عرفتني على ابنتها كاتيا التي تعمل في صالون تجميل، كاتيا الشقراء رائعة الجمال، منذ رأيتها لأول وهلة وأنا اشعر بانجذاب طاغٍ

لها لم أكن أعرف مصدره.. ابنها روبير شاب لطيف يشرف على المطعم في أوقات متباعدة لارتباطه بأعمال أخرى عديدة أيضا جوزيف مدير المطعم رجل في أواسط العمر مهاجر منذ الثمانينيات مع زوجته وأولاده.. ثم بقية العاملين والعاملات، ومنهم عباس رفيق السكن الذي همس لي ذات يوم:

ـ يجب أن تحمد الله كثيراً أن خليفة العامل السابق مات وإلا كنت الآن تغسل الصحون عند هارى..

قلت له ضاحكاً:

ـ حقاً إن مصائب قوم عند قوم فوائد..

كنت سعيداً مع عباس وكاظم، لكنني اشتاق لحريتي.. اشتاق أن أنام في حجرة لا يشاركني فيها أحد أو يطلع على أسراري أحد كائناً من يكون هذا الأحد..

بدأت أفكر جدياً في الانفصال عنهما والبحث عن سكن مستقل بأجر يناسب ظروفي، سكن مستقل وليس عند أية عائلة بريطانية كانت أو عربية، فمع دخلي الشهري وحسابي الذي أودعه خال صديقي لي في البنك أستطيع أن استأجر شقة صغيرة لي.. عندما صارحت كاظم بأفكاري هذه نصحني بالتريث..

16 ذو القعدة

المطر يهطل دون انقطاع في الخارج، أشعر به يقرع زجاج النافذة لينساب مع دموعي التي تنهمر باكتساح مخيف.. أشعر بأنني موجوع ومطعون ومنبوذ، يطوقني اليأس من كل الجهات، كرهت هذا البلد

بكآبته ومطره وغيومه وبرودته، كما أكره بلدي وكل بلاد الدنيا، أين أذهب إذن؟ الموت هو أفضل راحة لي، ليتني أموت فأرتاح ويرتاح مني العالم.. ليتني أنسى هذا الموقف الصعب وأنسى معه كل شئ أو أفقد ذاكرتي كيلا أتذكره.. سبحان الله كنت استشعر الحزن قبل أن يقتحمني، كنت أحسه حتى قبل أن يطرق بابي.. منذ الصباح كنت مكتئباً حتى قبل أن أحادث أمي.. لم يكن في حديثها ما يسئ أو يقلق لكنني ابتئس دائماً بعد مهاتفتها.. سارة موجودة عندها حالياً.. أحسست بقلبي ينقبض وأنا أتصور شقيقتي بقميصها البيتي البسيط كفأر مذعور داخل مصيدة وهي تختبئ عن نظر زوج أمي.. أخبرتها أن أحد أصدقائي سيأتي إلى الرياض وسأبعث معه هدايا لهم ثم أنهيت المكالمة سريعاً..

أنهيت محاضراتي في الثانية عشرة ظهراً، ذهبت للمطعم مباشرة وبدأت عملي، لاحظت وجود شابين أراهما للمرة الأولى تبدو عليهما سيماء الخليج، أمرني جوزيف أن أتلقى طلباتهما.. ما أن عرفا جنسيتي حتى بدآ يسخران ويلقيان التعليقات السخيفة التي لم أعبأ بها، ثم تطورت التعليقات إلى إهانات متعمدة وإيذاء مقصود.. تحاشيتهما قدر الإمكان وضبطت نفسي وتمالكت أعصابي لأقصى حد، لكنهما لم يتراجعا، سكب أحدهما الحساء على الطاولة ثم بغضب أشار لي.. هيا أمسحه يا فتى..

نظرت إلى جوزيف، فأشار لي بيده أن أذهب وأمسح.. ذهبت وأنا أتميز من الغيظ وما أن بدأت المسح حتى بادرني أحدهما بالقول:

ـ هيئتك تؤهلك بأن تكون خادماً من الدرجة الأولى.. هل تقبل العمل لدي؟

لم أرد واستمررت بالتنظيف لتأتى الطامة الكبرى من الآخر ويتجرأ بضربي قائلاً:

ـ امسح جيداً يا فتى..

هنا انهار كل شئ دفعة واحدة، ولم استطع أن أتماسك أكثر من ذلك.. فلكمته بعنف على وجهه ليسقط مضرجاً بالدماء، ثم ضربت الآخر واشتبكنا نحن الثلاثة ليحدث هرج ومرج ولم أفق إلا على صوت جوزيف الحاد..

ـ يكفي.. يكفي هذا.. هل نحن في حانة أم في مطعم محترم؟..

وطردني.. طردني جوزيف بعد أن طلب منى العودة فيما بعد لتسلم مستحقاتي دون ذنب لي ولا جريرة.. بصقت عليه وعلى المطعم وعلى هذين النذلين اللذين طردني من أجلهما، وحملت كتبي وغادرت.. لم يهمني أن أفقد دخلاً كبيراً كنت أعول عليه كثيراً، لكن ما أدمانى هي كرامتي التي فقدتها ومرغت على مرأى ومسمع من كل العاملين في المطعم..

حقاً أنني بائس..

21 ذو القعدة

أربعة أيام لم أغادر الشقة حتى إلى الجامعة، أربعة أيام اجتمع فيها كل شئ، الحزن والمرض والخيبة والمرارة.. وفشل رفيقا السكن في أن يساعداني أو أن يخففا من ألمي وحزني..ضياع يكتنفه ألم ويتوه حزني في سراديب الوجع..

عرض عليّ كاظم أن يتصل بأهلي، فرفضت رفضاً قاطعاً، جلب لي أدوية وساعدني وواساني فكان أفضل صديق.. ولم يكن عباس أقل منه كرماً ومساعدة.. لكن المفاجأة الكبرى بكل المقاييس حينما فوجئت وأنا في سريري بعباس يدخل متقدماً السيدة جورجيت بنفسها ترافقها ابنتها كاتيا..

جاش صدري بمختلف الأحاسيس والانفعالات الغريبة، فاندفعت الدموع إلى عيني حتى لم أكن أجرؤ على رفع عيني إليهما.. قالت السيدة جورجيت بلهجة لبنانية حلوة:

ـ اشتقنا لك..

غردت كاتيا بعدها:

ـ where are you?

غرقت في صمتي وخجلي.. قالت لي السيدة جورجيت إنها كانت ولا زالت تعدني تعتبرني كأحد أبنائها وليس أجيراً لديها وإن ما يمسني يمسها هي بالتأكيد..

وأن جوزيف مخطئ وسيعتذر لي عندما أعود وان العاملين بالمطعم جميعا أكدوا لها أن الشابين هما المخطئان وكانا على درجة عالية من سوء الخلق والتهور، وقد حضرا البارحة وأساءا التصرف فاضطرت إلى طردهما..

ثم أردفت بابتسامة:

ـ والآن.. متى تعود؟ لقد افتقدناك كثيراً..

همست: «عندما أشفى»

بالكاد خرجت مني الكلمات مشتتة مبعثرة.. ممزقة.. عادت السيدة أدراجها يرافقها عباس وكاتيا التي لم تنطق طوال جلستها سوى بجملة واحدة، ذهبوا ليتركوني نهب أحاسيس متناقضة وأفكار مشوشة مع جسد مريض وغربة تسكنني، ووجه كاتيا يستوطن ذاكرتي وعطرها الذي لا زال يلف أجوائي بغلالة من سحر يبعثرني، يشتتني، يحيلني إلى لا شيء.. الأم رائعة أما الفتاة فإنها.. إنها.. إنها وطني الجديد!!

29 ذو القعدة

رفضت أن أعود لعملي في المطعم ولا أعلم السبب الحقيقي لرفضي، ربما شعرت بأنه عمل وضيع يحتقره الناس ولا يحترمونه، وربما لأن كرامتي جرحت في الصميم، فعافته نفسي، وربما لأنني لا أريد أن أكون في نظر كاتيا صغيراً.. أقل منها، بل أجيراً لدى أهلها..

لذلك رفضت محاولات السيدة جورجيت بلطف وأدب.. عرضت عليها أن يحل كاظم مكاني لو كانت بحاجة ماسة لعامل.. لم ترغمني على شيء وأعطتني كل حقوقي مع مكافأة صغيرة.. ذهبت بعدها اندفع مع أفواج الناس التي تسير وأنا أفكر بوضعي والمأزق الذي وقعت فيه من أجل كرامة لا تغني ولا تسمن من جوع أين أذهب الآن؟ وكيف أنفق على نفسي وعلى دراستي، إذا اعتمدت على ذلك المبلغ المدخر الذي اقترضت، فسوف أضيع حتماً، لابد أن أجد

عملاً وبأسرع وقت ممكن.. ابتعت جريدة التايمز وجلست على ناصية أحد المقاهي اشرب الشاي وأتصفح الإعلانات بالجريدة، وجدت ثلاثة أشياء تهمني.. الأول جريدة كويتية تطلب مراسلاً في لندن والثاني شاب إنجليزي يريد شريكاً له في مشروع صغير والثالث مكتبة عربية لديها وظيفة.. وضعت الجريدة في جيبي وأنا أفكر بقدراتي إن هذه الوظائف الثلاث أفضل من عملي في المطعم شكلياً واجتماعياً على الأقل ولا أعلم مردودها المادي.. أما الشراكة في مشروع صغير فممكن أن أغامر بالمبلغ المدخر لدى، لكن هل المغامرة مضمونة النتائج؟ قفلت عائداً إلى البيت لأهاتف أصحاب الأعمال وأعرف التفاصيل.. وليقدر الله أمراً كان مفعولاً..

غرة محرم 1422

بعد تشرد دام أياماً طويلة، وفقت إلى العمل كمراسل لجريدة الرأي الكويتية.. الراتب الشهري مجزٍ ومواعيد العمل مفتوحة ومكاتب الجريدة لا غبار عليها، كانت مكاتب الجريدة عبارة عن شقة صغيرة من غرفتين.. غرفة لمدير المكتب سمير معلوف، وهو لبناني الجنسية طيب ومتفهم، والغرفة الأخرى فيها مكتب واحد يشغلها زميل كويتي أخبرني أنه طالب على وشك التخرج هذه الأيام، لذلك طلب من إدارة الجريدة البحث عن شخص آخر؛.. تعجبت بيني وبين نفسي، فللمرة الثانية أحل محل شخص آخر الأولى في المطعم حينما مرض أحد الأشخاص، والثانية هي هذه المرة التي سيتخرج فيها هذا الطالب ويعود للكويت.. أبلغني أن مكتب الجريدة هذا أسس أيام أزمة الكويت الشهيرة، وقد كان يعج بالموظفين، لكن حالياً الحاجة لا

تستدعى إلا الضروري فقط.. علمني خالد كل ما يختص بعملي من البحث عن المادة والتأكد من مصدرها عبر الكمبيوتر والإنترنت وحتى توثيقها وفهرستها وإرسالها لمقر الجريدة في الكويت.. أما مدير المكتب سمير فيتولى الإشراف على العمل ومخاطبة المسئولين وكل ما يتعلق بالشئون الإدارية والمالية..

غادرني خالد بعدما همس لي بأن سمير له صديقة إنجليزية تأتى إليه ويجلسان لساعات في المكتب دون أية اعتبارات أخرى..

وفعلا ما أن مضت دقائق على مغادرة خالد.. حتى أقبلت هيفاء إنجليزية، ابتسمت لي وهى تسألني من أكون؟ وحينما أخبرتها بوظيفتي الجديدة ضحكت قائلة:

- أنتم تتشابهون فعلاً أيها العرب.. فقد اعتقدت لوهلة بأنك شقيق خالد.. ثم دلفت لمكتب سمير لتمكث حتى نهاية الدوام كما أسر لي خالد.. دعاني سمير للغداء معهما، لكنني اعتذرت بلطف.. ثم نزلت إلى الطابق الثاني حيث مركز التسوق، واتجهت إلى مطعم بيتزا.. ازدردت قطع البيتزا وأنا أفكر هل أنا على الطريق الصحيح أم لا زلت أتخبط؟

5 محرم

عام كامل وأنا أعيش في بريطانيا.. عام كامل من الغربة والضياع والتشرد، عام كامل ماذا كان حصادي، لا شئ، لا بل أشياء.. أولها أنني لم أضع في زحام البشر ولم أضيع نفسي ككثيرين غيري ضاعوا في شوارع لندن الخلفية وباراتها وداعراتها، جذبتهم لندن المتحررة

وأضواؤها الخادعة، فأسقطتهم كالفراش المنجذب نحو النار واحداً تلو آخر.. وكانت هي السقطة، فلم ينهضوا بعدها أبداً.. شباب اعرفهم.. منهم من جاء للدراسة ومنهم من جاء للعمل ومنهم مثلي من جاء للعمل والدراسة معاً، فأغرتهم الحياة المفتوحة لتأخذهم في دوامتها التي لا تنتهي أبداً، أما أنا فقد كافحت وتعبت وشقيت لأؤمن العمل المناسب لي والذي يدعمني في دراستي، ووفقت في الدراسة، فأحببت مجال إدارة الأعمال الذي اخترته وأصبحت دراستي هواية أكثر منها عملاً مفروضاً.. لم أختلط بالزملاء والزميلات بالجامعة لأسباب عديدة، أولها لأنني أعمل ولا أستطيع البقاء دقيقة واحدة بعد انتهاء المحاضرة، ثم أن كثيراً منهم أثاروا تقززي ونفوري، خصوصاً بعض الفتيات الخليجيات اللاتى حضرن للدراسة.. فهن متهتكات.. سافرات لا يقمن وزناً للأخلاق ولا للأدب.. وللعجب أنهن أكثر خلاعة وميوعة من الفتيات الإنجليزيات اللاتي نلمس فيهن الجدية والالتزام!! لم يعجبني المجتمع الجامعي لذلك نأيت عنه بإرادتي عدا ما يخص دراستي فقط لا غير..

لا أنسى ذلك الموقف الذي أتتني فيه إحداهن تعرض على صداقتها بطريقة فجة ممجوجة نفرتني منها ومن كل رفيقاتها.. قالت لي بغنج لا يتناسب مع الحرم الجامعي:

- أنت سعودي؟

ولما أجبتها بنعم سألتني: وأين تسكن؟

سألتها بدوري: ولماذا؟

قالت بلزوجة: هل لديك مكان لواحدة مثلي..

لم أترك المفاجأة تلجمني عن الرد فسألتها:

ـ لماذا؟ وأين سكنك؟

أغلقت عينيها نصف إغلاقة وهي تهمس:

ـ صديقتي ستغادرني وأنا أخاف وحدي.. وأنا أعرفك شاباً خلوقاً و.. قاطعتها:

ـ آسف لا مكان لدى..

أدرت لها ظهري ماضياً في طريقي وأنا التهب غضباً وحنقاً وأسئلة عديدة تنخر ذاتي بحثاً عن إجابة.. أين أهلهن؟ أين المسئولون عنهن؟ ألا يخافون عليهن؟ فتيات لا زلن في مرحلة المراهقة، ينتقلن من مجتمع مغلق إلى مجتمع انفتاحي أكثر من اللازم دون حسيب ولا رقيب.. من الطبيعي أن نتوقع المصائب والفضائح..

لذلك ابتعدت عن زملاء الجامعة دون أسف، ووقتي أيضاً لا يسمح لي بأية صداقات تصادر يومي الموزع بين العمل والجامعة.. ولا زالت لي طموحات.. أطمح في أن أنتقل لشقة أعيش فيها بمفردي وفق مزاجي الخاص لا أقتحم فيها خصوصية أحد ولا يقتحم فيها أحد خصوصيتي.. لكن متى وكيف؟

15 محرم

كنت جالساً مع كاظم وهو يدخن الشيشة وأنا أدخن السجائر، وأحداقنا مثبتة على التلفزيون الصغير الذى يعرض برنامج مسابقات

امن يربح المليون» عندما دخل عباس فرحاً مسروراً.. أعطانا بطاقتين، وعندما استفسرنا منه قال اقرأوهما أولاً.. فوجئت.. بطاقة دعوة لعيد ميلاد كاتيا ابنة السيدة جورجيت.. تلك الشقراء الجميلة.. قلت لكاظم:

ـ لكنني لم أحضر حفلات كهذه من قبل..

ضحك وهو يقول:

ـ أحضر وسوف ترى.. ستكون سعيداً، ولمَ لا تكون سعيداً.. كل شئ موجود.. شراب وطعام ونساء..

ثم ضحك ضحكة مجلجلة انتهت بسعال وحشرجة.. اشتريت حقيبة يد نسائية بسيطة وجدتها لدى ماركس اند سبنسر، جميلة وأنيقة، حصلت عليها بسعر التخفيضات.. لبست البذلة السوداء الوحيدة التي أملكها، وذهبنا أنا وعباس وكاظم، كانت الحفلة في شقتهم الواقعة في كريكلود.. كانت شقة واسعة فخمة، كل شئ فيها يدل على البذخ والترف.. استقبلتنا السيدة جورجيت بابتسامة ودودة ثم قادتنا إلى الصالون.. تماماً مثلما قال كاظم، كل شئ موجود، شراب وطعام ونساء.. كانت كاتيا في قمة جمالها بفستان أصفر مشرق يظهر أكثر مما يخفي.. رقصت فغامت الأجواء وتبدل المكان إلى حديقة غناء واستحال الهواء إلى أكسجين خالص ينعشك دون اختناق رأيتها كحورية جنية ولدت من رحم إحدى القصص الأسطورية.. جمال خلاب، حضور فاتن، نظرات قاتلة، لم تغادرها عيناي طوال الحفلة، أعطيتها الهدية، نظرت إليها بلا مبالاة ثم هتفت

«شكراً».. ومضت تصول وتجول، تداعب هذا وتراقص ذاك، شربت ورقصت وغنت.. داعبت كل الموجودين عداي.. رقصت مع الكل عداي.. وفى النهاية.. في نهاية الحفلة.. فوجئت بها بين ذراعي تهمس بأنني الحب الوحيد لديها وبأنها لم ولن تحب غيري أبداً..

20 سفر1422

بدأت علاقتي بكاتيا منذ تلك الليلة.. وجدتها إنسانة رقيقة، جميلة، لكنها حازمة وذكية.. علاقتي بها خففت من حالة الجمود والركود التي كنت استشعرها في حياتي.. فأزهرت دنياي بوجودها وأغرقت ينابيع حبها جفاف حياتي إذا كانت لدى محاضرات صباحاً نلتقي مساءً بعد الخروج من العمل، ونذهب إلى أي مطعم للعشاء.. أما إذا لم تكن هناك محاضرات صباحاً فأذهب لعملي فترة معينة، نلتقي بعدها الساعة الثانية عشرة ظهراً في أية حديقة نسير على غير هدى نتحدث في أى موضوع، وإذا أحسسنا بالجوع تناولنا ساندويتشات خفيفة..وفى عطلة نهاية الأسبوع نخرج سوياً إلى أي مكان نسهر فيه مطعم، مسرح، أو خارج المدينة في رحلة قصيرة..

كاظم يعلق عليّ قائلاً:

ـ منذ ارتبطت مع كاتيا ونحن لا نراك، حتى أكلنا لم يعد يعجبك.. اثقل يا رجل..

أسررت له قائلاً: الحق يا كاظم.. كاتيا أعطتني أملاً كبيراً جداً في الحياة.. وساعدتني على أن أتقبل ظروفي كما هي، ونسيت معها غربتي التي كنت أستشعرها سابقاً في كل وقت..

تلاشى إحساسي بالغربة وأنا معها، فأصبحت أمشى في شوارع لندن وكأنني في حواري وأزقة الرياض أعرفها واحداً واحداً وأعرف مطاعمها ومقاهيها وأحب أجواءها وضبابها ومطرها وبردها وزمهريرها.. يا الله.. حقاً إن الأمكنة بناسها وأهلها ودونهم تغدو مقفرة مهجورة بلا حياة..

اقترحت علي كاتيا أن نذهب في رحلة خارج لندن، إلى مدينة برايتون الساحلية على المحيط الأطلسى خلال عطلة نهاية الأسبوع.. وفى تلك المدينة الجميلة فاجأتني آلام مبرحة في جانبي الأيسر، جلست فترة طويلة لا أستطيع التحرك من مكاني ولا التمدد ولا حتى الوقوف، عرضت على كاتيا أن نذهب إلى طبيب، لكنني قلت لها.. انه القولون.. سأتحمل آلامه قليلاً ثم يذهب.. للمرة الأولى أشعر بتلك الآلام المبرحة كنت سابقاً أشعر بآلام بسيطة في المعدة، شخصها الأطباء على أنها القولون لكن هذه الآلام الشديدة والمفاجئة في الجنب الأيسر أقلقتني قليلاً.. وبعد أكثر من ساعة استطعت أن امشى قليلاً.. ابتسمت مبدداً قلق كاتيا وأنا أقول:

ـ والآن عاد إليك فارسك بعد أن أنتصر على الألم والمرض.. هيا نسبح ونستمتع بالشاطئ الجميل في برايتون..

15 ربيع أول 1422

أشعر بحزن غريب يفتت أضلعي ويمزقني، ولا أعرف له سبباً.. فخارجياً أنا إنسان سعيد، أعيش مع أصدقاء أحبهم، ولى صديقة جميلة أتبادل معها الحب، وكل احتياجاتي العاطفية، وأدرس في

الجامعة بكلية لها مستقبل في بلدي، وأعمل بوظيفة مريحة دخلها المادي جيد وأوقاتها حرة حسب فراغي من الجامعة.. حتى الجو فإنه اليوم مشمس وجميل وليس ضبابياً، يدعو إلى الكآبة.. إذن ما بي؟

هل هي صدمتي بكاتيا التي أعطتني كل شيء دون مقابل وتعيش أسلوب الغرب والإنجليز رغم أنها فتاة عربية.. أو ربما نوبات المرض التي بدأت تعاودني بين حين وآخر بعد أن أصابتني أول مرة في برايتون.

أو ربما ضيقي من المعيشة المشتركة مع عباس وكاظم رغم انهما طيبان ويحبانني لكن كاتيا تقنعني بأنه لو كان لدى شقة منفصلة لانتقلت للمعيشة معي! وأنا لا أرتاح في نومي غالباً.. فى بعض الأحيان نعود أنا وكاظم في وقت واحد وأحياناً أخرى يأتي متأخراً بعدي ولا ينام مباشرة بل اسمعه يغني في المطبخ ثم يشاهد برامج التلفزيون التي تصب كلها في أذني، ويدخل إلى الحجرة ليأخذ شيئاً ما ويخرج ثم يعود وما يصاحب هذا من ضغط نفسي بلا حدود.. فلا أريد جرح مشاعره وإبلاغه بأنني متضايق منه، فهو بيته قبلي.. وما أن ينام كاظم حتى تأتي الطامة الكبرى.. يدخل عباس.. وغالباً ما يكون ثملاً، فأسمعه يشتم ويسب أناساً لا أعرفهم، وربما شتم زملاءه في المطعم ورؤساءه، ثم تبدأ المناحة.. فيبكي بعويل تتقطع له القلوب وهو يخاطب أناساً غير مرئيين، أمه وزوجته وشقيقته..ويشتم الرئيس العراقي صدام حسين بكل أنواع السباب المعروفة وغير المعروفة باللغتين العربية والإنجليزية، ويستمر على هذا

ما شاء له من الوقت.. ونصحو غالبا على منظره نائماً في الصالة وبجواره زجاجة أو كأس مكسورة..

لكن لا.. ليس هذا هو ما ضايقني، فقد اعتدت على كل هذه الأمور.. ربما هو أبي.. نعم هو كلمة سر حزني وشفرة شقائي، فقد حادثته الصباح لأطمئنه على نفسي وأسأله عن حاله وحال أخوتي، قال أن أختك سارة مريضة.. هتفت جزعاً: ما بها..؟ قال بهدوء.. اطمئن هي حالة نفسية، فهي أحياناً تحزن وتبكي بلا سبب وأحيانا تثور بلا داعٍ، وتصرخ فجأة، قاطعته إذا كان عرضها على طبيب.. قال إنها ترفض ذلك.. أغلقت السماعة والحزن يعتصرني ومباشرة اتصلت على سارة التي أبلغني أبي إنها عند عمتي.. سلمت على عمتي بسرعة لأكلم سارة التي بدت هادئة، وقالت لي أنها بخير فقط أنها مشتاقة لي.. سألتني بانكسار: ألن تعود؟.. ألن نراك؟..

أشفقت على حزنها وألمها قلت لها: لن أعود هذا الصيف، لكن اعدك في الصيف المقبل إذا لم أزركم فسأطلب من أبي أن يبعثك إليّ.. أحسست بفرحتها وهي تشكرني..

لم أفكر طويلاً بمرضها، فأي تعب نفسي يلحق بها أو بي هو من جراء الظروف التي قاسيناها فى حياتنا المعذبة بين الأقارب، وأخيراً عرفت سبب حزني وكآبتي.. إنها سارة شقيقتي المسكينة.. لك الله يا سارة هو من أسأله أن يعينك على ظروف حياتك القاسية..

30 ربيع أول 1422

عرفت الألم بأبشع صوره.. عايشته لحظة لحظة ودفقة دفقة.. عرفت الألم الحقيقي وكيف يتدفق في العروق الحية ليقطعها إرباً إرباً ويمتص الدماء من الضحية ليلقيها بعد ذلك مضغة بلا شفقة أو رحمة.. بعد انتهاء سهرتي مع كاتيا عدت إلى المنزل الساعة الواحدة ليلاً.. دخلت المخدع مباشرة، فقد كنت مقتولاً من التعب، عمل متواصل، محاضرات وأخيراً سهرة متكاملة ضعضعت قواي.. نمت فوراً دون أن ألمح أحداً من رفقاء السكن.. لا أدري كم نمت حتى صحوت على آلام شديدة تعصف بكياني.. آلام مبرحة في جنبي الأيسر وغثيان لا يوصف، لحظات، وبدأت أتقيأ وأنا لا أقوى على الحراك من شدة الألم، انتبهت علي كاظم يحاول أن يسقيني شيئاً من الشراب.. لكنني انكفأت على نفسي غير قادر حتى علي فتح فمي، عاد كاظم مرة أخرى ومعه عباس، تعاونا على نقلي إلى أقرب مركز للطوارئ.. كنت أبكي بدموع حارقة من شدة الألم، وأتلوى على نفسي غير قادر على الجلوس أو الوقوف أو حتى النوم، انكفأت على ركبتي أعض على إبهامي، أحاول كتم صرخات بهيمية تكاد تنطلق من جوفي.. صرخات رجل تنهشه عشرات الذئاب في بطنه وكليتيه، اجتمع عليَّ عدد من الأطباء، ثم لم أعد أشعر بشيء.. أفقت بعد أيام لا أعرف عددها وأنا أرقد على السرير الأبيض أحسست بأنه قد أجريت لي عملية جراحية وإن لم أعرف نوعها، استدعيت الممرضة وسألتها، قالت بأنني كنت أعاني من حصى في الكلي وانسداد، فاضطر الأطباء لاجراء عملية جراحية إنقاذاً لحياتي.. بعد فترة عانيت

خلالها الأمرين زارتني كاتيا هامسة: من يصدق أن هذا قد يحدث لك بعد تلك الليلة..

تنهدت بعمق وأنا أردد وراءها: نعم تلك الليلة..

ضحكت قائلة: لا تخش شيئاً.. كل شئ على ما يرام.. يومان آخران وستخرج إن شاء الله..

زارني كاظم وعباس يحملان علب البيرة وتارت الفراولة الذي أعشقه..

قال لي كاظم: البيرة جيدة للكلى، اشرب يا رجل، فقد كدت تموت بين يدي تلك الليلة، أحسست بمشاعر من الحب والود تربطني بهذين الرجلين رغم أنني لا أعرفهما إلا منذ أمد قصير.. لكن سبحان الله أشعر مع وجودهما بالاطمئنان والراحة النفسية وكأنني لست بغريب..

حينما همست بأفكاري هذه لهما.. علق عباس ضاحكاً:

ما غريب إلا الشيطان!!

15 ربيع ثانٍ 1422

حادثت سارة البارحة لأطمئن عليها، لم أخبرها بما حدث لي، قالت لي أن صوتي واهن ومتعب، داعبتها قائلاً بأنه من شدة التفكير بهم، لا زالت كما هي تنتقل من بيت لآخر، تحاول طمأنتي بأنها سعيدة وأنا أكثر إنسان على وجه الأرض يعرف مدى تعاستها وشقائها، لكنني وعدت نفسي ما أن أستقر في شقة وحيداً حتى استدعيها،

تقضي عندي بعض الوقت وتغير الأجواء الخانقة التي تعيش فيها، عدت للكلية وأديت الاختبارات وكنت بأفضل حال، لكن ساءت حالتي وتدهورت صحتي، بعدها بدأت أتساءل ألم ينته المرض؟ ألم تخرج حصوات الكلية؟ وقد رأيتها بعيني في المستشفى.. لماذا هذه الآلام في المثانة والدوخة المستمرة.. قال لي كاظم البارحة:

ـ أنت لم تأخذ فترة نقاهة كافية.. فقط أيام فى البيت ثم امتحانات وإرهاق نفسي وعصبي.. ولا تنس العمل يا صديقي..

أجبته مكدوداً:

ـ أنت على حق يا كاظم.. لكن ماذا أفعل.. لابد أن أؤدي الاختبارات إذا كنت راغباً في الدراسة.. أما العمل إذا تركته فمن أين أعيش؟

أردفت عندما رأيت علامات الحزن على وجهه:

ـ ثم أن عملي سهل يا كاظم لا مشقة فيه.. أفضل من غيري على الأقل..

ابتسم كاظم قائلاً:

ـ خبر عاجل يا فيصل.. عباس دخل في علاقة ثقيلة مع أم كاتيا.. وكأنها لم تره سوى هذه الأيام..

هتفت مندهشاً:

ـ لكنه أصغر منها بكثير..

ضحك ضحكة قوية وهو يقول:

ـ إنه لا يهمه كبر سنها أو تجاعيدها.. عباس تهمه المادة فقط، والسيدة جورجيت لم تقصر في هذا، بل أنها طردت مدير المطعم ليحل محله عباس.. هو اليوم أمير زمانه، ألم تلحظ المأكولات التي أصبح يجلبها معه من المطعم؟

أجبته: بلى..

لكنني لم أعر الأمر أي انتباه لدراستي وتعبي.. هكذا إذن..

عندما سألت كاتيا صباح اليوم عن هذه العلاقة.. افتر ثغرها عن ابتسامة خلابة وهى تقول:

ـ أنها حرة.. كما أنني حرة..

ما أن هممت بفتح فمي معترضاً حتى أردفت: أنها ليست أول علاقة لها.. أمي جميلة.. وطلابها كثيرون!!

وكأنها أطلقت على قلبي سهماً أصابني في الصميم.. تذكرت أمي.. أمي أيضاً جميلة وعلاقتها بزوجها الحالي مشكوك بها.. بدايتها ونهايتها وتطورها، لكنها في النهاية تزوجته.. تزوجته على سنة الله ورسوله وعلى حطام زواج سابق دمرته بيديها، وأطفال تشردوا في بيوت الغير وضاعوا، وتعذبوا، وتغربوا، لكن والدة كاتيا تختلف عن أمي.. أمي أصغر وأجمل وأكثر خوفاً ورهبة من الناس والمجتمع، جاهلة، لا تملك سوى عاطفة وغريزة وجهتها نحو زوجها وأولادها منه، غريرة كمراهقة في الخامسة عشرة، لا تملك عقلية والدة كاتيا الداهية التاجرة التي تحسب كل شئ بميزان الكسب والخسارة، تتلألأ عيناها الصغيرتان بذكاء لا يخفى على أحد.. شتان ما بين

النقيضين.. الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقيا.. لا أدري من قال هذه العبارة.. لكنها تنطبق على أمي ووالدة كاتيا..

25 ربيع ثانٍ 1422

يا للصدمة المروعة.. لا أكاد أتبين خطي من شدة الصدمة ودموعي التي تهطل بغزارة.. لمَ لا أتماسك؟ لماذا أنهار بهذا الشكل والموضوع كما قيل لي بسيط ولا يستحق كل هذا الانفعال! لكنني مخلوق من المآسي وقد امتلأت بئر أحزاني حتى حوافها ففاضت الأوجاع.. واندفعت لتخرج عند أية محنة أو ظرف طارئ يالي من مخلوق تعيس.. لم أصدق عندما ازدادت نوبات الدوخة عندي والتعب الدائم أنني أعاني من مرض مزمن..مرض لم أصدق أنني سأصاب به في يوم ما لولا وجود كاتيا معي في المستشفى لحظة تلقي الخبر وتماسكي الظاهري لتهجمت على الطبيب واتهمته بالكذب والادعاء.. لكن كاتيا شدتني من يدي إلى الخارج إنزوت بي جانباً وهي تهمس... فيصل.. ماذا جرى لك انه مرض السكري، لا يستحق منك كل هذا الانفعال، كثيرون مصابون بهذا المرض..

تدفقت دموعي التي حبستها أمام الطبيب والممرضات، نشجت بالبكاء دون جواب.. أردفت بحنان كبير:

ـ هذا المرض لن يعيق حياتك.. صدقني يا فيصل.. الدواء تأخذه بانتظام..

قاطعتها بحشرجة: طوال حياتي..

همست بدعة:

ـ من يدري ربما تشفي بعد فترة من الزمن ومع الحمية التي اقترحها الطبيب.. ربما بعد سنوات لن تحتاج إلى أي دواء..

ابتسمت وهي تتابع:

ـ ثم أنني أحبك رشيقاً..

ألقيت برأسي على صدرها وأنا أشعر بتفاهة العالم وحقارة الدنيا، وماذا بعد يا الهي؟ ماذا بعد؟ ما الذي يخبئه لي القدر في جعبته الممتلئة أحزاناً وصدمات ودموعاً.. هل هناك المزيد؟

جلست علي مكتبي الصغير في الشقة أخربش علي أوراق عديدة دون حس ولا شعور.. دخل كاظم.. اقتحمني صوته الجهوري الحبيب:

ـ اخبرني يا أخي..ما أخبار التحاليل؟ قلت أن النتيجة ستظهر اليوم..

ببطء وتبلد أجبته:

ـ أنا مصاب بالسكري يا كاظم..

هتف متعجباً وهو يضرب كفاً بكف:

ـ سبحان الله.. السكري.. لا حول ولا قوة الا بالله.. ومن أين أتاك المرض وأنت في عز شبابك.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

واسيته وأنا المحتاج للمواساة، خففت عنه أثر الصدمة، قلت له أنني أتقبل حياتي كما هي ولن أجزع أو أتخاذل، هذا ما قدره لي الله، ولنرضي بقضاء الله وقدره..

30 جمادى الأولى 1422

لم تنهار حياتي كما ظننت وحسبت.. بل سار كل شئ كما يسير كل يوم.. الضباب يكسو الطرقات.. والشمس تبدو على استحياء بين الحين والآخر.. الناس يسيرون في الشوارع ويأكلون ويتناسلون، المقاهي ممتلئة بالرواد والجامعة مليئة بالطلاب والطالبات، الحياة سائرة ولم تتغير أو تتبدل أو تنعكس بمرض.. مرضي أعايشه وحدي، وقد تقبلته ورضيت به وتعايشت معه بعد الصدمة الأولى.. لم يعد يؤثر بحياتي أو يعيقني عن عمل أو ممارسة ما أحبه وأهواه.. أنه جزء من ذاتي يرافقني وأتقبله مرغماً، لكنه لا يحد من خطواتي.. أحقن نفسي صباحاً بالأنسولين ثم اهرع خارجاً لأتناول فطوري في مقهى الكلية أو أي مقهى آخر ثم أنطلق لدروسي.. مساءً أذهب لعملي ثم أتناول عشائي مع كاتيا بشهية طيبة، وكأن شيئاً لم يكن، لكن حادثاً بسيطاً حدث يوم السبت أقنعني بأنني لن أعود كما كنت أبداً، وأن المرض قد غيرني إلى الأبد، فقد اتفقت وكاتيا أن نقضي اليوم في مدينة وندسور التاريخية نزور خلالها القلعة الشهيرة ونجوس في المدينة.. بعد أن انتهينا من زيارة القلعة سألتني:

ـ ما رأيك نتناول الغداء الآن أم نركب القارب في النهر أولاً ثم نتناول الغداء بعد ذلك..

شغلني الحماس والفرحة الشديدة عن مرضي، قلت لها فلننطلق في رحلة عبر النهر أولاً..

دقائق وأنا في القارب أحسست بدوخة بدت بسيطة.. ثم تداعيت تماماً وأحسست بالعرق يتفصد مني بغزارة رغم البرد والجو اللطيف

والهواء في النهر.. تماسكت بصعوبة.. لكن الدنيا بدأت تدور بي ولم أعد أفهم ما تقوله كاتيا.. يتناهى ليَّ صوتها.. بصعوبة ما بك؟..

هتفت وأنا أخشى الموت:

ـ دوار.. دوار فظيع.. أعتقد دوار بحر.. أو نهر..

صرخت كاتيا:

ـ بل أنه الجوع وأنت مريض لابد أن تأكل قبلاً.. يالي من حمقاء..

تناولت منها قطعة بسكويت أعادتني للحياة مرة أخرى قبل أن نعود إلى المطعم ونتناول غداءنا..

قالت لي أثناء الغداء:

ـ فيصل.. كدت تموت اليوم.. لابد أن تعتني بنفسك مرة أخرى.. أنت مريض والغداء مهم لك كثيراً..

اهتززت قليلاً لوصفها لي بالمريض، لكنني لم أفسد بقية اليوم، فقد تنزهنا وسعدنا ثم عدنا وقد توطن في قرارة نفسي شئ ما.. أن المرض لصيق بي.. يلاحقني أينما كنت، فيجب أن أعامله كشخص.. كرجل آخر.. كحارس.. إذا لم أعتن به جيداً فتك بي.. ولمزيد من التأكيد وحتى لا يأخذني النسيان بدوامته أطلقت على مرضي اسم رجل «متعب».. فعندما أشعر بعوارض الدوخة والتعب أعرف أن متعب غاضب ويريد شيئاً ما، وإذا كان كل شئ على ما يرام، فهذا يعني أن متعب راضٍ عني.. أما كيف أتخلص من متعب هذا فعلمه عند الله..

24 جمادى الآخرة 1422

يا الهي.. ماذا يحدث في الدنيا؟ ما هذا العالم المضطرب المتفجر؟ ما هذا الغليان في كل مكان؟ كدت لا أصدق نفسي لولا أن التلفاز أعاد المشهد مرات ومرات ومرات.. نبحلق في الجهاز نحن الثلاثة، فاغرين أفواهنا حتى آخرها وتتباين ردات فعلنا تبعاً للبيئة والخبرات والتربية والتعليم.. أنا أمصمص شفتي وأصفق بكفي ذهولاً ودهشة، كاظم يشتم ويكيل اللعنات باستمرار، ويقول هذا يوم أمريكا قد جاء أخيراً، عباس يبتسم هازئاً ويقول سترون قريباً ماذا سيفعل الأمريكان بنا لن يتركونا هانئين.. يسأله كاظم غاضباً:

- وما دخلنا نحن؟

يجيب عباس بسخرية:

- يا عم كله بطاطس.. الأمريكان أولاد عم الإنجليز.. ونحن طلعنا أو نزلنا مجرد بضعة عرب.. يعني لا شيء.. لذلك فالتهمة ستطبق على رؤوسنا..

لا نعيره التفاتاً ونحن نرى الطائرة على جهاز التلفاز وهي تخترق المبنى الشاهق وكأنه لعبة من ورق.. يعاد المشهد للمرة العشرين ربما أو الأربعين لا أدرى وكأنني أشاهد لعبة حرب من ألعاب جهاز البلاي ستيشن ينهار المبنى في ثوانٍ ويتلاشى، وكأنه لاشيء ثم أناس يصرخون ويبكون ويتراكضون في كل مكان جزعين ملتاعين.. تساءلت هل هذه نهاية العالم؟ ماذا يحدث في الدنيا؟ هل هذا حلم أم حقيقة وواقع؟ هل نحن في يقظة أم منام؟ أم أننا نشاهد فيلماً سينمائياً رهيباً سيسدل أستار النهاية بعد قليل؟هل يمكن أن يحدث هذا؟

حادثت كاتيا ووجدتها جزعة ملتاعة.. قالت إنها تنتظرني في منزل العائلة، سألتها إن كانت وحيدة.. نفت الأمر قائلة بل العائلة بأكملها مجتمعة مع بعض الأصدقاء..

ما أن دلفت إلى شقتهم حتى عبقت في أنفي روائح دخان السجائر مع أصوات كثيرة لرجال ونساء يحللون الأحداث باللغة الإنجليزية، همست لي كاتيا.. الوضع مزعج جداً وأصدقاؤهم الإنجليز مرتاعون، حدقت في وجوههم القلقة وقد غادرهم برودهم المعتاد، تابعنا الأحداث في جهاز التلفزيون لنفاجأ بمشهد صعقنا له جميعاً رأينا مظاهرة تهلل وتطبل فرحاً لما حدث في أمريكا في أحد شوارع المدن الفلسطينية.. تجمدت الدماء في عروقي وأحسست بغصة في حلقي رباه.. ماذا يحدث للمسلمين؟.. لماذا نتعامل بهذا الاستهتار والتخلف مع مشاهد الموت والدمار والنيران؟ قال أحد الإنجليز معلقاً.. أعتقد أن ياسر عرفات هو من دبر هذا الأمر.. ردت عليه فتاة إنجليزية بعصبية: انهم متخلفون.. متوحشون هؤلاء العرب!!

التقت عيناي بعيني كاتيا والبرودة تسري في أطرافي.. قررت أن أغادر.. خرجت أجرجر أذيال الخزي والعار والخيبة..

2 رجب 1422

تطورت الأحداث بشكل مذهل خلال الأيام الماضية، فقد ثبتت التهمة رسمياً على العرب والمسلمين.. خاصة السعوديين.. أصبحت في وضع لا أحسد عليه.. سواء في الشارع أو في العمل أو الجامعة..

حادثني أبي منذ أيام وطمأنته أن كل شئ على ما يرام.. لكن الوضع ليس كذلك فلا زال الطلاب والطالبات في الجامعة بحالة ذهول وحيرة، حتى أن بعض طالبات الجامعة العربيات المسلمات المحجبات قد خلعن حجابهن خوفاً من غضب بعض المتعصبين.. سألتني إحدى زميلاتي آن عن الدين الإسلامي ولماذا هو يدعو إلى قتل الأبرياء؟.. نفيت لها هذا الأمر وتحدثت بحماسة عن الدين الإسلامي الرحمة والعدل والسلام، فوجئت بالتفاف العديد من الطلاب والطالبات حولنا وعيونهم معلقة بشفتي وكأنهم على استعداد لألقي عليهم محاضرة عن سماحة الإسلام ويسره وعدالته.. استدعيت كل ما أعرفه وما لا أعرفه من أحاديث وآيات تدعو إلى السلام ونبذ العنف.. قلت لهم وأنا أرتجف من فرط الانفعال «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً»، سألوني كثيراً وجادلوني لدرجة أنني أصبت بصعوبة في التنفس من رهبة الموقف وخفت أن أسقط إغماء لانفعالي الشديد وهبوط نسبة السكر في الدم.. فتنصلت منهم بصعوبة لأذهب إلى مقر عملي فوجدته مغلقاً وعلى الباب لافتة توضح أن المكتب مغلق لظروف مؤقتة..

ونتابع الصحف البريطانية الشهيرة وهي تقوم بحملة شرسة ضد الإسلام والمسلمين، وأخذنا نسمع عن بعض الاعتداءات على بعض المسلمين هنا وهناك فقررت ألا أغادر المنطقة التي أسكنها على الأقل هذه الأيام.. كذلك تحاشيت قراءة الجرائد العربية في الأماكن العامة، كما كنت أفعل سابقاً..كل هذا والفراغ بداخلي يزداد ويتعاظم ويطغى على كل صوت آخر..

23 رجب 1422

وقعت أحداث كثيرة خلال الفترة الماضية، جعلتني أتوقف عن الكتابة.. اشتركت في تظاهرة سلمية للسلام ومنع الحرب على أفغانستان مع مجموعة كبيرة من زملائي وزميلاتي، انضممنا خلالها مع العشرات، نرفع اللافتات واللوحات المنددة بالحرب وننادي بالسلام الذي يبدو أنه غادرنا إلى غير رجعة..

منذ أيام سمعنا طرقات شديدة على باب شقتنا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، نهضت مذعوراً.. سبقني كاظم في النهوض بعيون حمراء منتفخة، عباس كان يغط في نوم عميق بصالة الشقة، فتح كاظم الباب.. دخلت مجموعة من رجال الشرطة واقتادونا إلى التحقيق دون أن نعرف ما هي قضيتنا.. همس عباس بلسان مخمور ونحن في سيارة الشرطة:

ـ كما توقعت..هذه تبعات الأزمة الأمريكية..

رد عليه كاظم بغضب:

ـ وما ذنبنا نحن؟

أخذت أربت على كتف كاظم طالباً منه الهدوء، فنحن سنعرف بعد قليل..

في الحجز أدخلونا إلى غرفة التحقيق كل منا على انفراد..

لم أكن خائفاً وأنا أجيب..

ـ كلا.. لا علاقة لي بأي تنظيم إسلامي في لندن أو في أي أماكن أخرى..

- جئت لندن للعمل والدراسة..

- هم أصدقائي وقد تعرفت إليهم منذ فترة طويلة.. ولا أصدقاء لي غيرهم في لندن..

- نعم لدي صديقة..

- أنا ضد الإرهاب وحادث 11 سبتمبر حادث مؤلم ومستنكر لأنه قتل ودمر مئات من الأبرياء..

- الإسلام ينبذ العنف وأنا مسلم لكنني لست متطرفاً أو منغلقاً..

عدنا إلى شقتنا مرهقين غاضبين حانقين على كل شئ وأي شئ، وجدنا شقتنا مقلوبة رأساً على عقب، ولم تبق ورقة في الشقة لم تقلب أو تقرأ، تبادلنا نظرات غاضبة ولم نتكلم..

جلست إلى مكتبي الصغير، فتحت دفتر مذكراتي.. لحظات لم أستطع كتابة حرف وفوجئت أنني أبكي!!

10 شعبان1422 - 27/10/2001م

تلاشى الانقباض الذي رافقني على مدى الأيام الماضية رغم أن الأحداث العامة لا تبشر بخير، فالتلفاز يبث لنا صور الحرب على أفغانستان على مدار الساعة.. صور مقززة منفرة.. أغنى دولة فى العالم تحارب أفقر دولة في العالم، وصور الأطفال الجرحى والقتلى والأسرى تتنامى بلا حدود..

وقسم بن لادن الشهير على شاشات التلفاز «أقسم بالله العظيم أن أمريكا لن تنعم أبداً بالأمن قبل أن تنعم به فلسطين، وقبل أن تخرج

كل الجيوش الغربية الكافرة من الأراضي المقدسة».. ثم بدأت أخبار الجمرة الخبيثة تتصاعد ولا ندري من أين أتت ولا انتهت..

صعب أن أنفصل عن الأحداث من حولي وصعب أيضاً أن أتواءم معها.. شاركت في تظاهرات لوقف الحرب على أفغانستان، وقبل ذلك قلبي وعواطفي كلها مع هذا الشعب الفقير المعدم الذي لا يملك من أمره شيئاً في أفغانستان..

سألتني كاتيا البارحة:

- لقد تغيرت كثيراً يا فيصل.. ألا زلت تحبني..؟

قلت لها بصدق:

- أحبك بصدق ولا أرى غيرك في الوجود.. لكن أحداث العالم تقلقني..

همست ضاحكة:

- ما دمنا نحب بعضنا فلنجعل العالم أسفل حذائنا!

فكرت في كلامها لبرهة، ثم وجدت نفسي أضحك بشدة.. نعم هذا ما يجب أن نفعله مع عالم اليوم..

انطلقنا إلى كينزنجتون هاي ستريت، وقررنا أن نقضي الأمسية في مطعم الروف في الطابق السادس وننسى العالم مؤقتاً.. سألت كاتيا وقد بهرني المطعم الذي أدخله للمرة الأولى بأجوائه الراقية وبالموسيقى التي تصدح في أنحاء المكان.. لماذا هذا المطعم بالذات؟ ابتسمت كاتيا ابتسامة خلابة وهي تقول:

- سنرقص معاً طوال الليل لننسى أمريكا وجمرتها الخبيثة وأفغانستان وليذهب الجميع للجحيم..

15 رمضان - 2001/11/30 م

حادثت أبي البارحة وطمأنته على أحوالي، سألني إن كنت أصوم رمضان، أجبته أنني أحاول جاهداً أن يكون صومي صحيحاً وسط هذه الدوامة والأجواء والنهار الطويل..

عندما كلمت سارة أجهشت بالبكاء، سألتها إذا كان هناك ما يضايقها، أجابت بالنفي، لكنها مشتاقة لي، اوجعني بكاؤها شعرت انه أكبر بكثير من موضوع الشوق.. أنها مدمرة نفسياً..

لم استعد هدوء نفسي بعد المكالمة، حتى قررت أن أدعو سارة لقضاء الصيف معي فربما أعرف أحوالها فاستريح أو تطمئن هي الى جواري، فتنقشع أزمتها النفسية العابرة..

تسكعت كثيراً مع كاتيا نبحث عن شقه صغيرة مناسبة لي، ويكون إيجارها متواضعاً... تسكعنا طويلاً، وسألنا سماسرة شقق ولم نجد شقة مناسبة، إما كبيرة وفخمة لا تناسب وضع طالب يصرف على نفسه وإما صغيرة مظلمة كئيبة لا أجد فيها نفسي ولا أرتاح لها ولو بمقدار ضئيل..

قال كاظم في عتاب:

- لماذا تتركنا يا فيصل بعد أن أحببناك وتعودنا عليك أم أن الفلوس تغير النفوس..

وضحت له مبتسماً: أبداً يا كاظم، يعلم الله انه لا أهل لي في بريطانيا سواكم، بل إنني أحبكم أكثر من كثير أعرفهم في بلدي ولا أستشعر معكم أية وحشه أو ضيق والفلوس لا زالت - كما تعلم - نستجديها هنا وهناك، لكنني أخبرتكم بهذا منذ البداية وربما يأتي ضيوف من بلدي.. خاصة أن شقيقتي إن شاء الله ستحضر هذا الصيف..

غمز عباس ضاحكاً:

- شقيقتك.. أم كاتيا هي السبب؟..

ابتسمت قائلاً: وهذه أحد الأسباب..

استمر عباس في ضحكه وهو يقول:

- هل تصدقون..جورجيت هذه العجوز الحمقاء المتصابية تطلب مني أن انتقل للسكن معها، قلت لها وابنتك؟ قالت أنا حرة وهي حرة، وعندما أتضايق منها سأقول لها اخرجي...

رد كاظم: لمعيشتهم الطويلة في لندن تطبعوا بطباع الغرب..حتى نحن يا عباس أتذكر عندما رغبت في شراء كلب صغير...

استمروا يقهقهون وهم يتذكرون أحداثاً ماضية، وحمدت الله أن دفة الموضوع قد تغيرت تماماً إلى وجهه اخرى، حتى فوجئت بعباس وهو يقدم صحون إفطار رمضان بصحن يضعه على الطاولة قائلاً بمرح:

وهذا ورق عنب من عمل كاتيا خصيصاً لك يا فيصل...

نهضت بسرعة صارخاً: نسيت ابرة الانسولين..

5 شوال 1422

منذ أربعة أيام وأنا أسكن الشقة الجديدة، أحسست فعلاً بطعم الحرية التي لم أذق لها في حياتي طعماً، فمنذ نشأت وأنا أعيش مع ناس وناس وناس... وأخيراً استقللت بذاتي بين أربعةجدران تحتضنني وتسترني وأفعل من ورائها ما أشاء.. أستطيع أن أصرخ.. أن أبكي..أن أضحك بصوت عالٍ دون أن يسألني أحد ما «ما بك»..أطبخ أو لا أطبخ... آكل أو أنام دون أكل..ألبس أو أمشي في أنحاء الشقة عارياً...

أنها شقة جميلة من حجرتين تقع في شمال لندن في Wembly بـ 500 جنيه إسترليني شهرياً..صحيح انه مبلغ كبير بالنسبة لي، لكن بقليل من التدبير وموازنة النفقات سأستطيع أن أعيش مستوراً..

زارني في أول يوم من سكني كاظم وعباس وبرفقتهما شابان عراقيان يحملون لي قالباً من الكعك وجهاز استريو هدية..وما أن أكلنا الكعك حتى فتح كاظم جهاز الاستريو الجديد واضعاً فيه أغنية عراقية حزينة، جلسنا ندخن ونشرب البيرة ونحن نستمع لصوت المطرب الشجي....

قلت لكاظم متردداً:

ـ الإخوان قادمان للتو من العراق؟

أجاب أحدهما واسمه حسين:

ـ نعم أخي.. والأوضاع لا تسر عدواً ولا حبيباً.. الحصار الاقتصادي حطم البلد..

رد عباس:

ـ الحصار الذي دمر البلد أم هذا الطاغية صدام؟..

ضحك حسين وهو يجيب:

ـ أنا حضرت خصيصاً للندن كي أخرج كل ما في داخلي من غضب وحقد وغل كي لا أنفجر.. أنني أدعوك أن تحضر خطبتي في الهايدبارك مساء الغد فستعرف حقائق جديدة..

حضرت برفقة كاتيا في الغد ولم أجد أي جديد.. شاب متحمس يعاني من كبت سياسي، فألقى حمم غضبه على الجميع، ولما تعالى الصراخ وبدأت الشتائم العربية الأصيلة تتقاذف بين الأفواه وتنذر بمعركة حامية الوطيس.. انسحبنا أنا وكاتيا من أرض المعركة، وبعد جولة في الشوارع التي أخذت تتزين لعيد الميلاد.. تعشينا في الشقة الجديدة.. تعاونت وكاتيا على عمل كبة بالصينية مع سلطة ونحن نضحك بمرح..

سألتها ونحن نأكل:

ـ هل أرافقك في طريق العودة أم ستذهبين وحدك؟..

أشارت كاتيا برأسها بعلامة النفي..

سألتها باستفهام.. أجابت ضاحكة:

ـ سأبقي هنا الليلة..هل لديك مانع؟..

لم أخف سعادتي وأنا أقول:

ـ بل على الرحب والسعة..

أشعلت سيجارة وأخذت تنفثها بعمق وهي تقول:

ـ أفكر جدياً في الانتقال للعيش معك بشكل نهائي.. ما رأيك؟ ستكون هذه مفاجأتي لك في عيد الميلاد..

لم يصدمني الأمر.. بل قلت بهدوء:

ـ الأمر لك يا كاتيا..

2 ذو القعدة 1422

لم أبك في حياتي كما بكيت البارحة.. ولم أنغمس في السكر في حياتي كما فعلتها البارحة.. ولم أكره ذاتي كما كرهتها البارحة.. ولا أدري كيف تطور الموقف ولا كيف تأزم ووصل إلى ما وصل إليه وأوصلني معه إلى قمة الانهيار..

تركت كاتيا نائمة بعد الظهر وغادرت إلى عملي.. وفي طريقي إلى العمل عرجت على أحد محلات الهدايا والتذكارات.. اشتريت ثلاث بطاقات، واحدة لأبي والثانية لشقيقتي سارة والثالثة لصديقي فهد، وابتعت هدية بسيطة لكاتيا، عندما عدت إلى الشقة بعد ساعات سمعت أصواتاً وموسيقى تنبعث من الشقة.. عندما فتحت الباب فوجئت بمجموعة نساء ورجال وكاتيا وأخرى معها ترقصان رقصاً شرقياً!!.. لا أدري ماذا حدث لي، لكنني شعرت بالدماء وهي تتدفق إلى رأسي سريعة ساخنة وغضبي يتصاعد.. لم أتفوه بحرف ومضيت إلى الداخل مسرعاً.. لحقتني كاتيا منفعلة بالإنجليزية:

ـ لماذا لم ترحب بالضيوف؟..

خاطبتها بالعربي: ومن الذي دعاهم إلى بيتي؟ وأنا لا أعلم.. ثم.. ثم..

ولم أستطع إتمام عبارتي، كنت أود أن أقول كيف يستباح الشرف في بيتي بهذا الرقص والمجون، لكنني تذكرت أنني لست أهلاً لهذه العبارة، وإذا كان هناك شرف مستباح، فإنني أول شخص قد استباح هذا الشرف..

قالت وقد تضرج وجهها احمراراً:

ـ ألا زلت تعتبر البيت بيتك رغم أنني أقيم معك، ثم أنني كنت أريد مفاجئتك بالاحتفال بعيد ميلادك.. لكن.. لكن يبدو أن عقليتك لا تزال تعيش في بلدك وأنا لن أعيش مع إنسان متخلف بعد اليوم..

ثم مضت تجمع حاجياتها بسرعة وعصبية وأنا واقف كالتمثال جامد لا أتحرك، وقد تجمد كل شئ داخل نفسي الحب والحزن والألم والغضب.. وأفقت على واقع مرعب بجدران خالية لا تحوي سوى أطياف مضت بلا عودة، الكؤوس وأعقاب السجائر والمقبلات الموضوعة على المنضدة، كلها تشي بأرواح كانت تجلس على هذه المقاعد، لكنها غادرت ومعها كاتيا وتركوني نهباً للألم والرعب والضياع..

الحزن يفتت أضلعي ولم أدر سبباً لحزني الغريب.. هل شعرت بأنني قد فقدت كاتيا للأبد؟ أم هو شعور بأنني قد خُدعت؟ أم هو

شعور الغربة القاسية عاد ليلتهمني من جديد؟ أنظر إلى الجدران بفزع وإحساس مريع بالخواء يسكن ذاتي ألم لا أقوى على احتماله..

مضيت أعب من الكؤوس الموجودة ومن الشراب المتبقي وأبكي كل شئ.. أتذكر أمي فأبكي.. أتذكر ضعف أبي وانكساره فأبكي.. أتذكر سارة وحزنها فأبكي.. مدرستي السابقة.. مدينتي.. أصدقائي.. صديقيّ الجديدين كاظم وعباس.. ثم تهجم علي ذكرى كاتيا فانهار وتنسكب دموعي أنهاراً..

أفقت ظهراً لأجد نفسي ملقياً في الصالة كما كنا نجد عباس دائماً وإلى جواري زجاجات وكؤوس فارغة من الشراب ومليئة بدموعي.. أنكرت وجهي في المرآة عيون منتفخة حمراء مرعبة وشفاة متورمة.. ووجه مخطط شاحب أصفر.. وشعر منكوش مبعثر في كل اتجاه.. والأكثر إيلاماً هي نفسي، فقد وجدتها ممزقة محطمة ضائعة.. صرخت بأعلى صوتي: كاتيا.. ليعود لي الصدى بعد لحظات لن تعود.. لن تعود.. لن تعود..

ـ أحسست بدوار رهيب يقعدني عن القيام.. تذكرت متعب.. نعم أنه متعب.. رفيق الشقاء «مرض السكر» لقد حضر ليرافقني مأساتي، بل ربما جاء ليقتلني..

أمسكت سماعة الهاتف وأدرت أرقاماً وما أن سمعت صوت كاظم على الطرف الآخر حتى خرج صوت مضعضع كسير وأنا أهتف:

ـ كاظم.. أنا أموت!!

أيام ضائعة عشتها دون كاتيا ودون نفسي.. حتى تدخل كاظم وعباس بيننا وعقدا صلحاً.. همس لي كاظم بأن أذهب برفقة كاتيا إلى مكان بعيد، فرنسا مثلا أو إيطاليا لمدة أيام قليلة، فإنها أفضل هدية للصلح.. شكرته وأنا أقدم زهوراً لكاتيا وهمست لها بأمر الرحلة المرتقبة.. ابتسمت بجذل لكنها قالت بحسم:

ـ لن أسمح لك بإغضابي مرة أخرى وإلا فسأرحل عنك للأبد..

أمسكت بها بقوة وأنا أهتف:

ـ لن نفترق يا كاتيا أبداً أبداً..

تألقت عيناها وهي تقول:

ـ إن فرنسا وإيطاليا ستكلفنا كثيراً ما رأيك نذهب في رحلة إلى مدينة «باث» توجد فيها قرى تسلب العقل وتنسيك نفسك.. ثم لا تنس أن عطلة عيد الميلاد قد انتهت.. فلن يكون أمامنا سوى يومين نقضيهما في «باث».

وافقتها سعيداً بعودتها وانطلقنا نسير تحت المطر متشابكي الأيدي وأنا أشعر بأن روحي قد عادت إليّ من جديد، وأن قلبي قد عاد له النبض وسرت الدماء في شراييني.

أمسكت بها تحت ماء المطر مباشرة وقد ألقيت المظلة بعيداً..

كاتيا.. عديني إنك لن تتركيني أبداً..

نفضت شعرها المبلل وهي تهمس بكلمات تعانقت مع بخار الماء الخارج من فمها:

- لن أتركك أبداً إلا إذا تركتني أنت..

قلت بصدق:

- لن أتركك أبداً فمعك وجدت نفسي يا كاتيا..

سألتني:

- ألست جائعاً؟.. ما رأيك لنوفر نقود الرحلة ونتناول الغداء اليوم Fish and Ships

صحت بصوت عالٍ:

- نعم.. فليحيا الـ فيش أند شبس

وانطلقنا الى مطعم بيرني إنز لنجده كالعادة مزدحماً بالرواد، فاخترقنا الجموع تتعانق أصابعنا بجذل لنأكل ألذ وجبة ذقتها في حياتي كلها. لأنها أعادت السكينة إلى نفسي القلقة المحطمة..

غرة ذي الحجة 1422

أبلغتني أمي أنها ستحج إلى بيت الله الحرام في مكة برفقة زوجها، لذلك طلبت من سارة البقاء لديها لرعاية أخوتها أثناء غيابها.. سألتني ألن تأتي للرياض لزيارتنا تملصت من الإجابة.. سألت باستحياء:

- هل تحتاج لشيء؟ هل أنت على ما يرام؟

غمغمت بإجابات باهتة لأنهي المكالمة بسرعة.. بعد 23 سنة من العذاب تسألني إذا كنت أحتاج لشيء، وقد كنت أحتاج أشياءً وأشياءً دون أن تدرك أو تعرف أو تسأل.. كنت أحتاج أهم وأغلى شيء

يحتاجه الطفل من أمه.. كنت أحتاج الحنان الذي حرمتني إياه، لأتسوله بعد ذلك من نساء الدنيا بأسرها، ولا يمكن أن تعوضني عنه امرأة غيرها.. ترى ما هذا الحنان الذي تملك صوتها أخيرا هل هو البعد أم يقظة الضمير بعد سبات عميق أم هو إحساسها بقرب الله منها بعد أن نوت الحج إلى بيته الحرام؟..

أياً كان السبب فإن حنانها الآن يدخل عندي في بند المنتهي الصلاحية، فقد مت عطشاً على أبواب أمومتها بحثاً عن قطرة حنان ولما جفت خلاياي وماتت عطشاً جاءت تعرض بضاعتها البائتة.. لكن هيهات.. لا حياة لمن تنادي..

لم أعد طفلاً يتحرق لأحضانها في ليالي الشتاء الباردة، أو صبياً يبحث عن صدر حنون يحتضنه في الأيام العصيبة، أو مراهقاً في خضم العاصفة يرنو إلى عصا يتوكأ عليها من تقلبات الأنواء.. لقد حملت حرماني واحتياجي عقداً وجروحاً داخل نفسي، لكني لن أعطي المجال لأحد بعد اليوم أن يبتزني ولو بدافع الأمومة!!

هاتفتني كاتيا تبلغني أن والدتها مريضة وإنها وشقيقها روبير سيتعاونان على نقلها للمستشفى.. سألتها إذا كانت تحتاج لشيء أو أرافقهم إلى هناك.. قالت إن الأمر لا يستدعي ذلك، فوالدتها خضعت لعملية شد لبشرة الوجه أدت إلى ندوب وتشوهات وبقع، فلما اكتشفت اليوم ذلك انتابتها حالة هياج عصبي شديد وهي تحتاج لطبيب نفسي فقط لا غير..

ابتسمت على الرغم مني.. أن السيدة مارجريت جميلة ولا

تحتاج لعملية تجميل لكن يبدو انها تريد أن تعيش زمنها وزمن ابنتها فتخسر كل شئ..

بعد أن خرجت من الكلية عرجت وأحد زملائي على مكتبة عربية، استقبلنا فيها مصري عجوز يدعى «عم مصطفى».. رحب بنا كثيراً وقدم لنا القهوة التركية الأصيلة وجلسنا نثرثر عن أحداث أمريكا الأخيرة، قال «عم مصطفى» إنها خدعة أمريكية ويوجد كاتب فرنسي أثبت أن الأمر كله خدعة وسينشر هذا الأمر قريباً..

قلت أعرف أن المؤامرة هي نظرية عربية وليست فرنسية.. قبل أن يحتد النقاش قال زميلي مغيراً جو الموضوع:

- هل هناك كتب جديدة يا «عم مصطفى»..

ابتسم العجوز وهو يسأل بدوره:

- بالطبع يوجد.. هل تريد سياسية أم دينية أم تلك التي تهواها؟..

ولم ينتظر إجابة، أسرع إلى أحد الرفوف وتناول عدة كتب بسطها أمامنا على المنضدة، عناوين مثيرة مبهرة غريبة.. يكفي أن تحوز كتاباً واحداً من هذه لتدخل السجن في بلدك.. سألته بفضول:

- من هؤلاء المؤلفون يا «عم مصطفى»؟

أجاب بضحكة كبيرة:

- أنهم مرتزقة يا ولدي، يعيشون على ابتزاز الآخرين ونشر فضائحهم وهم موجودون في طول لندن وعرضها..

وعدت دون أن أشتري شيئاً، بينما خرج زميلي بحمله الثمين وكأنه قد وجد كنزاً..

25 ذو الحجة

صحوت اليوم صباحاً على صوت أمطار غزيرة تضرب النافذة بقوة وقسوة والجو مكفهر وغاضب ولا أثر للشمس... أيضاً لا أثر للقمر (أقصد كاتيا) بحثت عنها في أرجاء الشقة ولم أجدها.. ارتديت ملابسي وتناولت إفطاري ثم خرجت تحت طوفان من المطر الغزير، أتحاشى بمظلتي البسيطة سيلاً عارماً ينقض عليَّ بجنون...

جلست على مقعدي في المترو under ground وأنا أفكر للمرة الأولى منذ حضرت إلى لندن.. لمَ لا اشتري سيارة؟..تحفظ لي هيبتي وتحميني من التسكع والاتكال على الآخرين وعذاب التنقل في أوقات المطر وغيرها.. وما أن وصل المترو إلى محطته عند الجامعة حتى كنت عازماً تماماً على البحث عن سيارة مستعملة وبأقساط مريحة مناسبة، سألت أحد زملائي وهو أسباني من عائلة غنية قال: إنها جيدة.. لكن وزنك سيزداد..لن تبقي رشيقاً هكذا وأنت تملك سيارة.

ابتسمت له وأنا اسأله معلومات عن نظام الشراء في لندن..اثناء العشاء سألت كاتيا عن صحة والدتها أجابت بضحكة:

- إنها الآن أفضل خصوصاً عندما لاحظت نظرات الإعجاب بها تتضاعف.

سألتها بغتة:

- ما رأيك كاتيا في أن أبتاع سيارة؟..

اتسعت ضحكتها وهي تقول:

- ما الأمر فيصل.. شقة ثم سيارة.. ثم تفاجئني بعروس.. إن السعوديين هكذا..

لم أغضب.. لكنني تجاهلت قولها وكررت سؤالي:

- ما رأيك في سيارة مستعملة بأقساط مريحة؟..

قالت: سيارتي رهن إشارتك..

أجبتها:

- أعرف هذا حبيبتي، لكنني أرغب في سيارة لي وحدي.. خاصة بي.. فربما احتجت للخروج ولم أجدك..

صمتت برهة قبل أن تجيب:

- نعم.. نعم تذكرت.. عباس صديقك يعرف أحمد سمسار سيارات يمني يبيع السيارات المستعملة ويتاجر فيها.. لكن هل لديك نقود؟

ابتسمت:

- بالتقسيط ستسير كل أموري بشكل جيد.. ربما أتزوجك يوماً بالأقساط.. من يدري..

نهضت مسرعاً:

- أرجو أن تغسلي الأطباق كاتيا لأنني سأحادث عباس في أمر السيارة..

لم أنم إلا وقد اتفقت مع عباس على موعد في الغد أزور معه السمسار اليمني أحمد..

15 محرم 1423

حادثت سارة شقيقتي صباح اليوم، كان صوتها مرتجفاً غير طبيعي سألتها إذا كانت تعاني من شيء، قالت إنها تود أن تزورني لتغير من أجوائها قليلاً.. وعدتها بأن أساعدها، سأكلم أبي في الأمر وأقنعه بأن يحجز لها على لندن فور انتهائها من اختبارات الكلية.. قلت لها في نهاية المكالمة لأرفع من معنوياتها:

- استعدي يا سارة بالملابس الثقيلة فلندن دوماً تفاجئك ببردها..

عندما أبلغت كاتيا بالأمر قالت إنها ستعود للإقامة عند والدتها عند حضور سارة اذا كان وجودي سيضايقها..

ابتسمت وأنا أقول لها:

- إن وجودك لن يضايقها قط بل سيصدمها ويرعبها، لأنها لن تصدق إقامتك معي دون زواج، لذلك فرأيك صحيح يا كاتيا.. عند حضور سارة فسنعود لأيام العشق الأولي، يام الرومانسية..

بعد قليل فوجئت بمكالمة من كاظم يطلب حضوري لشقتهم على وجه السرعة سألته: ما الأمر.. قال ستعرف عند الحضور..

ودعت كاتيا واستقللت سيارتي الصغيرة التي حرتُ في البداية كيف أقودها فلم أتعود القيادة على اليمين مطلقاً..

وصلت لأسمع صوت عويل متقطع ينبعث من باب الشقة.. فوجئت بالأمر حين فتح لي كاظم الباب هامساً:

- عباس يا فيصل، انه منهار منذ البارحة ويمزق ملابسه وكأنه أصيب بلوثة عقلية.. لقد أبلغوه بأن ابنه الكبير مات في حادث سيارة.. سألته بسرعة:

- كم عمر ابنه هذا؟

هتف كاظم بأسى:

- أنه في الثانية عشرة من عمره..

أسرعنا إلى حيث وجدناه يشد شعره بغيظ ويبكي بصوت عالٍ وهو يقول:

- لم أره منذ سنوات.. كان يتعلق بي ويقول لا تذهب يا بابا.. لكنني ذهبت.. ذهبت وتركته..

لم تفلح محاولاتنا في تهدئته.. قلت لكاظم بهدوء:

- كاظم انه يحتاج إلى مهدئ.. إبرة أو حبوب أو أي شئ.. ما رأيك نأخذه لطبيب نفسي..

هتف كاظم بغضب:

- إن الأطباء هنا حرامية..زيارة واحدة فقط تكلفك نصف دخلك الشهري أعرف صديقاً سورياً يعمل صيدلياً، سأطلب منه حبوباً مهدئة.

أسرع وتركني مع إنسان في قمة عذابه ويأسه.. يصرخ.. ثم يبكي.. ثم يهذي.. ثم يغني بصوت أجش أغنية عراقية حزينة..

احتشدت نفسي بالعواطف الجياشة، ولم أشعر إلا ودموع صادقة تنساب من عيوني بلا حساب..

صفر 1423

امتحاناتي كانت جيدة، وقد اجتزتها بنجاح.. همست لي كاتيا أنها قد أعدت لي مفاجأة في بيت والدتها، وبإمكاني أن أدعو من أشاء من رفاقي..

ثم أردفت ضاحكة بأنها قد أجلت الاحتفال بعيد ميلادها حتى شهر يوليو المقبل سألتها لماذا.. غمزت بعينها قائلة «اعتبارات أمنية»..

حادثت كاظم وسألته عن عباس، قال أنه أفضل قليلاً، لكنه لا زال في حالة سيئة، فقد تضافرت عليه ظروف وفاة ابنه وترك السيدة جورجيت له، فقد وجدت عشيقاً آخر..

هتفت:

- بهذه السرعة..

ضحك كاظم وهو يقول:

- انك لا تعرف السيدة جورجيت حقاً، انها طيبة وجميلة ولطيفة.. لكنها تبدل عشاقها كما تبدل أثوابها، لكل مناسبة ثوب مناسب..

قلت والحزن يعتصرني:

- وما موقف عباس؟

أجاب ضاحكاً:

- أنه يشتمها ليل نهار وبكل قاموس الشتائم العربية الذي تعرفه عدا الشتائم الانجليزية الأصيلة..

دعوت كاظم للحفل الذي أجهله في بيت السيدة جورجيت.. ولم أجد أن من المناسب دعوة عباس ووافقني كاظم على ذلك..

فوجئت أو ربما لم أتفاجأ تماماً، فقد كان الحفل معداً لي شخصيا احتفالاً باجتيازي الاختبارات بنجاح.. أعطيت كاتيا باقة الورد التي ابتعتها لها وأنا أظهر لها امتناني..

عرفتني كاتيا على مجموعة كبيرة من معارفها وأصدقائها شباناً وفتيات، لفت نظري أحدهم، إنجليزي ويدعي وليام، كان ينظر لكاتيا نظرات خاصة فيها ولع وهيام وأشياء أخرى، لم أرتح لطريقة تعامله معها، وأزعجني اهتمامها به والسهر على راحته لفت نظرها لذلك بطريقة ودودة.. صرخت بمرح Oh my god وأمسكت بيدي مخترقة الحشد الكبير إلى حيث يوجد فتاها الإنجليزي. قالت بصوت مرح:

- صديقي فيصل أنه عربي أصيل وسيقتلك يوماً إن تجرأت وقبلت يدي

ثم مضت تعرفني به.. وليام مدير المحل الذي أعمل به وقريباً سنصبح شركاء..

مد لي يداً باردة وهو يتفحصني بعينيه الخضراوين..

تذكرت حينها هاري مديري السابق في الفندق، حيث كنت أجلو الأطباق.. فتضاعفت كراهيتي له..

تأبطت ذراع كاتيا عارضاً عليها أن نرقص معاً.. ثم اندمجت في الحديث مع إحدى الفتيات المغربيات، وهي تعمل مع كاتيا في الصالون، لأفاجأ بأن كاتيا ترقص مع مديرها الأثير وليام.. تصاعدت

الدماء إلى وجهي وأحسست بحرارة لاهبة تهب عليّ لا أدري من أين؟ فكرت أن أغادر المكان غاضباً، لكن يداً حنونة امتدت تربت على كتفي..

- اهدأ يا صديقي فهي ليست زوجتك..

التفت لأجد كاظم يهمس بابتسامة ثابتة لا تهتز:

- ولن تكون زوجتك في يوم ما.. أليس كذلك؟

وكأنه غمرني بالماء البارد.. أردف بصوت منخفض:

- لا أدري لماذا تندمجون بالدور أيها الأغبياء، فيمضغنكم هؤلاء المومسات، ثم يلقين بكم تفلاً في سلة المهملات.. هي وأمها وغيرها وغيرها..

تجاوزت غضبي، لكنني أحسست بالمهانة والإذلال.. ليأتيني صوت كاظم بارداً قاسياً متبلداً:

- أنظر لتلك الجميلة بجوارك وانس كاتيا قليلاً.. فستأتيك كالقطة الذليلة تتمسح أسفل قدميك..

نظرت إلى من بجانبي لكنني لم أرها.. رأيت بئراً موحشة موغلة في القدم تقذف بأحزاني الواحد تلو الآخر.

قادني كاظم إلى مكان جانبي وقال لي أنه يعرف مشاعري جيداً، فقد عاشها كثيراً قبلي، لذلك طلب مني الصمود وتجاهل الأمر، فكاتيا ربما أرادت إثارة غيرتي فحسب..

وفعلا عادت لي في نهاية السهرة ثملة وتشتمني بأنني لم أعد أهتم بها كما يجب!!

اتفقت ووالدي على ترتيبات سفر سارة إلى لندن، بعثت له بثمن التذكرة ووعدني بأن يحجز لها في بداية ربيع الثاني، حيث موسم الإجازات للمدارس والجامعات.. قال أبي إنها حالياً تقيم عند عمتها، لكنه أوصاني أن أهتم بها لأنها تسافر للمرة الأولى في حياتها خارج السعودية..

عرفني كاظم بصديقته الجديدة «جين» إنجليزية تعمل ممرضة في مستشفى «كروم ويل Crom well Hospital» يقول إن لي الفضل في تعرفه عليها خلال فترة علاجي بالمستشفى، قلت له الفضل ليس لي بل لمتعب.. سألني بدهشة: متعب من؟ قلت له أنه مرض السكر، فقد أطلقت عليه اسم متعب لأنه قد أتعبني فعلاً..

اتفقنا نحن الأربعة هو وصديقته وأنا وكاتيا على أن نذهب في رحلة ممتعة إلى شمال إنجلترا إلى بلاكبول..

تمتعنا فيها كثيراً بتلك المدينة الجميلة، حيث أقمنا في بيت جميل صغير تديره امرأة عجوز هي صاحبة المنزل، وكانت تصنع الطعام لنا بنفسها، تساعدها خادمة عجوز، وكانت دائما تسألني عن بلادي وهل حقاً أنتم تسكنون في خيام..

أجبتها ضاحكاً وكاظم يرقبني: بل قصور فارهة..

وتسأل من جديد:

- وهل الجمل هو وسيلتكم للتنقل؟

- بل نمتطي أفخم السيارات الفارهة المستوردة من أمريكا

أوربا.. والجمال حيوانات أليفة نأكل لحمها ونستفيد من حليبها، لكنها ليست وسيلة مواصلات أبداً..

وتعاود السؤال بإلحاح:

- والمرأة.. المرأة في بلادكم هل هي محبوسة في المنزل تنتظر حكم الرجل؟

أضحك هنا وأنا أشد كاتيا من يدها لأضعها أمام المرأة العجوز باسماً وأنا أقول:

- هذه نموذج لامرأة عربية.. ماذا ترين؟ هل هي محبوسة في سجن الرجل.. أم إنها هي السجانة..

تصرخ كاتيا بالإنجليزية:

- هي تقصد المرأة في الخليج

تبتسم العجوز بخبث وهي تسأل وكأنها تعد العدة لبحث مهم:

- نعم المرأة في الخليج ماذا عنها..؟

لاحت سارة في ذهني كسيرة ذليلة.. تنتقل بين بيوت لا ترغب فيها وتعاشر أشخاصاً لا تحبهم، لكنها مجبرة مسيرة وليست مخيرة..

نظرت إلى العجوز وأنا أجيب متمعناً في عباراتي كيلا أجرح أحداً..

- المرأة في الخليج أيضاً امرأة حرة، تخرج وتعمل وتدرس ولها دورها الكبير في بناء المجتمع إلى جوار الرجل..

أردفت لأغير الموضوع، ماذا أعددت لنا في وجبة الغداء يا مسز الس؟

افتر ثغرها عن ابتسامة كبيرة لتلوح التجاعيد الكثيرة في وجهها الناصع البياض وتتألق عيناها التي اختلطت ألوانها، فلا تدري أهما زرقاوان أم خضروان أم رماديتان أم بلا لون على الإطلاق.. قالت بفرحة طفل سئل عن لعبته الجديدة:

ـ حساء السمك.. فطيرة البط.. بطاطا ـ ويور كشير بودينغ..

صرخنا جميعاً بصوت واحد:

ـ فلتحيا مسز الس..

15 ربيع أول 1423

قضينا البارحة ليلة جميلة جداً.. أنا وكاتيا مع كاظم وجين.. فقد تعودنا على الخروج معاً نحن الأربعة إلى السينما أو المطاعم أو الديسكو.. قررنا في لحظة جنون أن نحضر إحدى الحفلات الغنائية العربية..كانت المطربة مشهورة جداً في الدول العربية، ولندن بدأت تمتلئ بالعرب القادمين من كل مكان، خاصة من دول الخليج، فأصبحنا نرى العقال والغترة كثيراً، أيضا العباءة والنقاب نراهما في الهايدبارك، بيكاديللي، اكسفورد ستريت، ريجنت بارك وأكثر ما يجتمعون في أدجوار رود..

قررنا أن نسمع جين شيئاً من الطرب العربي، كانت البطاقات غالية جداً والأسعار مبالغ فيها، لكننا اخترنا مقاعد بعيدة جداً عن المسرح بأسعار معقولة، وعشنا ليلة عجيبة.. سخرنا فيها من

فسنا.. شباب يرقصون وفتيات يرقصن بميوعة ودلع وقد خلعن برقع الحياء فجأة، ومن يراهن في تلك اللحظة يعتقد إنهن قد ولدن في مراقص ورضعن الرقص مع الحليب أو ربما ولدن في حي سوهو الشهير بلندن وليس في قرية نائية من قرى دول الخليج..

ضحكنا كثيراً على أنفسنا، وضحكنا أكثر وجين تتساءل بدهشة:

هل هؤلاء مسلمات؟.. فتطفر الدموع من أعيننا لا ندرى سخرية أم حزناً ونحن نجيب بنعم، تتساءل مرة أخرى: إذن أين الحجاب؟ فيقول كاظم: الحجاب نسينه في الطائرة.. وأقول حزيناً: إنهن يعتقدن أن الله يوجد في حدود الدول العربية فقط.. تهتف جين: إنهن يحملن مفاهيم مغلوطة..

وللمرة الأولى تتدخل كاتيا قائلة: إنهن ينشدن الحرية..

كدت أدخل معها في نقاش عقيم عن الحرية ومعناها وعن التناقض في الأقوال والأفعال.. لكنني خشيت إحراجها فصمت..

خرجنا يصفعنا الهواء البارد وتوجهنا نحن الأربعة إلى ميدان ليستر سكوير لنشتري الأيس كريم من محل هاجن داز..

منعتني كاتيا من تناول كوب الأيس كريم الكامل، خوفاً عليَّ من ارتفاع السكر وضحكت قائلة فلنقتسم الغنيمة سوياً أنا ثلاثة أرباع وأنت الربع.. فعمل كاظم وجين الشئ نفسه فقد اشتريا قمعاً واحداً فقط.. وقبل أن نودعهما سألني كاظم:

ـ متى ستحضر شقيقتك إلى لندن؟

تذكرت سارة فانقبض قلبي على الرغم مني.. أجبته شارداً:

ـ أسبوعين أو ثلاثة على وجه التقريب..

ابتسم قبل أن يقول:

ـ ما وضع كاتيا؟.. وهل سنخرج معاً كالسابق؟

أجبته بهدوء:

ـ كاتيا ستعود للإقامة مع والدتها.. وسنجد بالتأكيد فرصاً للخروج مع بعضنا البعض.. ان شقيقتي سارة لطيفة، لكنها لم تعتد على الاختلاط كثيراً بالناس..

2 ربيع الثاني 1423

غداً صباحاً موعد قدوم سارة إلى لندن.. كاتيا جمعت ثيابها قبل قليل وغادرت الشقة، عادت حينما لمحت دموعي.. سألتني بلهفة:

ـ فيصل.. ما بك؟

تهدج صوتي وأنا أقول:

ـ لا أحب الوداع وأكره الفراق، أنه يفقدني الأمن والطمأنينة وأشعر بأنني بلا سند..

ابتسمت قائلة:

ـ أنه ليس وداعاً.. أنه فراق مؤقت بسبب الظروف، وسنعود سريعاً حالما تغادر سارة إلى السعودية..

ثم أردفت ضاحكة:

ـ لم تقل لي يا فيصل كيف شكل سارة.. هل هي جميلة مثلك؟

ابتسمت وأنا أتخيل شكل سارة.. عادة الشقيق لا يشعر بجمال شقيقته كما يشعر به الرجل الغريب.. بل أن أكثر الأشقاء يعتقدون أن شقيقاتهم من أبشع الفتيات رغم جمالهن..

قلت لها:

ـ سترينها بالتأكيد وستعجبك، فهي جميلة جداً بالمقياس السعودي للجمال..

وما أن غادرتني كاتيا حتى وجدت نفسي وجهاً لوجه مع مشاعري تجاه قدوم سارة شقيقتي، لا أدري هل أشعر بالفرح أم بالحزن، الفرح لوجودها معي أخيراً وعلى أرض صلبة تضمنا تحت جناحها بعد أن كنا شتاتاً في منزل كل من يعرفنا ومن لا يعرفنا.. أو الحزن ليتمنا رغم وجود والدينا على قيد الحياة، وكل منا يحمل تبعات تشرده وضياعه، أنا ومرضي المزمن، وسارة وأمراض نفسية وعصبية أجهلها.. حاولت أن أتذكر ملامح وجهها كما رأيته آخر مرة.. لكن.. رباه.. أشعر بأنني لا أتذكر شيئاً لقد نسيت ملامحها.. أتذكر أنها طويلة القامة مثلي وأنها تشبه أمي في الجمال وبياض البشرة، لكنها طيبة وتحمل آلام الدنيا كلها داخلها، بكت كثيراً يوم سفري، أهمس لها كفى يا سارة فتبكي أكثر فأكثر.. أحسست أنني أمثل لها أكثر من الأخ، أنا الأب والزوج والشقيق والصديق وحتى الأم أنا بيتها المفقود أنا عنوان الضياع الموسوم في عينيها البريئتين..

«وسقطت ورقة التوت»

(1)

وقفت حائرة في المطبخ تتناهبني الأفكار.. ماذا أطبخ؟.. ماذا يحب هؤلاء الضيوف من طعام؟ انهم لبنانيان وعراقي وليسوا سعوديين لأطبخ لهم الكبسة السعودية مع بعض السلطات وينتهي الامر، ترى هل يحبون أكلهم اللبناني مع أن لندن مليئة بمطاعمهم المتنوعة؟! قال لي فيصل أن الضيوف هم كاتيا وشقيقها روبير مع صديق عراقي. .تأملت ساهمة أكوام الخضار واللحوم وباقي المشتريات التي ابتعناها أنا وفيصل من السوبر ماركت الكبير، تذكرت مآدبنا في بيت عمتي في الرياض حينما نجتمع أنا وعمتي وليلى ونوال والخادمة الإندونيسية عائشة، فتبدأ عمتي تلقي أوامرها بعنجهية فارغة:

ـ «هيا يا بنت: أسرعي الرجال على وشك الوصول.. دعوا عائشة للقلي والتقطيع وتعاونَ انتن في باقي الأطباق. .انتبهي يا سارة لا تكثري الليمون في ورق العنب كالمرة السابقة، لقد أحرجتينا أمام الرجال.. وأنت يا ليلى تذوقي الجريش قبل أن تسكبيه في الأطباق وانتبهي للملح..

انبرت نوال دلوعة أمها بلهجة دلال وثقه: وأنا يا أمي..

ابتسمت الأم بفرح حقيقي قائلة: أنت يا نوال كل أطباقك جميلة مثلك..

ثم امتدت يدها للقدر الكبير الذي يغلي فوق الفرن لتتذوق الحساء ومضت غير عابئة بالحرائق التي أشعلتها داخلنا أنا وليلى.. مباشرة نهضت نوال من كرسيها وألقت بالسكين من يدها قائلة بطريقة والدتها الشهيرة: تذكرت واجباً لم اكتبه بعد.. اهتموا بالأطباق ستغضب أمي..

وخرجت مارقة كالسهم لتقلدها ليلى غاضبة: وإلا ستغضب امي.. يا لها من انسانة مغرورة متكبرة..

هتفت بعمق آلامي: إنها الصغيرة يا ليلى، ولابد أن تكون ناعمة مرفهة صرخت ليلى بحنق: هي ليست الصغيرة.. فهناك دلال الصغيرة، لكنها أفضل منها بكثير رغم أنها في العاشرة..

قلت بهدوء: أنت الكبيرة يا ليلى ويجب أن تتحملي كل شئ..

مضت تقطع الكوسة وعيناها تتلألأن بالدموع..

والدتي كانت من النادر أن تستقبل ولائم في منزلها، أما زوجة أبي المرفهة فقد كانت ولائمها تأتي جاهزة من المطاعم والمطابخ المنتشرة في أنحاء الرياض ولا تكلف نفسها حتى عمل الشاي والقهوة، فقد كانت الخادمة تعدهما دائما وتتولى ترتيب المائدة أيضاً ولا يكون لها من شرف الدعوة إلا الاستقبال والتذوق فقط..

- ماذا أعددت لنا من أطباق سعودية شهية؟

التفت بسرعة مرتاعة لأجد فيصل أمامي باسماً:

- هل نسيت أطباقنا كما نسيتها أنا هنا..

ضحكت قائلة:

- هل هم بالتأكيد يرغبون في الطعام السعودي؟

أجاب مؤكداً:

- بالطبع.. فلا مطاعم سعودية هنا.. ثم أنهم يتمنون تذوق الكبسة على أصولها خاصة كاظم.. وأنا سأساعدك..

هتفت به خجلة:

- كلا.. كلا يا فيصل.. أخرج أنت وستجد كل شئ جاهزاً وعلى أفضل ما يكون وسأشرفك أمام أصدقائك..

ضحك قائلاً:

- سارة نحن في لندن ولسنا في الرياض.. أنا متعود على الطبخ هنا.. أنت تطبخين الكبسة وأنا أقطع السلطة وأعد حشو السمبوسة وأنت تحشينها لأنني لا أعرف ثم أقليها أنا.. ما رأيك؟

ضحكنا سوياً وأنا أقول: نعم الرأي..

في السابعة تماماً كان كل شئ جاهزاً تقريباً.. أسرعت أرتدي ملابسي وحجابي، احترت مرة أخرى.. هل أتعطر أم لا؟ أنا محجبة وسيكون هناك رجال عدا أخي.. عزمت أخيراً على الاكتفاء بالبودرة المعطرة..

استقبلناهم أنا وفيصل.. كاتيا كانت في قمة جمالها بثوب أخضر قصير، أخوها روبير يشبهها كثيراً، لكن شعره كان بلون البن الغامق، كاظم طويل القامة يميل إلى البدانة، لكنه مرح ودود طيب جداً، وكانت لهجته عراقية صرفة..

لم أعتد الجلوس مع الرجال، فكنت أذهب للمطبخ كثيراً رغم أنه لا عمل لدي هناك لحقت بي كاتيا بعد فترة قائلة:

- أنت لم تجلسي معنا أبداً.. لا نريد أن نعذبك.. هل من مساعدة..

سحبت نفساً قوياً قبل أن أقول:

- لا.. كل شئ جاهز تقريباً.. ما رأيك أن نجلس هنا..

هتفت بتعجب:

- في المطبخ؟

أسرعت قائلة:

- هل تفضلين أن نجلس في الداخل؟ غرفة النوم مثلاً.. لا مانع لدي..

ابتسمت وكأنها قد فهمت:

- ولمَ لا نجلس معهم.. وأشارت لهم بطرف عينها..

صمت محرجة في الوقت نفسه الذي ارتفع فيه صوت أخي قائلا:

- هل العشاء جاهز؟

مضت معي كاتيا إلى حيث الطاولة المعدة بعناية.. ترددت في الجلوس، لكنني خشيت إحراج فيصل، فجلست لتنهال عليَّ الإطراءات عن جودة الطبخ والطعم الرائع مما أغرقني في الخجل..

قال فيصل:

- ما رأيك روبير ترافق سارة غداً إلى متجر هارودز؟..

أحسست بأنني أموت ببطء، فلم أرفع عيني عن طبقي، وكأن كاتيا قد شعرت بما تعتمل به نفسي الهائجة المائجة فقالت بهدوء:

- سأرافقها أنا غداً هل تأتي معنا روبير؟..

غرقت في خجلي وعرقي وأصوات تنبعث من أعماقي، فلم أنتبه لجوابه.. لماذا يضعني فيصل في هذه المواقف القاتلة؟ ألا يعلم أنني لم اعتد التحدث مع الغرباء فكيف بالخروج معهم ومع الرجال بالتحديد الذين لم أر فى حياتي منهم سوى أخي وأبى، أما زوج عمتي وأولادها فأنا اختبئ منهم كلما دخلوا البيت، حتى زوج أمي من يكون بمثابة أب وأطلق عليه لقب عمي، فأنا لا أطيق أن أجالسه في مكان واحد، وأحاول الهروب من المكان الذي يجلس فيه، فكيف يطلب منى فيصل وبسهولة أن اخرج مع رجل غريب حتى ولو كان هو يعرفه..اشعر ببوادر الضغط النفسي رغم اننى قد قضيت اليوم بطوله في مرح وحبور.. أشعر بأنفاسي تتسارع ويديَّ ترتجفان.. أحاول السيطرة على ذاتي.. أسمع ضحكات تتردد من حولي.. قدماي مثقلتان متخاذلتان يسرى فيها خدر شنيع.. يتناهى لى صوته.. فيصل أخي

- سارة.. روبير يسألك عن دراستك في الجامعة..

أرفع بصري قليلاً ثم أعاود الوجوم.. نبضات قلبي سريعة ولا سيطرة على نفسي أحاول أن أتحدث فلا أستطيع، أشعر بالكلمات ملتصقة بسقف حلقي، لا أنا بقادرة على ابتلاعها ولا أستطيع النطق بها..

يسعفني فيصل قائلاً:-

- إنها خجلى ولا تحب الكلام كثيراً.. لقد أنهت السنة الثانية من كلية العلوم- قسم فيزياء.. على فكرة هي ممتازة في الدراسة كثيراً..

تتصاعد الآهات داخلي وتتداخل وترتفع لتكون هرماً من الألم والوحدة والشقاء، تذكرت مبنى الكلية والزميلات السعيدات وانا بينهن ممزقة حائرة مشتتة، كل واحدة من زميلاتي لها بيت وأب وأم ومجموعة أخوة وأنا كحشرة.. كذبابة..لي عدة بيوت لا املك منها بيتاً وعدد من النساء الأمهات لا اعرف فيهن أما، ومجموعة من الرجال أعيش معهم لا أشم فيهم رائحة الأب الحقيقي.. وأرى أطفالاً وشباناً وفتيات لا استشعر طعم الاخوة مع أحد منهم..

قالت لي مسوؤه الأمن في الكلية:-

- لتجديد بطاقتك يا سارة.. أين تقيمين؟

دار رأسي.. ماذا أقول لها؟ أعيش في ثلاثة بيوت بنظام التناوب في كل منها أزواج لا انتمى إلى أي منهم.. بماذا أرد عليها؟هل أقول لها الحقيقة لتهزأ بي وتسخر مني، أم اختار أحد هذه البيوت واكتب عنوانه لأستريح، لكن أي منها انتمى له ولو جزئياً؟ أجد نفسي فيه أو

بعض نفسي، أرى فيه على الأقل وجهاً حبيباً اشتاقه وارتاح اليه..

اخترت ليلى هي الوحيدة بعد أخي فيصل التي استشعر قربها مني وعاطفها معي، وهى الوحيدة التي أحمل جزءاً منها أينما ذهبت وارتحلت قلت للموظفة بهدوء:-

- ليلى.. اختار ليلى..

نظرت لي مشدوهة.. سألتني بريبة: عما تتحدثين.. أسألك عن عنوانك..

يا الهي.. ليلى هي عنواني، ليلى هي واحتي الخضراء في صحراء قاحلة جف نبعها، ليلى عنواني وكهفي الذي احتمي به في غابة امتلأت بالوحوش الكاسرة الغادرة، ليلى جزيرتي الصغيرة وسط بحر عاصف متلاطم الأجواء والأهواء والانواء.. ليلى بقعة الضوء الوحيدة في ظلام ليلي الدامس، ليلى هي ليلي الذي أخلد إليه بعد أن يلفظني النهار بقسوة وازدراء..

أجبت مترددة:- آسفة.. لقد نسيت..خذي عنواني

أمليت عليها عنوان بيت عمتي، وأنا لا أرى فيه سوى ليلى أختاً وصديقة ورفيقة..

انتبهت على صوت كاتيا:-

- هاه..ما رأيك يا سارة غداً في العاشرة؟..

هززت رأسي بالإيجاب وأنا لا أدري عن ماذا تتحدث..

أردفت بابتسامة:-

ـ وهل آتي لأخذك أنا أم فيصل يتولى المهمة..؟ ألا تعرفين قيادة السيارات يا سارة؟..

ضحك فيصل بقوة وهو يقول:

ـ أتهزلين يا كاتيا.. أنا من أمهر السواقين في بلدي لم استطع إلى الآن القيادة بشكل جيد في لندن، فكيف بسارة التي لا تعرف إلا كيف تجلس في السيارة؟..

ضحكوا جميعاً ليتابع فيصل:ـ

ـ أمري لله.. سأرافق سارة إلى صالونك يا كاتيا غداً في العاشرة، لكنني بعد ذلك لست مسئولاً عنها..

«صالون».. طرقت أذني الكلمة.. هل سأذهب إلى صالون كاتيا وماذا أفعل هناك وأنا محجبة ويعمل معها رجال كما سمعت..

في زواج فاطمة ابنة عمتي الكبرى ذهبنا جميعا لصالون كبير شهير في أرقى أحياء مدينة الرياض في حي «العليا»، كانت عمتي سعيدة والعاملة تسوي خصلات شعرها الخفيف، وما أن دخلت أمي حتى تكهرب الجو، حدجتني عمتي بنظرة نارية وهي تسألني بصوت خافت:

ـ من أخبرها بأننا قد حجزنا عند هذا الصالون؟

شعرت بالعجز والضآلة وأنا أقسم لعمتي بأنني لم أتفوه لأمي بحرف..

أربد وجهها وتقلصت ملامحه وهي تقول:

ـ أعرفها الحية الرقطاء لقد حضرت إلى هنا خصيصاً لترى استعداداتنا للزواج.. لكنني لن أدعها تفرح بانتصارها.. هيا نخرج..

حاولنا أنا وبناتها إقناعها بالعدول عن هذا الرأي، لكنها أصرت.. وعمتي عندما تصر على أمر فإنها تنفذه بحذافيره رغماً عن كل شئ..

بكت العروس وقد انتهت من نصف زينتها، لكني وليلى اتفقنا مع إدارة المشغل بأن نصطحب العاملة معنا إلى البيت متحججتين بظرف طارئ، وافقت مديرة المشغل على أن ندفع الأجر مضاعفاً، لم نفعل أكثر من الاستسلام والعودة إلى المنزل، لم تدع عمتي الأمر يمر بسهولة، بل أخذت ترغي وتزبد.. تهاجم وتشتم.. ثم أخذت تدعو الله بحرقة وحسرة وكأن أحداً ما قد قتل ابناً من أبنائها وليس موضوعاً تافهاً مجمله أن امرأة تكرهها رأتها فجأة في صالون للتجميل.. أخذت تنظر إليّ وتردد:

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل..

أفسدت فرحتي بزواج ابنتها ومضيت أكتم العبرات الحارقة طوال فترة التحضير للحفل ومدة السهرة نفسها حتى انفجرت ليلاً في فراشي أبكي بحرارة وحرقة.. ضمتني ليلى دامعة تسألني بحنان:

ـ تبكين فاطمة.. إنها تزوجت وغادرتنا..

لم أرد واستمررت في بكاء حارق موجع يتناهى لي صوت ليلى كهدهدة رضيع:

- كفي يا سارة.. أوجعتي قلبي.. ثم أن فاطمة كانت قاسية عليك وتغار منك..

لم تعلم أنني ابكي غيرة وقسوة والدتها أيضاً..

صدمتني الابتسامة والعينان التي ترمقاني بتمعن بالغ

قال كاظم بأدب:

- الطعام جميل جداً.. سلمت يداك..

اندفعت الدماء متدفقة حارة إلى وجهي وأنا أنظر إلى هؤلاء الجمع من حولي.. لقد نسيت نفسي..

رنت ضحكة كاتيا الموسيقية عالياً وهي تهتف:

- سارة ستعلمني الكبسة منذ الغد.. وسأطبخها لكم بطريقة لبنانية..

ثم التفتت لي هامسة:

- هل تحتاجين مساعدة في غسل الأطباق؟..

نهض أخي فيصل بسرعة هاتفاً:

- هيا أذهبوا جميعاً وسنتفرغ أنا وسارة لغسل الأطباق، فلدي كلية غداً صباحاً..

(2)

صرخت كاتيا واللبنانية الأخرى التي تعمل معها:

- يا الله.. ما أجملك.. لقد غدوت فتاة أخرى..

زاد خجلي وارتباكي، أحسست بوجهي يشع حرارة، والعرق نفصد من جسدي بغزارة، لقد أقنعتني كاتيا منذ دخلت الصالون أن غير لون شعري الأسود إلى كستنائي فاتح بخصلات شقراء، وأكدت ي بأنني سأتغير كلياً.. وما أن وافقت حتى عكفت هي وإحدى لعاملات اللبنانيات وأخرى في صبغ شعري وتلوين وجهي أظافري..

قالت كاتيا وهي تتأملني بإعجاب:

- لن يصدق فيصل انك أنت سارة، سيظنك فتاة بريطانية فائقة الجمال..

وقفت أتأمل شعري ووجهي في المرآة الكبيرة في جزء من الصالون

قالت كاتيا أنها خصصته للمحجبات خاصة بنات العائلات الكبيرة اللاتي يحضرن عندها في الصيف..

لحظات وهالني ما رأيته في المرآة انعكاس لرجل.. التفت لأجدني وجهاً لوجه أمام روبير شقيق كاتيا اللبناني..

كدت أصرخ فزعاً.. بحثت يدي لا شعوريا عن حجابي ولم أجده أمامي.. سمعت روبير يقول ببطء:

ـ أنت جميلة جداً يا سارة دون حجاب.. حرام أن تخفي كل هذا الجمال..

دار رأسي، فكدت أسقط على الأرض.. أخيرا نطقت وبصعوبة:

ـ كاتيا.. أين حجابي؟

ابتسمت بخبث قائلة:

ـ ولماذا الحجاب.. أنت جميلة الجميلات..أليس كذلك روبير؟..

أسمع صوته دون أن أرى وجهه:

ـ جميلة فقط.. هذا شئ قليل.. لم أر أجمل منها في حياتي قط..

هنا صرخت بحدة:

ـ كاتيا.. أرجوك حجابي..Pleas

لا أدري كيف تسلمته منها ولا كيف ارتديته ولا كيف خرجت مع روبير في سيارته حديثة الطراز، نجوب شوارع لندن الراقية، لحظات وأحسست بأنني خارج الزمن وإنني لست أنا.. سارة ليست سارة، تلك الفتاة المتزمتة المتمسكة بعاداتها وتقاليدها وقبل كل شئ دينها وتعاليمه الصريحة.. كيف جرؤت؟ كيف غامرت؟ كيف استطعت أن أفعل ذلك؟ أنا التي لم أر شاباً في حياتي ولم أنفرد مع أي رجل غريب، حتى ابنيّ عمتي سعود وعلي لم أجلس معهما أبداً بمفردي..

عادت ذاكرتي إلى ذلك اليوم البعيد في بيت عمتي، حيث.. خرجت عمتي وبناتها وأصغر أولادها لزيارة بيت عمهم شقيق والدهم، ولأنه لا ناقة لي ولا جمل فلم أخرج معهم وبقيت وحدي في الحجرة التي تضمني مع ليلى، أحاول أن أذاكر، أو أقرأ مجلات أو أتصفح الصور التي تملأ أدراج ليلى..

لحظات وأحسست بمن يقتحم عليّ الحجرة.. يا إلهي.. أنه علي شقيق ليلى وابن عمتي.. لم يرني إلا لماماً ولم أتحدث معه سوى في الاجتماعات العائلية الكبيرة وبيني وبينه الغطاء السميك حتى أنه لا يرى من وجهي سوى عينيّ.. أسرعت التحف بدثار الفراش وأنا أهتف:

ـ أخرج يا علي فأنا وحيدة هنا..

لكنه اقترب قائلاً:

ـ أنا أهواك يا سارة منذ زمن طويل.. أنا..

ألقيت عليه الدثار وأسرعت هاربة خارج الحجرة وأنا أدرك تماماً أنه في حالة سكر وليس في وضعه الطبيعي أبداً..

لم أفكر.. تناولت أقرب عباءة على المشجب وخرجت خارج البيت.. دقائق وحضرت سيارة أجرة.. بعجلة واضطراب أعطيت السائق عنوان بيت أمي..

فتحت لي أمي الباب.. ثم سرعان ما تغير وجهها وانقلبت سحنتها حينما رأتني فهمت أنني غير مرغوب في وجودي..

قالت بصوت خافت:

ـ باقٍ أسبوع كامل على حضورك عندي..

تهدج صوتي وأنا أقول:

ـ لكن الظروف..

قاطعتني بنبرة عالية: لكن ماذا؟ ما ذنبي وظروفك؟

أحرقت الدموع عيني وأنا أقف هذا الموقف المخزي، إذلال واستجداء وتسول عاطفة.. الأمومة لا تباع ولا تشترى.. الأمومة إحساس وعطف وحنان دافق كيف تراني أمي في هذا الموقف البائس اليائس وتغلق أبواب رحمتها دوني.. كيف استطاعت الأنانية أن تخنق نداء الأمومة في صدرها إلى الأبد..

أقسرت نفسي على القول:

ـ تعاركت مع نوال..

سمعنا صوت زوجها يناديها.. قالت بهدوء لكن بقسوة:

ـ عودي وتصالحي أنت وابنة عمتك.. فعيد زواجي الليلة وأنا وزوجي نحتفل بالمناسبة..

ثم أغلقت الباب لأنكفئ على أول عتبة باكية أنتحب.. هذه أمي ترفضني فكيف ستقبل بي زوجة أبي؟ كانت الساعة التاسعة مساءً أي مأوى سيأوي متشردة مثلي حادثت ليلى عبر الهاتف المحمول قالت انهم في الطريق.. عدت مع أول سيارة أجرة إلى البيت وما أن وقفت أمام الباب حتى حضرت عمتي وبناتها.. تساءلت عمتي بصوت صاعق:

ـ أين كنت؟

بثبات أجبتها:

ـ أصبت باكتئاب وضيق فذهبت لدى أمي..

أسرعت داخلة ولم تنتظر حتى تخلع عباءتها فأمسكت بسماعة الهاتف لتحادث أمي.. طبعاً أمي لم تخبرها أنها طردتني فقد أجابت:

ـ يبدو أن سارة متضايقة من نوال.. حاولي أن تصلحي بينهما..

وأغلقت السماعة بسرعة لتعود إلى الزوج الموعود، وتهمل ملذات الكبد ولو نفقوا عطشاً في صحراء أمومتها القاحلة..

مضيت أبكي طوال الليل.. الموقف الناكر والجاحد والقاسي من أمي وذاك الموقف المخزي من ابن عمتي علي الذي تجرأ على تخطي التقاليد وتجاسر على الدين ونزع غلالة الحياء وحاول الاعتداء عليَّ لمجرد أنني بلا أب ولا أم.. يتيمة وأبواي على قيد الحياة.. قرب الفجر صارحت ليلى بكل شئ تهدئة لإلحاحها وتفريغاً لشحنات الغضب داخلي، وحماية لي مما قد يتكرر مستقبلاً.. ولم يتكرر بعدها أبداً، لأن على ألقي بالسجن بعد ذلك الموقف بأسبوع في قضية حيازة وتعاطي مخدرات..

ـ ما رأيك بفنجان قهوة؟

التفت فجأة لأجد رفيقي في السيارة ينظر لي وعلى وجهه ابتسامة محيرة.. لا أدري هل كانت شفقة أم سخرية أم تعجب..

حاولت طرد أفكاري بصعوبة وأنا أهتف بشجاعة لم أعهدها في نفسي:

ـ كلا روبير ليس الآن.. أريد الذهاب إلى مكتبة عربية إن أمكن..

دلفنا مكتبة عربية زاخرة بالكتب المتنوعة.. استقبلتني ابتسامات ودودة رغم تعدد الوجوه.. أمضيت ساعة غرقت فيها بين تلال الكتب، نسيت خلالها روبير وأين أنا بالضبط؟ دهشت لجرأة الكتب الموجودة في المكتبة وخطورتها إنها تتماس مع كل شئ في الدنيا دون قيود ومحظورات وموانع.. في الدين والجنس والسياسة وشتى العلوم المتنوعة..

أفقت على صوت شديد القرب مني وأنا أتصفح رواية لمحمد شكري

إنه كاتب مغربي معروف لكن رواياته..

أردف بصوت هامس.. شديدة البذاءة..

ألقيت الرواية من يدي بسرعة وكأنني أتخلص من نوع من أنواع المخدرات وابتعدت عن روبير الذي تابع قائلاً:

ـ أعتقد أن رواياته ممنوعة عندكم في السعودية.. لمَ لا تجربين وتقرأين له لن تخسري شيئاً.. بل سيشكل إضافة ثقافية لديك رغم بذاءته..

كنت أتمنى لو أن أخي فيصل هو مرافقي، لكنت ابتعت ما أريد من كتب بحرية تامة دون أن أشعر بالخجل والحياء.. وقد قرأت مقاطع من هذه الرواية شدتني إلى أجوائها لكن.. معرفة روبير محتواها يلغيها حتماً من اختياراتي..

اخترت روايتين وكتاب عن الرحلات.. حاول روبير أن يدفع بدلاً مني، لكنني رفضت بشدة وأخرجت ما معي من جنيهات أعطاني إياها أخي.. وفي السيارة هتف روبير:

ـ سارة.. سأريك شيئاً مذهلاً بالتأكيد فيصل لم يرافقك إليه.. ساحة Leicester square الليستر سكوير فيها العجب..

أوقف السيارة في مكان بعيد، ثم دخلنا في شارع كبير مليء بالناس وبعضهم تجمع على شكل حلقات، دعاني للاقتراب من هذا الجمع، وجدنا شخصاً طلى جسده بالكامل باللون الفسفوري، وتجمد فوق خشبة وأمامه وعاء لجمع النقود، وعندما يلقي له أحد بقطعة نقد يتحرك بشكل آلي ليشكر المتبرع..

وفي مجموعة أخرى هناك موسيقي وضع آلة العزف على كتفه وأوصلها بآلة كهربائية مضخمة للصوت وينشد الأغاني ثم يصفق له الناس ويضعون له النقود في الوعاء المخصص..

ابتسم روبير في وجهي قائلاً: هاه ما رأيك.. أليس شيئاً مسلياً؟.. هيا لنجلس في هذا المقهى أم تفضلين تناول الغداء؟..

رفضت بهدوء.. قلت له وجبة خفيفة تكفي لأني أرغب في العودة إلى المنزل.. في المقهى المزدحم بالناس جلسنا في مقعدين متقابلين، وعاودني الخجل من جديد.. كيف أجلس مع رجل أجنبي لا يمت لي بصلة وفي مكان عام أمام كل البشر..

صرخ صوت في أعماقي وهو يخرج لسانه نكاية بكل من كان

ينظر لي كبضاعة معلبة قابلة للتلف تُسلم من يد ليد كي لا تقع عليها عين غريب. .ما رأيكن؟ عمتي. . زوجة أبي. . أمي وأمي وأمي!!

على رؤوس الأشهاد أجلس وإلى جانبي رجل ليس أخي ولا زوجي ولا أبي بل لم أعرفه إلا منذ ساعات فقط لا غير. .

ـ ماذا تفضلين؟. . القائمة أمامك على الطاولة. .

طلبت عصير برتقال وشطيرة دجاج. . وطلب هو بيرة ونقانق. .

ضايقني الصمت الذي حل بيننا رفيقاً. . أتناول قضمات من شطيرتي وأتطلع إلى المارة من الجنسين، أحاول أن أهرب من نظراته، بل أخشى النظر إلى وجهه. . قال أخيراً:

ـ سارة. . ما رأيك. . بعد يومين يقام احتفال شعبي في «الهايدبارك» يطلق عليه Party in the park فرصة لك لتحضريه لأنه يقام سنوياً وتغني فيه فرق إنجليزية وعالمية وستكونين سعيدة جداً. . هل زرت حديقة الهايدبارك من قبل؟

هززت رأسي نفياً دون أن أتكلف ترف الرد. .

تابع مغتبطاً:

ـ يا إلهي. . إذن لم تري الخطب العصماء التي تقام في حديقة الهايدبارك. . حقيقة فيصل مقصر معك. . لكن لا عليك أنا موجود. .

هل ممكن أن يحل شخص ما مكان شخص آخر؟. . تساءلت داخلي وأنا أتذكر خالتي عائشة شقيقة والدتي ومتضادة معها في كل شيء، وجهها خال من الجمال لكنها مليئة بالحنان والأمومة الطاغية، بكيت أمامها ذات يوم وهي في زيارتنا حينما سألتني عن أحوالي:

ألحت في السؤال. . شرقت بدمعي وطفح ألمي وأنا أجيبها بأنني ضائعة. . جذبتني لصدرها تربت على شعري بحنان وهي تهمس:

ـ ما بك يا حبيبتي؟ ماذا يشقيك يا سارة؟. .

أجبتها باكية:

ـ أشعر بأنني بلا أم. . بلا حنان ولا رعاية. .

هتفت بسرعة:

ـ اعتبريني أماً لك. . نعم يا سارة فالخالة هي أم أخرى. . أنك محظوظة فلديك أمان. . هيا أحكي لي عمّ يضايقك. .

بكيت طويلاً. . أبكتني نبرة الحنان في صوتها ولمساتها الرقيقة الحانية أخيراً رفعت رأسي إليها متسائلة:

ـ أنت أم بمعنى الكلمة. . لماذا لم يرزقك الله بأطفال؟

وكأنني وجهت لها طعنة نجلاء في صدرها. . شحب وجهها فجأة وترقرقت الدموع في عينيها. . أجابتني من وراء غلالة دمع شفافة:

ـ هذه إرادة الله ولا راد لمشيئته. .

ـ هل تنوين قضاء النهار كله في هذا المقهى. . هل أعجبك لهذه الدرجة؟

ابتسمت مرتبكة لروبير الذي يحدق في وجهي وتأبطت حقيبتي عائدة معه إلى البيت. .

(3)

عاودتني النوبة ليلة البارحة.. انقضت عليّ بقسوة لتمزقني إرباً إرباً، أحاول التنفس فلا أستطيع، أفتح فاهي كغريق عانقه (ابتلعه) الموج، فلا هو ابتلعه ولا استطاع له دفعاً، نبضات قلبي المجنونة تتصاعد وتتصاعد، أشعر بقلبي يقفز وكأنه راقص أفريقي يرقص على دقات طبول مسعورة، الطفلة تصرخ بألم وعمق ووحشية، الصراخ يخترقني يفتتني ويدميني، جسدي يهتز ويرتعش ولا قدرة لي على السيطرة عليه.. تجتذبني الدوامة الصاعقة لأغيب في دهاليزها الملتوية وأغيب وأغيب..

أفقت على نفسي وقد إبتللت تماماً والعرق ينضح من جسدي بغزارة، وكأنني قد أمضيت ساعة كاملة في الركض المتواصل.. كانت عقارب الساعة تشير إلى الواحدة صباحاً، مشيت على أطراف أصابعي إلى الحمام لأبدل ملابسي، شدهت بل صعقت.. أصوات ضحكات مكتومة وهمسات وأشياء أخرى تنبعث من حجرة فيصل.. اقتربت من الحجرة بهدوء لأتأكد من جدية الأصوات أم أنني لا أزال في نوبة ورعشات المرض.. وتأكدت أنه شقيقي فيصل ومعه امرأة ما.. حدسي يقول إنها كاتيا بعينها..

عدت سريعاً إلى حجرتي كيلا يشعر أخي باكتشافي أمره.. هو حر، ولن أكون عبئاً ثقيلاً عليه.. فليصادق فتيات ويأتي بهن إلى شقته

ويعبث معهن ما شاء له العبث.. إنه رجل وحر، وكفاه ما لقي من عذاب ويتم طوال حياته الكئيبة

لكن ماذا عني؟.. ماذا عن روبير؟ كيف خرجت معه بهذه السهولة وأكلت وشربت وتسوقت برفقته؟ وأنا لم أعتد طوال حياتي إلا على رفقة النساء.. كيف تم هذا الأمر بمباركة أخي وبتشجيعه؟

وجدت نفسي أفكر في روبير.. إنه شاب وسيم، بل جميل، أبيض البشرة، عيناه بحيرتان من عسل، وهيئته بصفة عامة لا تختلف عن الإنجليز.. تذكرت نظراته لي، فاحمر وجهي بشدة ونسيت مرضي.. ترى هل هو معجب بي؟

وضعت لفيصل الفطور وأنا أتحاشى النظر إلى وجهه ولم يبد أنه حفل بي أو بنظراتي.. ابتسم فجأة وهو يسأل:

ـ سارة.. من أين أحضرتي الكرواسان؟

أجبته دون أن أنظر إليه:

ـ ابتعته أمس مع روبير من مقهى تناولنا فيه وجبة.. أعجبني فاشتريته..

أخذ منه قضمات سريعة مع كوب الشاي وهو يقول:

ـ أنه لذيذ جداً.. وهل كنت سعيدة أمس مع روبير؟..

ضحكت وأنا أقول:

ـ أنه لطيف..

هتف قائلاً وهو يقلب الجريدة بين يديه:

ـ أنه شاب مثقف واسع الاطلاع وذكي وستسعدين برفقته..

نكست رأسي مذهولة.. عامان فقط تتغير فيهما بهذا الشكل يا فيصل.. عامان فقط تتحول فيهما من رجل قبلي متعصب محافظ متشبث بالعادات والتقاليد إلى رجل متحرر.. منطلق.. وكأنك لا تنتمي لتلك الصحراء القاحلة التي أنجبتك ورمالها القاسية التي نحتت معالم وجهك والظمأ الذي يجفف عروقك ويخط بجفافه معالم تفكيرك وصرامتك البائدة وحشمتك النافقة ونخوتك المفقودة.. أقول أشتاقهما.. أحن إلى القسوة الشامخة ورائحة الرجولة العابقة بالهيل السعودي الأصيل.. هل أكون ماسوشية وأهوى الاضطهاد والتعذيب والحجر؟.. أم أن نفسي التي عاشت التقاليد العريقة الراسخة تأبى الضياع والهوان حتى ولو تشكلت بأسماء براقة زاهية من الحرية والحقوق والمساواة إلى نهاية المعزوفة التي تتغنى بها المراهقات تفكيراً وسلوكاً؟..

رفعت رأسي ببطء وأنا أمحو تعابير الخذلان عن صفحات وجهي:

ـ فيصل.. أريد أن تعرضني على دكتور..

ألقى الجريدة فجأة وهو ينظر لي وكأنه يتأكد من أنني لم أصب إصابة بليغة:

ـ هل أنت مريضة يا سارة؟..

ابتلعت ريقي وأنا أقول:

ـ أنه ذات المرض الذي حدثوك عنه بالتأكيد.. أمي أوأبي أو

عمتي.. إنني أعاني نفسياً يا فيصل ولا أستشعر طعم الحياة من حولي..

هالني التعبير الذي ارتسم على وجهه الطيب وندمت على بوحي.. ليتني لم أعلمه بعذابي.. ليتني قتلت نفسي ألف مرة قبل أن تفوه بحرف.. ما ذنبه ليتألم؟ ليحمل همي إضافة لهمومه الكثيرة ومآسيه وعذاباته اليومية، كفاه أنه شريد في بلاد الغربة يعاني اليتم والعوز والمرض.. ثلاثة إن اجتمعت في إنسان واحد تفتت إلى أشلاء فكيف به.. هو.. فيصل؟..

تابعت بسرعة:

ـ فيصل.. لا تحزن هكذا.. إنني والحمد لله أسيطر على مرضي كثيراً وهو ليس سيئاً بهذا الحد لولا النوبات!!

انتشل عينيه من بحار الألم وأغوار الظلمات ليقول متنهداً:

ـ أعرف يا سارة إنه مرض الاكتئاب وقد مررت به سابقا.. لكن اطمئني يوجد هنا طبيب ممتاز سآخذ لك موعداً في أقرب فرصة إن شاء الله.. لا تقلقي يا سارة..

عكست عيناي نظرات الامتنان والمحبة وأنا أهمس:

ـ لا أدري كيف أعبر لك عن شكري.. ما رأيك أطبخ لك اليوم طبق جريش مخصوصاً بالخلطة الخاصة..

ابتسم فيصل قائلاً:

ـ ليكن غداً يا سارة.. اليوم أنا مشغول ولن أعود للغداء..

أسرع بالرد على هاتفه المتنقل ليقول بعد لحظات:

ـ ما رأيك.. روبير يعرض عليك نزهة مدهشة سترين فيها العجائب؟

نكست رأسي كيلا يرى عينيّ وتعبير الهلع المرسوم فيهما بوضوح.. أهكذا يا فيصل تصبح إنجليزياً أكثر من الإنجليز أنفسهم؟..

أردف بعد هنيهة صمت:

ـ ما رأيك يا سارة؟.. أنا أعرف روبير جيداً؛ فهو أبو المفاجآت ستسعدين جداً برفقته.. ليتني متفرغ يا سارة، لكنت أريتك لندن كلها شارعاً شارعاً، لكن الحمد لله الذي عوضنا بروبير ثم إنك ستنسين الاكتئاب ولو قليلاً..

هززت رأسي ببطء موافقة وأنا لا أدري أكان ما أفعله صواباً أم خطأً؟..عاد فيصل للاتصال بروبير.. ثم قال لي استعدي خلال ساعة سيكون بانتظارك.. ثم أعطاني مبلغاً من المال وهو يبتسم قائلاً:

ـ روبير قال لي أنك ستشترين كل شئ تشاهدينه..

حملت الأطباق والأكواب إلى المطبخ، غسلتهم بسرعة ثم توجهت لحجرة أخي فيصل، وهالني ما رأيت.. منفضة مليئة بأعقاب السجائر.. زجاجة فارغة وكأسان زجاجيان، أدركت من شكل الزجاجة ولونها محتواها، فهي لابد نوع من أنواع المسكرات، كاتيا كانت هنا ليلة البارحة بالتأكيد.. آثارها في كل ركن من أركان الحجرة، أحمر شفاهها على أحد الكأسين ومطبوع على بقايا

السجائر، قميص نوم حريري وردي اللون ملقى بفوضى على الأرض وقطعة ملابس داخلية أخرى أقراط على المنضدة مع خاتم الماس الأحمر وردي كبير..

تساءلت بفزع:

ـ هل؟ أيكون فيصل متزوجاً من كاتيا في السر؟ أم إنها ترافقه بحسب.. لكن.. انها عربية ولبنانية وليست إنجليزية..

تنبعث من أعماقي قهقهة قوية وهل الفتيات العربيات جلهن أضلات متدينات؟.. وكيف أنسى زميلتي في الكلية.. سعاد.. علاقاتها المتعددة بالشباب وتهتكها الواضح، ولولوة أيضاً التي كتشف أهلها إنها تخرج من الكلية برفقة أحد الشباب ومن ثم يوصلها لى المنزل، فحدثت فضيحة مدوية ومن ثم انتهى الأمر بفصلها من لكلية واختفت دون عودة.. قيل إنها تزوجت من رجل عجوز سكنت في أحد أحياء الرياض الراقية.

وإيمان.. ومن ينسى إيمان؟.. تلك الجميلة الشقراء الناتجة من زواج سعودي بسويدية.. سعودية بالاسم فقط، أما الشكل والتصرفات والشخصية فهي لا تمت للسعودية بصلة، تزوجت في المرحلة الثانوية وطلقت في المرحلة الجامعية ثم انطلقت في علاقات لا تحصى ولا تعد مع شرائح مختلفة من المجتمع، شباب وشيوخ وفتيان، أصبحت محط أنظار الفتيات بالكلية ومحور أحاديثهن بميوعتها ودلالها وحريتها الزائدة..

كنت أخافها وأخجل منها.. فعندما تطلب مني إعارتها كتاباً أو مرجعاً أو حتى قلم أعطيه لها بسرعة دون أي نقاش وأمضي صامتة لا

ألوي على شئ، وكأنني أخشى أن أحمل منها شيئاً ما.. شيئاً معدياً أو ميكروباً أو أحدى الخطايا.. ولا أنسى أبداً ذلك الموقف المخزي معها كنت أجلس وإحدى صديقاتي في كافتيريا الكلية، فحضرت إيمان بقامتها الطويلة وجمالها الخلاب، جلست دون سلام.. بدأت تحكي عن فلان الفلاني الذي تعرفت إليه قبل أيام في مركز العقارية التجاري في العليا، وكيف أنه كريم ومرح وخفيف الروح ثم وجهت إلي الكلام مباشرة..

ـ ما رأيك سارة.. هل ترافقيني للتعرف إليه؟

وقتها صعدت الدماء ساخنة إلى وجهي وأحسست بشئ كالنار تندلع في أعماقي.. فطفرت الدموع من عيني قرفاً وخجلاً واشمئزازاً.. ثم بكيت بحرارة.. همست إيمان بهلع:

ـ ما بك.. سارة.. إنني أهزل معك فقط لا غير..

ثم مضت مسرعة لا تلتفت للوراء.. ولم أتوقف عن البكاء طوال اليوم وأنا أدرك جيداً بأنها جادة في عرضها ذاك..

وقع نظري على الساعة، فصرخت هلعاً إنها التاسعة لم يبق سوى دقائق ويحضر روبير، تركت حجرة فيصل كما هي، لم أمس فيها شيئا كيلا يشعر بدخولي.. اغتسلت ووقفت حائرة أمام ملابسي القليلة.. ماذا أرتدي اليوم؟ وهل تهم ثيابي وأنا محجبة؟! وهل يهمني أن أبدو جميلة في عيني روبير؟.. بعد دقائق حيرة ارتديت معطفاً طويلاً من الجينز وبنطالاً مزيناً بنقوش زرقاء، ثم ارتديت حجابي الأزرق بعد أن وضعت لمسات بسيطة من الوردي على شفاهي الشاحبة..

استقبلني بابتسامة عريضة وبنظرة ثاقبة فيها بريق هتف:

ـ صباح الخير.. تبدين جميلة جداً هذا اليوم..

احتقن وجهي من شدة الخجل، تمتمت ببعض كلمات لم أتبينها وأنا أقفز إلى جواره بالسيارة.. اندهشت لجرأتي.. هل هذه هي أنا؟ تلك الفتاة القادمة من حي السلام بالرياض، سكني الأساسي عند عمتي والتي يجاورها أبي على بعد شارعين وسكني المؤقت في الملز عند أمي.. رباه.. أهكذا أقفز برشاقة وحيدة إلى جوار رجل غريب.. وهناك في ذلك الحي العتيق أخطر بعباءتي السوداء أشدها من حولي، وكأن أحدا سينتزعها مني ثم أمسك بمقبض سيارة ابن عمتي بشدة ليركبها الآخرون قبلي ثم أدخل بهدوء شديد وأنا أغطي يدي بطرف عباءتي كيلا يلمحهما ابن عمتي.. عجباً.. سنوات طويلة لم ير مني ابناء عمتي سعود وعلي إلا عينيّ واطراف أصابعي!!..

بضحكة واسعة وبعينين ماكرتين تتلألأن بالبريق التفت إلى روبير قائلاً:

ـ ما رأيك سارة؟.. كارنابي ستريت.. ستنسين حياتك كلها.. إنه شارع الغرائب والعجائب..

وافقته بهزة من رأسي.. وصوت في أعماقي يهتف:

(حي السلام يناديك يا سارة وليس كارنابي ستريت عودي إلى حقيقتك وأصلك ومنبتك)

أخرست صوت الأعماق ودفنت خجلي واشمئزازي ومضيت أتنزه مع روبير في هذا الحي الجميل في يوم غائم بارد من أيام لندن الرائعة.. اشتريت من بعض المحلات الكرنفالية لعباً مضحكة.. وقع

نظري على سدادة بانيو في نهاية سلسلتها لعبة على شكل خنزيرة عارية تبتسم بخجل، لم أقاوم طويلا واشتريتها رغم ثمنها الباهظ البالغ 20 جنيهاً إسترلينياً.. ابتعت قمصاناً بيضاء مرسوماً عليها الباص الأحمر الشهير في لندن.. قال لي روبير:

- ان صاحب المحل يقول لك أنه مستعد لكتابة أي شئ ترغبين بكتابته أو رسمه باستثناء ما يمس صاحبة الجلالة الملكة..

ابتسمت وأنا أقول لروبير:

- هل هذه بلد الحرية التي يحكون عنها؟

ضحك قائلاً:

- إنها القوانين تحكمنا في كل مكان وزمان سواء في أوروبا أو أمريكا أو في دول العالم الثالث..

فكرت أن أفاجئ ليلي بقميص أكتب عليه اسمها إلى جواره رسم لفتاة ويكتب عليه ملكة جمال السعودية ليلى.. نفذت فكرتي فوراً..

قال روبير بشكل مباشر أربكني.. هل ليلى أجمل منك؟

استعدت صورة ليلي في خيالي ولم أر سوى الحنان الطاغي والمحبة الآسرة..

قلت بسرعة ودون تفكير: نعم هي جميلة..

حدقت بحيرتا العسل في عيني وهو يقول بحرارة:

- لم أر فتاة سعودية أجمل منك، بل ولا حتى لبنانية، لذلك فاسمحي لي أن أقتبس فكرتك..

نبض قلبي بشدة وأحسست بدوار غريب.. تماسكت وأنا تحاشى نظراته، بعد لحظات فوجئت به يقدم لي قميصاً مكتوباً عليه بالإنجليزية «سارة أجمل فتاة عربية» طويته بخجل ووضعته داخل لكيس مع قميص ليلى.. وتوجهنا إلى مطعم هذه المرة وليس مقهى.. همس لي:

- ستتذوقين أروع بيتزا إيطالية في لندن..

فعلاً كانت البيتزا رائعة.. لكن شعوراً ما بدأ ينمو داخلي أرعبني وأذهلني.. كنت سعيدة مع روبير، بل جذلى ومنتشية بإحساس طاغ بأنني مرغوبة ومحبوبة وبأن هذا الشاب الجالس معي يبثني نظراته الولهى كل حين متيم بي، لقد أحسست بكياني ولمست وجودي متكاملاً إلى جواره وتناسيت حياتي ردحاً من الزمن لم أكن فيه سوى من سقط المتاع..

ويحي لقد أحببت روبير..

(4)

جلست بمواجهة الطبيب الإنجليزي «د. ستيوارت» بشعره الأبيض ونظراته النفاذة وتجاعيد وجهه العميقة.. قال موجهاً إلي العبارة:

ـ آنسة مبارك.. هل تعرفين التخاطب باللغة الإنجليزية أم نستعين بشقيقك فيصل ليقوم بالترجمة..؟

أجبته باسمة: كلا.. إنني أفهم الإنجليزية وقد تعلمتها في بلدي، ولكن الأيام التي قضيتها هنا صقلت المعرفة..

رد الطبيب منقلاً النظر بيننا:

ـ إذن.. هل ينتظر فيصل في الخارج؟..

نهض فيصل بسرعة قائلاً:

ـ نعم.. يا دكتور.. فلأنتظر في الخارج لتتحدث سارة دون أية قيود..

قال الطبيب مباشرة وعيناه تنفذان إلى أعماقي..

ـ آنسة مبارك ما رأيك أن نتحدث قليلاً.. أخبريني عن مشكلتك..

تلاشى شعوري بالارتياح وأحسست بضيق نفسي مفاجئ.. جاهدت كثيراً لأقول:

ـ كل ما يهمني هو النوبات الليلية.. أو.. هي ليست ليلية غالباً بل كثيراً ما تحدث في النهار.. لكنها ترعبني إذا حدثت ليلاً..

صمت مشجعا وتابعت بدوري:

ـ أشعر بالاختناق.. والخوف.. وضربات القلب المزعجة.. وصوت قوي يصرخ في رأسي و.. و..

لم أستطع تكملة العبارة.. بحثت عن مرادف للكلمة العربية بداخلي إلى اللغة الإنجليزية ولم أجد.. فصمت فجأة..

لذهولي أدرك الطبيب مأساتي.. ابتسم بشفقة:

ـ هل نستدعي فيصل؟..

أومأت برأسي موافقة وأنا ألهث.. لكن.. كيف أقذف حمم البركان الذي يصهرني أمام فيصل، كيف يطاوعني قلبي أن يعتصر الحزن أخي على مستودعات الألم وذخيرة الوجع داخل نفسي المثقلة بالهموم، كيف يراني مهزومة مسحوقة في مهاوي الردى، وهو المعذب طفلاً والحزين صبياً والمريض شاباً.. كيف؟

دخل فيصل خائفاً مضطرب النفس.. رفعت رأسي مبتسمة وقلت بالعربية لأبدد قلقه الوليد:

ـ فيصل لم أستطع مواصلة الحديث باللغة الانجليزية..

لم يرد على ابتسامتي وجلس متردداً وهو يقول بهدوء:

ـ ماذا أقول للطبيب يا سارة؟

سيطرت على نفسي بصعوبة وأنا أهتف:

ـ الحزن واليأس والبكاء لا يهمني.. كل ما يرعبني هي تلك النوبات المتكررة.. كيف أشرحها لك؟.. أشعر بالموت يقترب مني في لحظة واحدة، فأخاف خوفاً شديداً لترتجف أوصالي وأختنق وأجاهد لأتنفس كما أن قلبي يخفق بعنف شديد مرعب.

تكلم فيصل مع الطبيب.. تابعت بعد تردد كبير.. إن الأمر محرج لكن لابد مما ليس منه بد..

ـ فيصل!.. أثناء النوبة يخرج مني عرق غزير جداً.. أيضاً.. أيضاً أجد أحيانا بللاً في ثيابي..

بتعبير غريب مرسوم في عينيه سألني فيصل:

ـ سارة.. تقصدين.. انك.. في تلك الحالة لا تستطيعين التحكم بوظائف جسدك الطبيعية كالإدرار..

هززت برأسي دون أن أنظر إليه.. سمعته يتحدث إلى الطبيب، ثم قال:

ـ الطبيب يسألك هل تسمعين أصواتاً أو ترين أشخاصاً أثناء تلك النوبات؟..

بصعوبة أجتر الكلمات:

ـ نعم.. أرى طفلة صغيرة عارية تصرخ صرخات جنونية هستيرية..

تحدث الطبيب مطولاً مع فيصل وكتب لي بضعة أدوية..

ثم وقف مبتسماً وهو يقول بلغة مفهومة:

ـ لا تقلقي آنسة مبارك.. مرضك بسيط وستشفين قريباً..

هتفت من أعماقي إن شاء الله..

أعطاني فيصل الأدوية وهو يشرح لي طريقة الاستعمال دون أن تغادر عيناه نظرة الشفقة المرة:

ـ وهذا zanx حبة واحدة صباحاً ومساءاً لمدة شهر كامل، ثم تقللين الجرعة بشكل تدريجي نصف حبة صباحاً ونصف حبة مساء لمدة أسبوعين ثم ربع حبة صباحاً وربع حبة مساء لمدة أسبوعين أيضاً، ثم ربع حبة فقط يومياً لمدة أسبوع، ثم تتوقفين عن تناول الدواء دون أية أعراض جانبية مؤذية.. وهذا Librium تأخذين..

قاطعته:

ـ فيصل.. هل أنت حزين من أجلي؟..

التمعت عيناه بالدموع وهز كتفيه فهوى قلبي بين أضلعي.. رباه ارحمنا.. لا أريد أن أزيد من أحزان أخي.. وقد كفته الحياة ووفته، فمضى يجد في كل طريق ألماً وليداً وفي كل بلد جديد تنطلق عصافير الأحزان..

أردفت بصوت أردت له أن يكون مرحاً ضاحكاً:

ـ أنا لست حزينة يا فيصل.. بل على العكس هذه النوبات تشعرني بقيمة الحياة ثم إنها لا تزورني كثيراً.. فأنا أفضل من غيري بمراحل.. لكن هل علاجي هو بالأدوية فقط؟..

ابتسم فيصل باضطراب وهو يقول:

- بما إنك لا تعرفين اللغة جيداً اقترح الطبيب أن تتناولي الأدوية خلال المرحلة القادمة، بالإضافة لتعلمك اللغة الإنجليزية ثم تبدأين معه الجلسات..

تنهدت قائلة:

- لا أملك وقتاً كثيراً في لندن يا فيصل.. لكنني متفائلة بأن الدواء سيفيدني إن شاء الله على الأقل يقلل النوبات..

وكأنه لم يسمعني تابع فيصل:

- وهناك أمر مهم بالنسبة للنوبات العصبية التي تعاودك.. قال الدكتور أن السبب الرئيسي للتعب هو كمية الأكسجين الزائدة في مجرى الدم فإذا أمكننا تخفيف مستوى الأكسجين قدر الإمكان أمكنك أن تسيطري على النوبة.. وقد اقترح علينا فكرة طريفة بالتأكيد طبقها كثير من المرضى من قبل، وهي إذا أتتك النوبة ضعي كيساً من الورق حول أنفك وفمك وتنفسي بشكل طبيعي.. فسيتباطأ تنفسك شيئاً فشيئاً مع وجود ثاني أكسيد الكربون داخل كيس الورق.. بعد ذلك تناولي أية مادة سكرية أو شراب حلو المذاق وبذلك تسيطرين على نفسك..

داخلني شعور بالفرح.. هل فعلا سأتمكن من السيطرة على نفسي بهذه الطريقة إنها فكرة جيدة وطريقة رائعة.. لكن هل سأشفي؟

اخترقني صوت فيصل وكأنه قد قرأ أفكاري..

- ستشفين إن شاء الله قريباً يا سارة وسيكون مرضك ذكرى مضحكة تتذكرينها وأنت مبتسمة..

دوى هاتف في أعماقي.. وهل ستشفى أنت أيضاً يا فيصل من مرضك المجهول؟ وكأنني تمنيت أن يقرأ أفكاري مرة أخرى ليرد علي ويريحني من القلق المستمر عليه.. لكنه أردف:

- بالمناسبة كاتيا تدعونا لعيد ميلادها بعد غد في منزل العائلة في كريكلوود، وقد أصرت على حضورك.. ما رأيك؟..

هززت رأسي بنعم ثم تذكرت شيئاً فاستدركت بعد لحظة:

- هم يقدمون هدايا في عيد الميلاد فماذا نقدم نحن لكاتيا؟

بعد ضحكة قصيرة أجاب:

- كل إنسان يتحدث عن نفسه، أنا ابتعت لها الهدية منذ أيام، لأنني أعرف يوم ميلادها السنوي.. أما أنت.. غداً أصطحبك إلى مركز كليبورن فتشترين لها هدية على ذوقك..

قلت بصوت أقرب للهمس:

- هل تقاضى منك الطبيب مبلغاً كبيراً يا فيصل؟

ابتسم قائلاً:

- المهم أن تشفي يا سارة أما النقود فلا أقيم لها أي وزن..

تذكرت تلك الليلة الكئيبة وقد عدت تواً لبيت عمتي من بيت أبي محطمة ضائعة وقد تجرعت الهوان والإذلال على يد زوجة أبي التي ودعتني بعبارتها التي لن أنساها ما حييت:

- لن تتزوجي أبداً.. فمن يرغب بك وأنت متجهمة كئيبة دائماً؟..

أجبتها بخنوع:

- كيف اضحك دون سبب.. لا يوجد سبب للمرح، البيت صامت وهادئ..

ردت بغضب:

- ناكرة الجميل.. تتنكرين للأيام التي قضيتها في بيتنا وتقولين إننا صامتون كئيبون.. إننا لم نعرف الصمت إلا حينما رأيناك..

أنقذني أبي من براثنها بصعوبة.. دائما تودعني بسيل من الشتائم والإهانات ولا أدري ما السبب.. سألت ليلى ذات مرة فقالت: ربما لأنها تود أن تطبع العذاب في ذاكرتك فلا تعودين لهم أبداً بعد ذلك..

وهل أنا مخيرة يا ليلى.. إنني إذا لم أعد إليهم فستلقيني أمي في الشارع، أما عمتي فستكون أحسن حالاً من أمي فتضعني ربما في دار لرعاية الأيتام.. أهناك أكثر بؤسا من هذا يا ليلى؟

وجدت العشاء قد رفع في بيت عمتي.. وقد كنت جائعة، فخجلت أن أطلب طعاماً، تسامرت مع ليلى قليلاً قبل أن ننام، نامت هي وبقيت وحدي أتجرع غصص العذاب.. أتذكر وجه زوجة أبي الكالح وحقدها الأسود علي، ثم استقبال عمتي الفاتر لي وكأنني متسولة أطلبها صدقة، وبدلاً من أن أعتصر أحزاني دموعاً، وجدت النوبة تكتسحني بشدة وتعصف بي عصفاً.. دقائق واستنجدت بليلى التي أصرت على إبلاغ والدتها..

وفي الطريق إلى المستشفى كانت السيارة تنهب شوارع الرياض في صمت وقلق.

في المستوصف الأهلي الذي نقلوني إليه أهتم بي الأطباء ووضعوا على صدري جهاز كشف نبضات القلب مع كشوفات مختلفة..

سمعت ابن عمتي سعود يطلب من والدته نقوداً.. وهي تصرخ بحدة:

- 150.. 150 ريالاً لو عرضتها هي بمجملها للبيع لن تأتي لي بنصف هذا المبلغ، ولو أطلبه من والدها لتعلل بضيق ذات اليد والديون وهو يصرف على زوجته مئات الألوف من الريالات..

ساعدتني ليلى على ركوب السيارة وجلست جانبي تحيطني بذراعيها وكأنها تخشى على مشاعري من كلمات والدتها النارية..

تنفست الأمومة من أعطاف ليلى وهي تربت على كتفي بحنان.. تضافر الحنان مع الجوع والتعب النفسي، فتسلل الخدر إلى جسدي الواهن ليوقظني صوت عمتي الحاد:

- أنت في بيتي على العين والرأس مع بناتي.. لكن مستشفيات خاصة ومصاريف علاج هذا غير وارد أبداً..

ثم أضافت بنعومة الحية:

- أنا يا ابنتي لا مورد لي.. أبوك يعمل وله راتب شهري، وأمك متزوجة برجل مقتدر.. أما أنا.. فتعرفين أحوالي.. زوجي متقاعد ولا دخل لنا غير أشياء بسيطة من راتب التقاعد وما أبيعه من حوائج للنساء..

صرت أتنفس بصعوبة ووضعت ليلى يدها على فمها، لا أدري أكانت تكتم صرخة احتجاج أم خجلاً واشمئزازاً من هذا الموقف البائس..

تابعت بقوة شخصيتها المعروفة:

- إن 150 ريالاً ليست بالمبلغ الهين.. إنها تشتري لي ولأولادي ولك طعاماً لمدة أسبوع، فكيف أصرفها في دقيقة واحدة على أشياء تافهة..

أقسم بالله انني لولا الحياء وخشية الفضيحة لرفضت أن أدفع المبلغ لهؤلاء النصابين الذين وضعوك على السرير ربع ساعة بمبلغ 150 ريالاً، وكأنهم لا يعرفون ظروفنا و..

وجاشت نفسي بجروحها الدفينة وتمزق آخر رابط يربطني بالصمت والهدوء وابتلاع الألم.. طفحت الأحزان دموعا كطعنات السكاكين تمزقني قبل أن تهطل على خدي بائسة مؤلمة وجارحة.. وفاض اليأس نشيجاً يكاد أن يشق صدري قبل أن يأخذ طريقه خارجاً.. وتفجر العذاب حاداً يخرج من فمي مراً حارقاً رغم جوعي وفراغ معدتي..

جزعت ليلى وجعلت عباءتها وعاء يستقبل مرارة نفسي وحرقة ضلوعي والقيء الذي لا سيطرة لي عليه..

سمعت صوت ليلى ضعيفاً متهافتاً:

- أمي.. سارة لا زالت مريضة..

هتفت الأم مستنكرة:

- أتريدين العودة لهؤلاء النصابين مرة أخرى ليسرقوا من أموالنا كفي ضياع الـ 150 ريالاً..

وقتها هتف صوت داخلي «سأردها لك يا عمتي 150 ألفاً حين تزوج لكن كفى إذلالاً»..

التفت لفيصل باسمة.. وجدته يحدق بي متألماً:

- علامَ الدموع يا سارة؟..

اتسعت ابتسامتي وأنا أقول:

- إنني فرحة بك يا فيصل.. فرحة أن لي أخاً تهمه سعادتي وصحتي..

ابتسم فيصل بدوره وهو يقول:

- وهل لنا أحد يا سارة غير بعضنا؟..

(5)

دخلت دار كاتيا وأنا مذعورة وجلة أقبض ذراع أخي فيصل بقوة، وكأنه سيهرب مني.. اقتحمت أنفي الروائح منذ دلفنا إلى الداخل، روائح عطرية مختلطة برائحة التبغ وروائح أخرى لم أدرك كنهها، تلاشت ثقتي بنفسي حتى غدت صفراً أو ZERO بالإنجليزية، فقد أذهلني هذا الكم الكبير من الفاتنات عرباً وعجماً.. الأجساد المصقولة الفارعة كعارضات الأزياء، العيون الملونة المثقلة بمختلف أنواع الطلاء، خصلات الشعر المسدلة والمرفوعة بجميع الألوان المعروفة تتدرج من الأسود الحالك وحتى الأشقر الذهبي، المجوهرات البراقة من الماس ولؤلؤ وزفير وأحجار كريمة، والثياب الزاهية بشتى الألوان والأنواع وتتبدى منها الأذرع والظهور والسيقان العارية.. ألقيت نظرة على أسمالي التي تلف جسدي كشرنقة حريرية.. بعد عذاب وتفكير وحيرة طويلة ثبت اختياري لقميص حريري سوداء طويلة مع حجاب أسود وبنطال رمادي بيج ولم أرتد شيئاً من المجوهرات ولم أضع حتى عطراً كل ما فعلته هو قليلاً من أحمر الشفاة مع تخطيط العينين بقلم الكحل الأسود.. تواريت خجلاً وراء أخي.. شدني فيصل من يدي متسائلاً:

ـ سارة ما بك؟

لمس اضطرابي وأدرك حيرتي فهمس قائلا:

ـ أنت يا سارة أجمل منهن بحجابك الجميل وملابسك المحتشمة.. أنت هنا تمثلين بلدك خير تمثيل.. أنت من بلد الرسول ومن بلد الإسلام والحق والعدل..

أذابت كلماته شيئاً من ترددي وحيرتي، وما أن تقدمنا بضع خطوات حتى أقبلت كاتيا مع شقيقها روبير.. صعد الدم حاراً إلى وجهي وأحسست بما يشبه الصدمة لا أدري أكان هذا لرؤية روبير أم دهشة لمرأى الثوب الذي ترتديه كاتيا.. أنه على الأصح لا ثوب، الظهر بأكمله عارٍ مع جزء كبير من الصدر والساقان تقريباً بأكملهما ظاهرتان لا يخفيهما شئ.. خجلت.. كيف تجرؤ كاتيا على الظهور بهذا المنظر أمام أخيها عدا الرجال الآخرين، إنني أخجل لو جلست مع أخي فيصل بمكياجي فقط.. فكيف بهذه الثياب المختصرة التي تظهر أكثر مما تخفي! تعلقت كاتيا بفيصل وهي تقول لي بابتسامة حرتُ في تفسيرها:

ـ ماذا فعلت لروبير يا سارة؟ أنه فقط يتحدث عنك..

أسدلت رموشي على عيني ولم أتفوه بحرف واحد.. قادنا روبير وكاتيا إلى الصالون الفخم وسألنا ماذا نشرب؟ ضحك كثيراً حينما همست بخجل:

ـ عصير برتقال..

نظرت لأخي مستفهمة، فألفيته يتطلع لكاتيا بحب وولع.. لحظات واختفت كاتيا مع فيصل ووجدت نفسي بمواجهة سيدة جميلة عرفها روبير قائلاً: أمي.. وأم كاتيا طبعاً..

ضحكنا جميعاً ثم أردف: سارة.. حدثتك عنها كثيراً..إنها أخت فيصل.. رحبت بي الأم بعبارات لبنانية دافئة وتبادلنا الحديث عن بلدينا السعودية ولبنان وقالت أخيراً بأن الحياة في بلد عربي لا يناسبها، ثم تناولت علبة سجائر من على المنضدة وأخذت تدخن بشراهة، عرضت عليّ واحدة فرفضت بإصرار، اختلطت روائح العطور مع التبغ وروائح العرق. فانتقلت من أجواء الاحتفال اللندني إلى سطح منزل عمتي وأنا وليلى في لحظة طفولية نقرر الانتحار.. قلت لها بضيق:

- ليلى.. لقد كرهت الحياة وكرهتني وعندما أموت فلن يحزن علي سواك لأنهم لا يحبونني ولا يحبون سوى أنفسهم..

دمعت عينا ليلى وهي تجيب:

- حتى أنا أشعر بأنني غير مرغوب في وجودي.. أمي تحب شقيقتي نوال وتكرهني لا أدري لماذا.. هل لأن نوال تشبهها وأنا أشبه أبي أم لأن نوال أجمل وأرشق مني أم.. تعبت من التفكير.. أرجوك يا سارة إذا قررت الأنتحار فسأنتحر معك، لأنني لن أحتمل الحياة دون وجودك فيها.. ما رأيك ننتحر معاً؟

همست وأنا أفكر:

- مثل قدماء العشاق.. نعم فلنمت معاً، ولكن قبل أن نموت ما رأيك أن نفعل كل ما أردنا فعله طوال حياتنا..

قالت ليلى:

- تقصدين الأمنية الأخيرة.. نعم.. أنا لديّ أمنيات كثيرة، لكن

الشيء الوحيد الذي أتمنى فعله ومستحيل تنفيذه هو أن ادخن.. طالما راقبت أخي على وهو يدخن وينفث الدخان من فمه وأنفه ببطء أتمنى أن افعل مثله..ان اجرب ثم أموت بعد ذلك..وانت يا ساره..

قلت بغير اهتمام: وليكن ذلك..لندخن يا ليلى.. لا يهم

نهضت ليلى متحمسة وهى تقول:

سأحضر علبة السجائر من حجرة أخي علي، فهو غير موجود الآن..

قلت لها وفكرة الانتحار تملأ عقلي الصغير:

ولا تنسي إحضار كل علب مسكن الصداع الموجود لديكم، لعله ينهى حياتي فاستريح..

وما هي ألا لحظات حتى اختبأت مع ليلى في سطح المنزل ندخن سجائر علي ونسعل، ندخن ونعب هواءاً ملوثاً لا تحتمله رئاتنا فنسعل بعنف، وعلب المسكن تقبع بيننا ساكنة في انتظار دورها القاتل، وفجأة شهقت ليلى شهقة قوية مرعبة اهتز لها جسدي حسبتها ماتت فجأة أو ابتلعت السيجارة لتنتحر!! وعندما تتبعت نظرها وقف شعر رأسي من هول الصدمة، كانت عمتي واقفة تنظر إلينا بجنون وكأنها غير مصدقة ومعها نوال ودلال وفاطمة..

فكانت فضيحة مدوية ارتج لها البيت والبيوت المجاورة، جاء أبي بعدها غاضباً مرتعداً، ضربني أمام عمتي وبناتها، ثم دخل في نقاش حاد مع عمتي التي اتهمتني بإفساد بناتها

قال لها عبارة ألجمتها:

- أنت التي ربيتها واحتضنتيها، فهي تربيتك أولاً وآخراً.. إنها تعيش عندك اكثر ما تعيش عندنا جميعاً..

ومنذ ذلك اليوم أصبحت قسطاً موزعاً بالتساوي بين الجميع، فلا أبقى في أحد البيوت الثلاثة يوم زيادة عن البيت الآخر وهكذا، حتى إذا حصلت فاجعة كالسابقة قالوا بأنها نبات شيطاني وليست تربية أحد ابداً..

- هل ترقصين معي..

انتبهت على بحيرتا عسل تحدقان إلى وجهي بانتظار إجابة، اهتززت داخلياً فلا أدرى هل أضحك أم أبكي أم اصرخ، حمدت الله على فاعلية الحبوب المهدئة التي أتناولها يومياً وإلا لكان لي شأن آخر.

تلفت حولي بذهول المكان ليس سطح عمتي البائس الذي تغمره الشمس نهاراً ويلفه الظلام ليلاً، انه مكان آخر تغرقه الأضواء الساطعة وتصدح الموسيقى في أركانه، أحسست بالمكان يهتز في ناظري على أصوات الموسيقى المنتظمة وأفواجاً من الجنسين يلتقيان في رقصات لم أتوقع يوماً أن تعانق نظري مباشرة، كنت أراها في الأفلام التلفزيونية فقط، وكان وجهي يحتقن بحمرة الحياء إذا كان هناك أحدٌ غيري يشاهدها معي..

لازلت أتذكر حفلة ليلى البائسة حينما دعت رفيقاتها وبنات الجيران بمناسبة نجاحها في الثانوية العامة.. وافقت والدتها على

مضض بشرط ألا تشتري شيئاً من مستلزمات الحفلة، وان تتكفل ليلى بكل شيء.. سألتني ليلى الرأي..

قلت لها: لا بأس.. سنطهو في البيت أنا أبدع لكم عمل كعكة الحفلة.. وأنت والخادمة تشتركان في عمل بعض الشطائر الخفيفة، ونشترى قنينين كبيرتين من المشروب الغازي بسعر ارخص من 15 علبة صغيرة، ونفرش سطح المنزل بالسجاد ليكون مكان الحفلة..

مضينا نستعد للحفلة بكل مدخراتنا القليلة، ورغم ذلك وجدنا إنها لا تكفي، هاتفت أمي دون علم ليلى، قلت لها إني احتاج إلى مبلغ بسيط من المال لا يتعدى 50 ريالا، بهدوء قالت إنها لا تملك حالياً هذا المبلغ، وكل ما تملكه هو عشرة ريالات، فإذا كنت أريدها فلا مانع لديها، بخنوع شكرتها وقلت إنني لا أريد شيئا وأنا أتذكر بأسى هداياها الغالية لاخوتي «أبنائها»، لم أتوقف كثيراً عند رفضها إقراضي المبلغ الصغير، فاتصلت بوالدي الذي سألني بإلحاح عن دواعي طلبي، كرهت ذلي وفقري واحتياجي وأنا اشرح له عن حفلة ليلى وإنني أنوي عمل كعكة كبيرة بالمناسبة والكعكة تتطلب مواد غير متوفرة في بيت عمتي أسعدني أبي بقوله:

- لا تتعبي نفسك بالطهو سأشتري لكم كعكة جاهزة..

فرحت كثيراً وأبلغت ليلى، ووصلت الكعكة في اليوم الموعود رغم أنها كانت صغيرة إلا إننا لم نفسد فرحتنا لهذا السبب، أعددنا أنواعاً من الفطائر والمشروبات وأرتدينا أجمل ثيابنا ومضينا في استقبال الصديقات وبنات الجيران.. زجرت ليلى شقيقتها دلال وطلبت منها أن تغادر مكان الحفل لأنها صغيرة..

مضى كل شئ على ما يرام، وبدأنا نرقص على أصوات الأغاني التي تنبعث من جهاز التسجيل. . قالت هدى فجأة:

ـ ما رأيكن أن نرقص رقصة حالمة مشتركة كما رأيتها في أحد الأفلام. .

ردت نورة:

ـ أن الرقصة التي تقصدين تكون بين شبانٍ وفتيات، وليس فتيات وحدهن

ضحكت هدى قائلة:

ـ لنتخيل ولنعش في عالم الأحلام. . هيا يا فتيات كل واحدة تراقص صديقتها. .

بخجل شديد وضعت يدي على خصر ليلى، وهكذا فعلنا جميعاً، أعجبنا الأمر فتبادلنا الرفيقات، ونحن نضحك بمرح، لمحت دلال تطل غاضبة ثم تمضي داخلني شعور بالخوف، لكنني مع المرح واللهو والضحكات نسيت كل شيء، فوجئنا بتوقف صوت الموسيقى والأغاني، التفتنا لنجد عمتي واقفه متنمرة وبيدها عصا ضخمة وهى تقول:

ـ يا للعار. . يا للفضيحة. . أين نحن؟ فى بيت محترم أم في مرقص. .

ثم وجهت لي أصابع الاتهام قائلة:

ـ هذه عديمة التربية هي السبب. .هي سبب كل المصائب. .

وقفت ليلى أمامي لتحميني بجسدها، ففوجئت بالعصا تنهال عليَّ عليها. .

أشحت بيدي لا فأجا بمن يمسك بيدي بقوة لكن برقة. .

ابتسم روبير قائلاً:

ـ هل توقعت أن أضربك لأنك رفضت الرقص معي؟

شل لساني، فلم أستطع التفوه بحرف. . أشرت إلى حجابي دون كلمات. .

همس برقة:

ـ بالنسبة لحجابك فعلاً أنه معضلة. . لكن لدي الحل. . هيا معي. .

سرت معه كالمنومة نخترق حشود الراقصين والراقصات في أوضاع مخجلة أربكت تفكيري وشلت قدراتي على اتخاذ أي قرار سليم. .

صعدنا سلماً قصيراً، ثم دلفنا إلى حجرة جانبية، حجرة رائعة مؤثثة بأثاث غاية في الفخامة والجمال يتناهى إلى أسماعنا صوت الموسيقى واضحة جلية. . قدم لي مشروباً ذهبياً تعلوه رغوة كثيفة بيضاء. . ترددت. . قال بابتسامة:

ـ أنه عصير تفاح. . لماذا أنت خائفة؟. . سترين بعده عوالم رائعة لم تريها من قبل. .

نفيت خوفي وأنا أهز رأسي مرَّ شريط حياتي سريعاً أمام عيني

رأيت أهمال أمي وقسوة عمتي وجبروت زوجة أبي، تغلبت على ترددي فتناولت منه المشروب، ورشفت منه بضع رشفات، شرب هو كأساً كاملاً دفعة واحدة..

همس بصوت رقيق يذيب الحديد:

ـ أتدرين ما هو الحل لمشكلة حجابك؟..

وكأنني في عالم آخر.. كأنني لست أنا.. أجبته ذاهلة:

ـ نعم.. كيف؟

اقترب مني بهدوء وبثقة وانتزع الحجاب من رأسي لتتساقط شلالات شعري على وجهي، وتنحدر على ظهري معربدة متحررة، أمسك بيدي وقادني وسط الحجرة في رقصة غريبة عجيبة أدارت رأسي وأخلت بتوازني.. سقط رأسي على كتفه وكأنني مسيرة ولست مخيرة، مخدرة.. متهافتة..مسلوبة الإرادة، ولم أدر أين أنا بالفعل؟ هل أنا وسط صديقاتي وبنات الجيران في سطح بيت عمتي بين ذراعي ليلى على أنغام أغنية مصرية؟ أم أنا في لندن وبين ذراعي رجل لا يمت لي بصلة على أنغام أغنية أجنبية تهتف للشيطان.. رباه.. أين أنا؟..

جلسنا متجاورين على المقعد الكبير.. نظراتي زائغة وعقلي مشتت وجسدي مسترخي استرخاء عجيباً.. أشعر بانتشاء لا عهد لي به، وبأنني نجمة تسبح في آفاق لا متناهية من المتعة والغموض..

همس روبير بصوت عذب:

ـ أنت جميلة جداً يا سارة.. بل أنت أجمل فتاة رأيتها في حياتي..

شرب وشربت، قادني للرقص مرة أخرى، مرات ومرات لأفيق بعد زمن لا أدريه على روبير وهو يساعدني على ارتداء ثيابي، ومن ثم حجابي وقد فقدت كل شئ.. الدين والشرف والمستقبل.. تلألأت عيناي بدموع الثكالى.. قال روبير:

ـ لا تبكي يا سارة.. أنت إنسانة حرة..

حرة.. حرة.. أخذت الكلمات تدوي في عقلي محطمة كل شئ في ذاتي وتتسع متاهة العدم من حولي حتى لا أكاد أرى سوى فجيعتي..

ودعنا هو وشقيقته وأنا أشعر أنه يكاد يبصق علي..

فلتحيا الحرية!!

(6)

أبت تلك الليلة العجيبة أن تبرح ذاكرتي في صحوي ومنامي، غدوي ورواحي عذابي وعذابي، لم أكن أنا سارة الفتاة المتدينة ابنة الأسرة العريقة المعروفة التي لا تقبل أن يمس كائناً من كان أطراف أصابعها.. بل كنت كأية داعرة أنزع حجابي كما أنزع حذائي وأترك جسدي ترتع فيه الذئاب.. ويحي.. أكنت أعلم أن هذا سيحدث وفى لمح البصر؟ ألم أدرك أن مجرد موافقتي على خلع حجابي تعني أنني قد خلعت معه كل شئ ديني وستري ومبادئي وقيمي..

رباه.. هل أنا المذنبة أم أن أخي فيصل له نصيب مما حدث لي بل أن له الدور الأكبر.. وكيف أعفيه من مصيبتي التي خط بيده لها سطور البداية لادمغها أنا بفاجعة النهاية، هو من عرفني برويبر، هو من رتب لقاءاتنا بل وسعى إليها، هو الذي أجاز لي حرية لا أملكها، وأقحمني في دروب لم أسلكها، ومنحني صك الغفران.. فيصل هو من باعني للذئب ولم يقبض الثمن.. الثمن سأدفعه أنا وحدي عذاباً وألماً وضياع مستقبل.. رباه.. لقد فقدت كل شئ الماضي والحاضر والمستقبل.. أتشبث برداء الصلاة، أرفض خلعه، وكأنه سيمحو عاري أو سيطمس الأبصار عن هويتي المزيفة.. أبتهل إلى الله بدموع حارقة أن يفرج لي همي ويغفر لي خطيتي..

رباه لا تعذبني فإني ... مقرة بالذي كان مني
وما لي حيلة إلا رجائي ... لعفوك إن عفوت وحسن ظني

«يا رب» تخرج متجذرة نابعة من الأعماق تحمل آهات ألمي وصدى أحزاني وحرقة الضلوع..

ـ سارة.. ما بك؟

التفت نحو باب الحجرة هو فيصل.. أخي.. لكن لا أدري لماذا بدأت أنفر منه.. كلا أنني لا أكرهه.. لكنني أشعر بأنه هو ليس فيصل أخي الذي أعرفه.. انه كائن آخر لا يمت لي بصلة.. ليس هو فيصل القديم، فيصل الصديق، فيصل الغيور الأصيل ذو المروءة الذي كان في الرياض، لقد حولته بريطانيا إلى شاب عابث يفعل المحرمات دون أدنى إحساس بالخطأ أو وخز من الضمير، يزني ويشرب الخمر ويدخن ولا يصلي، لقد مات إحساسه الداخلي وفقد بالتبعية ذكاءه ويقظته وغيرته، أضحى متبلد الإحساس عاجزاً عن التفكير يتساوى لديه اليوم والغد، المهم أن يعيش يومه باستمتاع ولذائذ لا متناهية.. ربما لن يجزع لو أبلغته بأمري ولن ينتقم ولن يغضب ويثور ويقتلني، بل سيعتبر الأمر عادياً كعلاقته بكاتيا..

بريطانيا غيرتك يا فيصل كما غيرتني.. كما حولت الدم في عروقك إلى جليد سلبت مني شرفي وقضت على مستقبلي إلى الأبد..

ـ سارة.. حبيبتي لقد لاحظت عليك تغيراً كبيراً منذ عدنا تلك الليلة من حفلة كاتيا.. في البداية أرجعت التغيير إلى كاتيا قلت ربما إنها لم تعاملك جيدا ليلة الحفلة وأهملتك ربما..

أنظر إليه باستهزاء وسخرية.. يا إلهي.. أيهوى تفكيرك إلى هذا

الحد من التفاهة يا فيصل؟ ومن تكون كاتيا حتى تغير حياتي رأساً على عقب؟

ـ ثم عندما رأيت محاولات كاتيا وزياراتها المستمرة لتحادثك وأنت ترفضين أدركت أنها لم تكن السبب.. فقلت ربما لم تعجبك أجواء الحفلة وما فيها من تقاليد غربية.. رقص وموسيقى وشراب وغيره..

لا زلت منغمساً في التفاهة من رأسك إلى أخمص قدميك يا فيصل.. ألا تعلم أن مكوثي هناك أكثر من عشر دقائق يعني أن الأجواء أعجبتني وأنني فقط أنتظر إشارة.. إشارة فقط لأدوس على حجابي وفي أثره ديني ومن ثم تاريخ عائلتنا كله من أجدادنا وحتى سقوطنا صرعى تحت قدمي كاتيا وأخيها..

ـ لكنني رأيتك لم تمانعي.. وقد دار في خلدي قبل أن نذهب أنه إذا آنست منك رفضاً أو اعتراضاً سأعيدك فوراً إلى البيت.. ولم تعترضي أبداً يا سارة.. قلت ربما كان روبير..

امتقع وجهي وارتعدت فرائصي.. ماذا عنه روبير يا فيصل.. أنه هو كل شئ هو البداية والنهاية وأصل الجحيم، هو من أشعل الشرارة التي لن تنطفئ أبداً إلا برحيلي عن الدنيا، هو من مرغ شرفك وكرامتك في الأوحال، هو من ساواك بالقوادين ومحترفي بيع الأعراض وهبط بي إلى حضيض المومسات الضائعات..

ـ لماذا تصرخين يا سارة.. أرجوك اهدأي.. هل تناولت دواءك؟ أشعر أن مرضك قد ازداد هذه الأيام.. أتذهبين معي إلى الطبيب د. ستيوارت؟ جلسة واحدة معه ربما تفيدك..

أي طبيب وأي جلسة يا أخي المخدوع؟ إنني بحاجة لمن يستأصل ذاكرتي من جذورها وأعيش كفاقدي الهوية والمجانين بلا جذور أو عقل مرهق أو تفكير مشتت سعيدة بيومي وبطعامي وشرابي ونومي ولا أحمل أي هم أو فاجعة تنذر بدمار شامل..

أشفقت عليه بملامحه الحبيبة الحائرة ورأسه الساقط بين كتفيه بألم وانكسار ويديه اللتين يدعك إحداهما بالاخرى كل حين.

كلا يا سارة.. صرخ صوت في أعماقي، يكفيه شرفه الممرغ في الأوحال لا تزيدي همومه بصمتك وحزنك وعذابك، ولترحلي من لندن بأسرع وقت ممكن لعلك تجدين متكأ ينفس عن كربك ويطفئ النار المندلعة في حناياك..

ـ فيصل.. أريد أن أعود إلى الرياض..

قفز كالملدوغ وهو يهتف:

ـ سارة.. ما بك؟ ماذا أصابك تكلمي؟

بخنوع ويأس أقسرت كلماتي على الهبوط من حنجرتي:

ـ أنه تأثير الأدوية النفسية التي أتناولها.. حتى أن شعوري بالغربة تضاعف.. إنني مشتاقة لبلدي..

ومشتاقة لليلى.. ليلى.. هل تذكرها يا فيصل؟

نظر لي بشرود وكأنه لا يتذكر أي شئ هناك.. الألم والعذاب واليأس نزعا مني كل خوف أو تردد أو حتى حياء:

ـ ليلى ابنة عمتي يا فيصل.. ألا تذكرها.. إنها تحبك.. تحبك بجنون..

ارتسمت نظرات غريبة على وجه فيصل وهو يقول:

- نعم.. تذكرتها.. ليلى الصغيرة..

قاطعته:

- لم تعد صغيرة يا فيصل لقد كبرت ليلى وغدت فتاة جميلة جداً..

استجمعت شجاعتي وأنا أقول بحقد:

- أجمل من كاتيا بكثير.. خجولة.. لم يرها رجل قط عدا أباها وأقربائها..

قلت الجملة الأخيرة بنبرة بكاء وكأنني أرثي ذاتي التي تمزقت من أول تجربة مع أول رجل أعرفه..

لاحت لي ابتسامة فيصل العريضة وهو يقول:

- كلماتك غريبة يا سارة.. كأنها وصية أو وداع..

أردف بضحكة حزينة:

- هل تنوين الانتحار؟..

ابتسمت مشفقة وأنا أقول بصوت خافت وكأنني أحادث نفسي:

- وهل أنا كافرة يا فيصل؟ سامحك الله.. أنني فقط تذكرت ليلى الحبيبة.. ودمعت عيناي..

قال فيصل:

- يا إلهي.. أنني جننت فرحاً حينما تحدثت وتخلت عنك الحالة الاكتئابية التي رافقتنا طوال الأسبوع الماضي ثم تعودين الآن لتبكين..

همست بخشوع:

- إنها دموع الشوق لأهلي ووطني.. أرجوك يا فيصل احجز لي سريعاً لأعود إلى الوطن، فقد أمضيت أكثر من أربعين يوماً في لندن وهذا كثير..

ثم أجهشت ببكاء مرير..

ربت على كتفي بحنان قائلاً:

- هل مللت مني يا سارة؟ عموما أنت عائدة عائدة ولن يفيدني أن أستبقيك أسبوعاً أكثر أو أسبوعين سأحجز لك قريباً، لكن عديني أولاً..

همست جزعة ودموعي عالقة بأهدابي.. «بماذا؟»..

- أن تخرجي معي وكاتيا لنتسوق ونشتري هدايا لمن ترغبين من الأقارب ثم نتناول العشاء في مطعم هندي جميل..

أغمضت عينيّ وفتحتهما على أسم كاتيا، هذا الاسم يعني لي الكثير والكثير انه الحبل السري الذي أمدني بالخراب والضياع والألم، أنه الغراب الذي نعق على مملكتي الناصعة البياض مؤذناً ببدء السواد والياب.. يا إلهي..

تابع فيصل بهدوء:

- كي أطمئن أن كاتيا لم تؤذكِ.. وحتى كاتيا لابد أن أطمئنها بأنك لست غاضبة منها لأي سبب كان.. أنها جد منزعجة وتسألني دائماً عن سبب انزوائك ونفورك..

رفعت رأسي بكبرياء مزيفة:

ـ متى سأسافر يا فيصل؟

رد بسرعة: الأسبوع القادم على أبعد تقدير..

هبت رياح الوطن لتلفح وجهي، أشمها على بعد الآلاف بالكيلومترات.. أتوق إليها، أشتاق إلى كل ذرة تراب فيها.. بدأت ركائب الطمأنينة تحل على ذاتي قليلاً بقرب سفري فأوعزت لنفسي أن أطمئن أخي وأهدئ نفسه..

قلت له:

ـ حسناً سنخرج مع كاتيا قبل سفري..

انفرجت أساريره وانطبقت الدنيا بأسرها علي.. اشعر بكتلة نار تشتعل في جوفي ثم تتصاعد ببطء قاتل نحو عنقي.. اشعر بالاختناق..أجاهد لأستلب نسمة هواء تبث الحياة في أعطافي فلا أجد..

طفلة ممزقة الملابس تصرخ هلعاً.. يا إلهي إنها النوبة تعود مجدداً رغم الأدوية ورغماً عن أنف الطب النفسي كله.. أفقد السيطرة على ذاتي كلياً.. أتداعى وأسقط.. صرخات مدوية في رأسي وعنقي وأذنيّ.. رعشات متوالية تهز جسدي هزاً عنيفاً كاسحاً.. استحال جسدي إلى قلب قوي يخفق بجنون ويرعد، يرعد، يرعد، ليلقيني كخرقه بالية لا روح.. لا حياة ولا حتى إحساس.. أغرق في عرقي وسوائل جسدي وعفني ودبيب من الخدر يسري في أوصالي المرتجفة

وأغيب في ردهات سوداء..

أفقت بعد زمن لم أعرفه، اتجهت إلى الحمام، جاهدت لأخلص جسدي من عفونته سكبت الصابون المعطر والشامبو ذا الرغوة الكثيفة والجل السائل ذو اللون الأزرق الذهبي الذي تعبق رائحته بالأجواء بمجرد فتح غطاء العلبة.. سكبته بأكمله على جسدي ومضيت أدعك وأدعك وأنا أدرك تماماً أن العفونة داخلي وأنها لن تزول أبداً.. منذ لامس جسدي رجلاً غريباً والرائحة تقتحم أنفي كل حين بنوبة أو دون نوبة تلك الرائحة أصبحت لصيقتي..

رافقت فيصل وكاتيا إلى «برينت كروس» وهو مجمع تسوق ضخم في لندن.. سألتني كاتيا بحذر وأنا أركب السيارة في المقعد الخلفي:

ـ أخبرني فيصل أنك ستغادرنا قريباً إلى السعودية.. ألم تعجبك لندن؟

طفحت نفسي بكراهية غريبة لها وبنفور عجيب لم أحسه قبلاً، وددت ألا أجيبها وأن أدع سؤالها يتبعثر في هواء السيارة ثم يخرج من النافذة دون صدى، لكنني ألفيت عيني فيصل القلقتين ترقبانني من مرآة السيارة.. أجبت باختصار مغلقة باب الحديث:

ـ بلدي أفضل..

عبارات كثيرة تزدحم في مخيلتي فأخنقها داخلي كي لا تتضخم ثم تنفجر، كنت أود القول إن بلدي حفظتني وصانتني، علمتني وأدبتني،

سترتني وطمأنتني ثم جئت إلى لندن لأجد ما تعلمته سنوات طويلة تذروه الرياح في لحظة واحدة في غمضة عين، غفلة بسيطة دمرت كل شئ ونزعت كل شئ وقتلت كل شئ.. لندن يا عزيزتي.. كشفتني وعرتني، نزعت عني أوراقي وقشوري الواحدة تلو الأخرى كما يفعلون بثمرة الموز، ثم ألقتني لقمة سائغة لأحد المحسوبين عليها.. لندن قطعتني، دمرتني، انتزعت مني شرفي ثم دفنتني بالأوحال..

الشرف.. هل تعرفين ما هو الشرف يا كاتيا؟ بالتأكيد أنت لا تعرفين معنى الشرف ولن تعرفينه أبداً طالما ترافقين أخي وأخاك.. الشرف أن يحترمك الناس وأن تسيرين منتصبة الرأس.. لم يدمرك أحد ولم يعبث بجسدك أحد.. وكبرياؤك تحوم حولك كفراشة جميلة ترف حول وردة معطرة..

ـ ما رأيك.. هل تريدين اقتناء شئ من العطور لك أو كهدية تحملينها معك؟..

جاءني صوتها الرائق الجميل، تقدمت بخطى وئيدة من ركن العطور، اخترت قنينة عطر «فيرست» الذي أحبه، سعره خمسة وأربعون جنيهاً، أنه غالٍ جداً.. وضعته مكانه..

ثم اتجهت إلى محل «أم آند أتش» تباطأت قليلاً ليلحق بي فيصل وكاتيا.. اخترت ثوبا لدلال ابنة عمتي الصغرى، فلن ترحمني عمتي إذا لم أحضر هدية قيمة لطفلتها الأثيرة، وابتعت مثله لمشاعل اختي من أبي، تجولت طويلاً وابتعت لليلى تنورة من القطن المشجر ونوال مثلها كيلا يشتعل البيت بالنيران وعواصف الغيرة التى لن تهدأ أبداً..

عمتي وأمي وزوجة أبي هذا الثالوث الذي حطمني وأفقدني طعم الحياة اشتريت لكلٍ منهن زوجا من الأحذية.. متواضع السعر.. وكأنني أوجه لكلا منهن رسالة غير مباشرة تدور داخلي دون أن أدرك مفهومها الأساسي، واشتريت الكثير من علب الشيكولاته لهن ولأطفالهن ولأطفال الآخرين، ولم أجد لأبي أفضل من حامل لجهاز الهاتف النقال خاصته.. لم أثقل على أخي بكثرة الهدايا، حاولت أن أبتاع في حدود الحاجة وبأسعار زهيدة مقارنة بأسعار لندن الباهظة..

قالت كاتيا بابتسامة كرهتها:

ـ ألن تشتري لنفسك شيئاً يا سارة؟ اشتريت للجميع عداك..

هززت رأسي موافقة.. نعم لم أشتر لنفسي شيئاً.. وفوراً وقع نظري على دمية صغيرة عارية تضع كلتا يديها على مكمن عريها، لتغطيه بابتسامة خجولة، وقفت مطولاً أتأملها، نعم أنها تنكأ جرحا لا يزال ينزف داخلي، أنها تذكرني بعفونتي المتوارية خلف ملابسي، إنها تصفعني ببشاعة جريرتي التي سيحملها كل أفراد أسرتي تباعاً مدي الدهر.. وسام على جباههم تماماً كالعلامة التجارية للماركات المشهورة مثل علامة ايف سان لوران وجيفنشي ولانكوم وغيرها من مئات العلامات..

ـ can I help you?

ـ هل أعجبتك هذه الدمية؟..

اختلط صوت البائعة بصوت كاتيا، فأجبت بصوت عالٍ وكأنني أعلنها على الملأ..

ـ نعم.. نعم.. سأشتري هذه الدمية..

«العزف على نغمات الأوجاع»

(1)

في الطائرة كانت سارة.. لا تدرى أهي حيه تعيش بين الأحياء أم ميتة تتنفس أجواء العالم الآخر.. حزن غريب عجيب يفتت أضلاعها، ولم تكن تدري مصدر هذا الحزن.. فراق أخيها، مغادرة بريطانيا، العودة إلى الوطن، فجيعتها الكبرى التي تنام وتصحو بها لا تغادرها ولو للحظه واحدة..

قال لها فيصل البارحة وهى تجهز أمتعتها في الحقيبة السوداء الكبيرة:

ـ سأفتقدك يا سارة.. لقد عشت معي فترة هي من اجمل أيام حياتي في لندن أحسست فيها بجو الأسرة والأهل وان أحدا ينتظرني في البيت كل مساء..

أغرورقت عيناها بالدموع ولم تستطع الرد.. تابع فيصل:

ـ اهتمي بدوائك يا سارة لا تتركيه لأي سبب من الأسباب وسأزودك به كلما ينفذ فقط.. هاتفيني..

ابتسمت بسخرية من وراء غلالة من الدموع وكأنها تهتف له.. ما من جدوى يا فيصل.. بدواء أو دون دواء فالحال واحد..

تابع فيصل:

ـ لا تنسي يا سارة، فالنقود لأبي ولن يرحمني لو لم أرسل له نقوداً.. أصدقائي هنا آباؤهم يرسلون لهم النقود ومصاريف دراستهم وأنا العكس.. المهم.. هذا الدواء اشتريته لعمتي كما طلبت وكأنه لا يوجد صيدليات في المملكة أما أمي فلم تطلب مني شيئاً..

تكهرب الجو بينهما حينما أتى على ذكر الأم، وكأن ذكرها شيء بشع وقاسٍ لا يقال في مثل هذه الظروف.. استجمعت سارة جرأتها وقالت:

ـ فيصل.. هل ستتزوج كاتيا؟

اطرق لحظات وكأنه قد فوجئ بالسؤال ثم أجاب باسماً:

لا اعتقد يا سارة ولِمَ تسألين؟

أردفت السؤال بسؤال آخر:ـ

ـ وهل ستتزوج ليلى؟

صمت باسماً ثم قال: ربما.. من يدري

ارتجف صوتها بالبكاء وهي تسأل:

ـ ومتى ستعود إلى السعودية؟

طفق فيصل ينظر إلى البعيد ساهماً ثم أجاب بوجوم:

ـ لا أدري.. حسب الظروف.. ربما عامان.. أكثر.. أقل لا أدري..

تساقطت دموعها غزيرة وانكفأت بوجهها تبكي كل شيء..

قبل الذهاب إلى المطار ارتدت ملابسها كاملة وعباءتها ونقابها.. سألها فيصل بحذر.. ما هذا؟ كأنك إرهابية.. ألن تؤجلي كل شئ حتى ركوب الطائرة؟..

قالت بصدق: اشتقت لعباءتي ونقابي.. اشتقت لشيء يسترني عن أعين الناس وفضولهم..

قال بدهشة: لكن كاتيا وأخاها روبير ينتظرانا بالسيارة..

تشنجت يداها وتصاعدت شهقات فزع حادة إلى عنقها تكاد تخنقها.. روبير.. ر..و..ب..ي..ر.. هذا الرجل الذي قتلها جاء يشيع جنازتها ويودعها طائرة ثلجية حتى بلادها ثم يخرج الجثمان سائراً على قدميه، لكن دون روح..

انتشلها أخوها من أفكارها المضطربة:

ـ ألا زلت مصرة على ارتداء هذه العباءة والنقاب وأمام... الجميع؟

فجأة.. تقدمت أمامه وكأنها قد امتلكت كل شجاعة الدنيا قائلة:

ـ هيا يا فيصل.. لا أريد أن أتأخر.. وهما حتماً يعرفون زي المرأة في بلادنا..

كما توقعت سارة.. الأشخاص في السيارة مرتبين على الطريقة

الأوربية وليس على مبادئ الدين الإسلامي بأن الأخت تجلس إلى جوار أخيها.. فقد وجدت الأخوين اللبنانيين وقد أفسح كل منهما المجال ليجلس الآخر بجواره، كاتيا في المقدمة إلى جوار مقعد أخيها الفارغ وروبير يجلس في المؤخرة وقد وضع يده على المقعد أمامه وسوراه الذهبي يعكس أضواءاً تنشر الظلام في داخلها..

ترددت لحظه قبل أن تقول:

ـ كاتيا.. أريدك لحظه إذا سمحتي..

لم يفتها نظرات الذهول فى أعينهم وهم يرونها بهذا الشكل الغريب الذي ربما لم يروه فى حياتهم أبداً..

بصدمة وارتباك هتفت كاتيا حينما ترجلت من السيارة:

ـ سارة.. ما بك؟

بهدوء أجابت سارة:

ـ هذا هو زي المرأة في بلادي وهذا ما حثنا الله على ارتدائه.. لا تخافي هو لن يعضك..

ثم تابعت بنفس الهدوء: أرجوك أريدك أن تأخذي المقعد المجاور لي في السيارة وليأخذ أخاكِ المقعد إلى جوار فيصل.. فهذا أفضل..

خيبة الأمل واضحة جلية على وجه كاتيا الجميل، وهي تستدير ناحية نافذة أخيها وتحادثه باللغة الإنجليزية..

نزل روبير منكس الرأس واتجه إلى المقعد الأمامي دون أن ينظر إلى سارة..

صمت بشع وأجواء متوترة داخل السيارة التي تنهب الطريق إلى المطار.. حاول فيصل أن يبدد التعاسة والفجيعة المخيمة على أجواء المكان، ولم يستطع بجهوده الفردية أن يفعل شيئاً..

انتقلت الأجواء إلى المطار نفسه، والعابرون يحدقون بسارة باستهجان وغضب وسخرية.. كانوا محط أنظار الجميع حتى وقت مغادرة الطائرة..

تكهرب الجو فجأة قبل أن تدس كاتيا في يد سارة شيئاً ما.. تساءلت سارة.. أجابت كاتيا باختصار:

ـ انه مجرد ذكرى..

لاح لسارة ذلك الشيء الذي أعطته لها كاتيا ولم تلق هي له بالاً ووضعته في حقيبة يدها بإهمال، تذكرته في الطائرة.. فتحت حقيبتها على عجل.. مغلف مربع بسيط بألوان وردية بهيجة.. قالت سارة لنفسها مبتسمة يبدو أن كاتيا قد أعدته لي قبل أن تراني على هيئتي الأخيرة وإلا لما أعدته أصلاً..

فتحت المغلف لتجد علبة صغيرة من القطيفة الحمراء تحوي خاتماً بديعاً على هيئة فراشة ملونة بألوان زاهية وإلى جوارها ملصق صغير مدون عليه بقلم أحمر (For you من كاتيا) قبل أن تغلق المغلف من جديد وجدت ورقة وردية مطوية بعناية فتحتها.. شهقت بفزع من روبير وبدأت تقرأ:

«أيتها المرأة التي كانت في سالف الزمان حبيبتي

لماذا تضعين الوقت في حقائبك؟..

وتسافرين؟

لماذا تأخذين معك أسماء أيام الأسبوع؟

وخارطة الشهور والأعوام..

وكروية الأرض..

لماذا هاجرت من صدري؟

وصرت بلا وطن..

لماذا خرجت من زمن الشعر؟

واخترت الزمن الضيق..

لماذا كسرت زجاجة الحبر الأخضر؟

التي كنت أرسمك بها..

وصرت امرأة..

بالأبيض.. والأسود..

أغلقت المغلف بعصبية وقد احتقن وجهها ألماً وغضباً.. تشنجت يداها على الورقة بعض الوقت ثم مزقتها إلى قطع صغيرة ووضعتها في كيس المهملات الورقي للطائرة الموضوع أمامها في جيب المقعد..

تصاعدت منها الشهقات ببطء واعترتها قشعريرة تامة تداخلت مع دموع غزيرة هطلت من عينيها لتغرق وجهها ومن ثم نقابها وعباءتها..

جاهدت لتتنفس.. بعمق.. بعمق أكثر.. ثم تسقط في هوة بلا قاع تتقاذفها الأضواء الخاطفة، خوف عظيم يجتاحها فيزلزل كيانها، العرق ينز من جسدها وينبثق قطرات صغيرة لا تلبث أن تتمدد ثم تغدو سائلاً لزجاً، طبول القلب تقرع إيذاناً ببدء الحرب.. يا إلهي انها النوبة.. قالتها بأنفاس متقطعة ثم غرقت في غياهب النسيان، صرخات وحشية تمزق وجدانها وتنهال بسياط من نار على رأسها ووجهها وأذنيها.. الغثيان يملأ جوفها.. تكاد تتقيأ كل شئ الأكل والمرض والأحزان.. أغمضت عينيها باستسلام معذب وبوادر الهزيمة تلوح على محياها..

- هل ترغبين بشئ.. هل وجهت أي نداء لي؟

تلفتت سارة حولها بذهول لتجد وجه المضيفة الباسم يتأملها بإشفاق.. همست بجهد شاق:

- كم تبقى من زمن الرحلة.. متى نصل إلى الرياض؟

اتسعت ابتسامة المضيفة لتسألها بدورها:

- هل تسافرين وحدك؟ نعم.. بقيت ساعتان.. هل ترغبين في تناول الطعام؟

هزت سارة رأسها باستسلام.. لم تكن جائعة.. لكنها أرادت النسيان ولو بالطعام..

اختارت الدجاج المطبوخ بالصلصة مع الأرز طبقاً رئيسياً.. تأملت وجبتها ببطء قبل أن تتناول وعاء السلطة..

وللمرة الأولى منذ دخلت الطائرة رأت المنظر حولها لقد تبدلت معظم السيدات من سافرات تماماً من الشعر وحتى الأذرع والسيقان وجزء من الصدر إلى محتشمات بشكل كامل.. محتشمات حتى العظم!!

جلهن لا يبدو من أجسادهن سوى الأعين وقليل يكشفن عن الوجه، لكن ليس بحجاب إسلامي حقيقي بل يبدو منه الشعر والنحر ويلقى بلا اهتمام على الأكتاف..

التفتت سارة إلى جارتها في المقعد الفتها كالجميع قد أسدلت على نفسها السواد من كل جانب حتى أن من يراها قبل لحظات قد لا يعرفها ولا يصدق أنها هي.. لم تتبادل معها سارة الحديث كثيراً.. بل بضع كلمات متناثرات ثم غرقت في همومها وشجونها..

سألتها جارتها باهتمام:

- أين تسكنين في الرياض؟..

ابتلعت سارة قطعة من لحم الدجاج قبل أن تجيب:

- في حي السلام.. وأنت..

انفرجت أسارير المرأة وقد سرها أن تبادلها سارة الحديث بعد ضجر طويل:

- أسكن في العليا، وأملك مشغلاً للأزياء والتجميل في المنطقة

نفسها لذلك أزور لندن بشكل دوري وباريس وأوربا بشكل عام لأختار أجمل التصاميم وأحدثها وأطلع على آخر ما أنتج من منتجات تجميل حديثة.. ما هو مكياجك المفضل لأعرفك على شخصيتك..

شعرت سارة بالضيق والحرج، إنها لا تستخدم الماكياج بشكل دائم وان استخدمت فبحدود ضيقة وعدم اهتمام بنوع الماركة، المهم ألا يكون رخيصاً جداً فيؤذى بشرتها ولا غالياً جداً لا تستطيعه ميزانيتها..

بتردد أجابت سارة:

- أستخدم ماركة ايفون وأحيانا برجواز

أشاحت المرأة بوجهها احتقاراً ثم فتحت حقيبة لها جانبية وأخرجت جهاز كمبيوتر محمولاً صغيراً وبدأت تعبث بأزراره غير عابئة بما حولها ومن حولها..

وغرقت سارة في همومها الداخلية.. من ينتظرها في المطار يا ترى عمتها وبناتها.. أم والدها وزوجته.. أم هي والدتها؟

من سيقع عليه دور احتضان مآساتها الجديدة ومصابها الفادح في عرضها وشرفها، إنها لن تعود لهم سارة القديمة البريئة، أيام فقط في بريطانيا قلبت كيانها كله.. أيام امتصت شبابها وحيويتها وبراءتها وعفويتها ولفظتها كالنواة بلا كيان..

سمعت فيصل يحادث عمتها ويخبرها بموعد وصولها.. ثم يطرق ساهماً يفكر ليتصل بوالدهم ويبلغه بالتفاصيل نفسها وأدركت أن

الأب أوصى فيصل بان يبلغ والدتهم لان فيصل قال في نهاية المكالمة:

ـ حسناً يا أبي سأبلغ أمي الآن..

وتكر الكرة من جديد ويحادث الأم بجفاف ليبلغها..

(على جميع المسافرين العودة إلى مقاعدهم وربط الأحزمة استعداداً للهبوط في مطار الملك خالد الدولي في الرياض)

خفق قلبها بشدة وارتعدت أوصالها رهبة وحنيناً وألماً لا تدرى أتحزن أم تفرح.. تبكى أم تضحك.. طارت عواطفها شعاعاً..

سألتها جارة المقعد:

ـ من ينتظرك في المطار؟

أجابت ساهمة واجمة دامعة العين:

ـ حقاً لا أدري..

(2)

أنهت الطبيبة فحصها ودارت نصف دورة لتجلس على مكتبها ثم تناولت القلم لتدون بعض الكلمات في ورقة أمامها، نهضت سارة من سرير الفحص ذاهلة.. ممتقعة الوجه.. ذابلة.. ساوت ثيابها وخرجت، جلست في المقعد المقابل أمام الطبيبة وعيناها يغمرهما سؤال واحد لن تجيب عنه سوى الطبيبة.. قالت الطبيبة باسمة:

ـ انتظري قليلاً ريثما تأتي نتيجة التحليل من المختبر.. ألم يحضر معك أحد.. ألم يأتِ زوجك؟

تلعثمت سارة قبل أن تجيب:

ـ كلا.. هو مسافر..

قالت الطبيبة:

ـ لا أريد أن أتعجل بإبلاغك ما أشك فيه، لكن نتيجة المختبر هي الفاصل..

مرت رعدة سريعة بجسد سارة قبل أن تهمس:

ـ هل أنتظر هنا أم بالخارج؟..

بابتسامة لم تغادرها شفتيها أجابت الطبيبة:

ـ ربع ساعة فقط.. يفضل الانتظار بحجرة السيدات بالخارج..

تحاملت سارة على نفسها وانتزعت قدميها انتزاعاً لتدخل حجرة انتظار السيدات. لم تر غير سيدتين فقط إحداهما تحمل طفلاً رضيعاً.. والأخرى تمسك بمجلة مصورة دون أن تطالعها فقط ترقب الآخرين بعينين سوداوين من خلال نقاب سميك، ألقت سارة بظهرها المتخشب إلى الوراء ومضت تطالع التلفاز دون أن تراه..

شعرا بالبؤس وهي تتذكر لحظات وجودها في المطار تبحث في الوجوه عن وجه تعرفه ويعرفها، بحثت في وجوه الرجال عن وجه أبيها لترتد إليها نظراتها خائبة كسيرة، بحثت بين النساء عن قامة وحجم عمتها الضخم المألوف.. لم ترها بين النساء.. ولم تبحث عن والدتها لأنها تعرف أنها لن تجيء..

فوجئت بمن يناديها.. دارت للخلف وجدت «سليم» السائق البنجلاديشي في بيت عمتها ولم يكن معه أحد.. ركبت في المقعد الخلفي في صمت وسكون وشيء ما يتشظى داخلها ربما هو أصداء حزنها، تذكرت فرحة ليلى بعودتها وكيف ضمتها وقبلتها عشرات المرات وهي تقول:

ـ كنت أتمنى أن آتي مع سليم إلى المطار، لكن أمي رفضت.. لا تدرين كم تعذبت بغيابك..

ثم انهالت الأسئلة:

ـ كيف لندن.. صفي شوارعها ومقاهيها وأسواقها.. أسواقها يا سارة.. أسواقها.. أتمنى أن أدورها سوقاً سوقاً لأرى بضائعهم وثيابهم.. وأدوات الماكياج والعطور..

ـ هل صحيح أن الدنيا هناك مطر وثلج؟

ـ كيف هن النساء؟ هل يخرجن إلى الشوارع سافرات أم محجبات..

ـ هل رأيتِ الكتب والمجلات الممنوعة؟

ـ لماذا أنت حزينة ومتعبة؟

ثم باستحياء شديد:

ـ وكيف فيصل.. هل هو سعيد هناك.. ومتى سيعود؟

وجاءها صوت عمتها كمطرقة حادة تهوي على رأسها بعنف:

ـ هل اشترى لي فيصل دواء الحموضة؟..

أسرعت سارة هاربة من أسئلة ليلى لتحضر حقيبتها وتحاول أن تعطي كلاً منهم هديته بفرحة يتيمة..

كما توقعت سلفاً لم تفرح عمتها بشيء وألقت الحذاء الذهبي بإهمال وراء خزانة الثياب ثم تناولت الدواء تفحصه باهتمام..

فرحت دلال بالثوب الوردي الجميل، بينما أخذت نوال منها الهدية عابسة ثم انكفأت عائدة إلى حجرتها..

ـ سارة محمد المبارك..

هزها النداء.. نهضت ببطء وتثاقل قادتها الممرضة إلى حجرة الطبيبة قائلة:

ـ لقد حان دورك لكن الطبيبة ذهبت لحجرة الإسعاف دقائق قليلة وستعود..

جلست سارة على المقعد واجمة.. تحاول أن تبلل شفتيها اليابستين بلسانها ولا يلبث الجفاف أن يعود من جديد..

حاولت أن تتذكر متى بدأ المرض معها ربما بعد شهر من عودتها من بريطانيا حسبتها في البداية إحدى نوبات مرضها المعهود.. لكن الغثيان تطور إلى قيء يزداد ويتعاظم صباحاً وإلى تعبٍ غير معهود يرغمها على ملازمة الفراش، الصداع المستمر، الدوخة.. قالت لها ليلى مراراً لابد أن تذهبي لطبيب، لكنها ردت على ليلى بأنها تعرف نفسها جيداً، هي متعبة دائماً ولا حاجة لطبيب..

تفاقم الأمر في قاعة المحاضرات منذ أيام، جلست في مكانها وإلى جوارها إحدى زميلاتها تكتب موضوع المحاضرة، غامت الدنيا بنظرها فجأة واختلطت المرئيات، غثيان يعصف بها عصفاً.. ارتجفت هلعاً وخوفاً من حدوث النوبة أمام الطالبات، لكنها سقطت بينهن في إغماءة قصيرة.. استفرغت بعدها عصارة جوفها..

أخذتها زميلاتها لطبيبة الكلية سألتها أسئلة كثيرة ثم صرفت لها دواءاً مضاداً للقيء ومسكن..

بدأت تفكر بأمرها جدياً حينما لاحظت تأخر دورتها الشهرية وقبل أن يشتد بها الفزع وتتناهبها الظنون قررت أن تقطع الشك باليقين وأن تذهب لمستوصف خاص بسيارة أجرة خوفاً من انكشاف أمرها..

ـ آسفة تأخرت عليك.. لكن هناك مريضة تنزف بحجرة الإسعاف.. عموماً اطمئني أخباراً سارة تنتظرك..

مبروك النتيجة إيجابية.. أنت حامل..

تهاوت في مقعدها شبه منهارة والطبيبة تعزف بقية الكلمات على نغم جنائزي قاتم:

ـ إذا أردت متابعة حملك لدينا، فنحن لدينا أفضل طاقم لمتابعة الحمل و...

وغابت عن الوعي من جديد..

فتحت عينيها على السواد.. السواد يجلل كل شئ حتى وجه الممرضة وردائها الأبيض ورائحة كحول قوي تقتحم أنفها بقوة، شعرت بغثيان شديد ورغبة أشد في القيء، رفعت رأسها بجهد وهي تضع يدها على فمها.. أسرعت الممرضة وقد أدركت حاجتها بوعاء معدني قربته من صدرها، فتقيأت سارة مراراً ومراراً..

نهضت بألم وحزن وتخاذل تعاونها الممرضة.. دخلت الطبيبة رمقتها بحنان ثم قالت باسمة:

ـ من أجل هذا التعب أتمنى أن يرافق كل زوج زوجته في بداية الحمل.. يبدو حملك من النوع المتعب. سأكتب لك بضع فيتامينات ومضاداً للقيء، لا تتناوليه إلا للضرورة القصوى كحالك الآن..

شكرت الطبيبة والممرضة وتحاملت على نفسها تهبط درجات سلم البناية درجة..درجة وكأنها تهبط لعالم الجحيم.. أفكارها مشوشة، جسدها مرهق متعب، داخلها فزع وخواء..

صفعت وجهها الحرارة الشديدة في الخارج مع اشتداد وقت الظهيرة بعد الهواء البارد المكيف داخل المستوصف الطبي.. وقفت بصعوبة تنتظر سيارة أجرة.. العرق ينز من جسدها بغزارة.. تشعر

بثيابها تلتصق بها بلزوجة مقيتة، وكائن ما صغير ينبض في أحشائها من غير أن تشعر.. اقشعر بدنها لهول الفاجعة.. تشاغلت بتأمل البنايات المصطفة أمامها.. مشاغل نسائية، محل حلويات، مطعم.. رفعت يدها بكل ما تبقى لها من جهد حين لمحت سيارة أجرة قادمة..

ألقت بنفسها على المقعد الخلفي قائلة بصوت متخاذل: حي السلام من فضلك..

تمنت أن تلغي عقلها.. أن تقذف بأفكارها بعيداً.. لا.. لن تفكر الآن بحملها والمصيبة التي تنتظرها فلتفكر بشئ آخر.. شئ لا يعنيها بشكل مباشر.. فلتتأمل الطرق والمحلات والمباني من حولها..

ألفت المتاجر هي ذاتها والمشاغل النسائية والمطعم.. ما بال السائق لا يتحرك سألته بوهن: هيا.. ما بك؟

قال السائق الهندي بصوت جهوري: خمسة وعشرون ريالاً.. اتفقنا..

قالت نعم.. ولو قال خمسمائة ريال لقالت نعم.. ونعم.. ونعم..

تحركت المباني أمام ناظريها وتبدلت، الشوارع الأسفلتية الواسعة، والجسور العالية، وكأنها ترى الرياض للمرة الأولى.. بعيني امرأة مهزومة ضائعة فقدت كل شئ ولا أمل لها بشيء..

متجر سبلاش الكبير إلى يمينها بالمقابل تماماً إلى يسارها مطعم «يامال الشام» بحديقته الصغيرة المسورة.. تذكرت أيامها اللاهية حين

تجتمع وزميلاتها في الكلية ليطلبن من هذا المطعم سندويشات شاورما.. تتذكر وجه فاتن وقد افتر ثغرها عن أسنان متباعدة علق بها لحم الشاورما وهي تقول مهمهمة.. لقد جربت في البيت أن أصنع مثل هذه الشاورما وفشلت..

تصدرت حصة الجلسة وهي تمسح بقايا الطحينة والمايونيز عن شفتيها قائلة: ان الأمر بسيط جداً.. دجاجة صغيرة..

قاطعتها إيمان.. يعني small size.. بكر يعني..

ضجت الزميلات بالضحك.. تشعر بالضحك يخترق آذانها ويصل لمكمن أوجاعها، فيبعثرها بمهارة لتصعد إلى الجوف كغصص عالقة لا تخرج ولا تُبلع.. فقط واقفة تصدر الأشواك والمرض..

انتبهت لوقوف السيارة.. وعندما لمحت رجال أمن الطرق ألقت برأسها إلى الوراء غير عابئة بما حولها..

لو كانت الذاكرة تستأصل لاستأصلت ذاكرتها تماماً وعاشت بعالم ناصع البياض دون أسماء ولا وجوه ولا أرقام..

من زجاج السيارة ألفت الجسر الأخير ينتظرها قبل الوصول إلى محطتها الأخيرة التي لا تدري هل تخرج منها حية أم ميتة، وقفت سيارة الأجرة طويلاً عند الإشارة ثم انعطفت يساراً، مرت بمحاذاة قصر الأفراح «ألف ليلة وليلة».. ياه ألف ليلة وليلة، ياله من اسم رومانسي بديع، لقد دخلته كثيرا مدعوة إلى أفراح الآخرين، تتذكر كيف كان قلبها يخفق وعيناها تدمع وهى تتأمل العروس..

ما سر هذا الأسى الشفيف الذي ينتابها عندما تقبل العروس

بردائها الأبيض الناصع وعينيها المطرقتين في خجل، انه ليس حسداً بل شيء آخر لا تدري كنهه ينبع من الأعماق، ربما من ذكرى زواج والدتها ويتمها بعد ذلك وأخيها وضياعهما في بيوت الأقارب.. وكثيراً ما انتابتها قشعريرة غامضة حينما يحلق خيالها فتكون هي العروس المرتقبة.. تذكرت وجه ليلى وهى تسألها يوما وهن يجلسن على منصة العرس قبل وصول العروس: سارة هل تعتقدين أنني سأتزوج فيصل؟ إذا لم أتزوجه فلن أكون عروساً سعيدة أبداً.. تلاشى جوابها مع ضجة الزفة ووصول موكب العروس وصوت محمد عبده وهو يصدح بالأجواء (ليلة خميس طرز بها نور القمر شط القمر.. ليلة خميس)..

سألها السائق:

ـ من هنا.. يسار..

خفق قلبها وهى تجيبه بنعم.. دخلت حي السلام أخيراً.. ذلك الحي الذي نشأت فيه وتيتمت وتعذبت وذاقت فيه طعم الهوان والألم والوحده.. مستوصف أمير على يسارها.. لِمَ لم تذهب إليه؟ ابتلعت السؤال وهي تعرف تماماً لماذا تجنبت هذا المستوصف القريب من منزل عمتها والذي تتردد عليه عمتها وبناتها باستمرار.. سرها البشع يجب أن يكون بعيداً.. بعيداً جداً.. مطموراً في خبايا مستوصف في أقصى شمال الرياض حتى يقدر لها الله أمرا كان مفعولاً..

أحست بجسدها ثقيل وهى تترجل من السيارة.. تساءلت بمرارةٍ هل الحزن له وزن ملموس يضاف إلى وزن الشخص الحزين، فيغدو

ثقيلاً غير قادر على المشي خطوات بسيطة أم هو الخوف يعرقل خطواتها، فكيف تدخل بيت عمتها من جديد وهي حامل ومِن مَن؟ من لبناني يقيم في بريطانيا لم تدم علاقتها به سوى أيام معدودة؟ من يصدقها وقد كذبوها مراراً وتكراراً؟ من يعطيها الأمان وقد حرمت منه رضيعة؟ من يأخذ بيدها ويهدئ من روعها ويبين لها ماذا تصنع وكيف تتصرف بهذا الحمل المشئوم وبذرة العار التي تتضخم داخلها؟

ليلى لن تتحمل خبراً كهذا وفيصل كيف تخبره؟ أما البقية فهي لا تجرؤ حتى على مجرد النظر فى وجوههم.. فكيف تلقي إليهم بمأساتها؟..

دخلت البيت بخطوات حذرة.. الفت ليلى ووالداتها تحتسيان القهوة مع بعض حبات التمر.. صرخت ليلى عندما رأت سارة وهتفت:

ـ سارة بسرعة تقدمي.. خبر بمليون ريال.. لكنني أول من أخبرك فلي الهدية..

أقبلت سارة مرتبكة متهافتة ووجهها أصفر ممتقع يحاكي وجوه الموتى وقد ازدادت خوفاً وذهولاً.. تابعت ليلى وعمتها منهمكة بصف حبات التمر في الطبق الخزفي:

ـ فارس الأحلام أخيراً يا سارة.. رجل تقدم لخطبتك.. هيا أين البشارة؟ إذا كنت لم تستلمي مكافأتك بعد فأنا مستعدة للانتظار لكن ليس طويلاً.

(3)

البطن يرتفع يوماً بعد آخر.. وسارة في لجة من لجج بحر عاتي الظلمات لا تكاد تميز رأسها من قدميها ولا تعرف كيف ت العظمى فكرت بالانتحار مراراً، لكنها تخشى الفضيحة والعار فيما بعد تخلص من مصيبتها الذي سيلتصق باسم أخيها فيصل إلى الأبد، فكرت أن تلجأ إلى فيصل وتخبره الحقيقة وتسأله الحل.. فربما يقترح عليها العودة إلى لندن وإسقاط الطفل هناك ثم تعود وكأن شيئاً لم يكن.. تسلطت عليها هذه الفكرة ليلاً ونهاراً حتى قررت تنفيذها..

اختارت مبنى الكلية حتى لا يسمعها أهل المنزل.. وبعد أن انتهت فترة الاستراحة عادت الطالبات إلى قاعات المحاضرات وبقي فناء الكلية فارغاً اتجهت إلى الخلف وتوارت في مكان أمين ثم أدارت رقم هاتف أخيها على جوالها بأصابع مرتجفة وبعد نغمات متقطعة جاءها الصوت الحبيب..

ـ سارة.. أنت تحادثيني بنفسك هذه المرة.. ما شاء الله..

بصوت مرتجف أجابت:

ـ لقد غيرت رقم هاتفي الجوال..

ـ مبروك.. اذن أبعثي لي الرقم لأحادثك مباشرة.. كيف حالكِ؟

ـ بخير

ـ أنت عند عمتي أم عند أبي؟..

قاطعه قائلة:

ـ أنا في الكلية حالياً.. لكنني.. لكنني متعبة يا فيصل..

بعتاب قال:

ـ لماذا لا تتناولين دواءكِ بانتظام.. الدكتور يقول لابد من لانتظام على الدواء لتري النتيجة الطيبة إن شاء الله.. هل تتناولين لدواء بانتظام؟

ـ ن... نعم

ـ هل تريدين أن أسأل الطبيب أي سؤال؟.. قولي يا سارة لا ترددي

ـ لا.. سأستمر على تناول الدواء..

ـ هل تحتاجين لشيء آخر.. قولي يا سارة ولا ترددي..

ـ كلا لا احتاج لشيء..

ـ كاتيا وروبير يسألان عنكِ كثيراً..

ـ مع السلامة يا فيصل

تنهدت بقوة بعد أن انتهت المحادثة ومضت بخطوات متثاقلة نحو قاعة المحاضرات.. «لن ينقذها من الأمر سوى معجزة» هتفت ورأسها يتخاذل بيأس..

تذكرت ضحكها المصطنع مع ليلى على زوج المستقبل واستهجان عمتها لذلك.

قالت عمتها عابسة:

ـ الرجل لا يعيبه إلا جيبه وعبد العزيز الحمد الله رجل مقتدر وجيبه عامر..

هتفت ليلى باسمة

ـ لكنه يا أمي مطلق.. للمرة الثانية يطلق زوجته.. بالتأكيد فيه عيب خطير وإلا لما يطلق مرتين..

زجرتها ألام قائلة:

ـ عبد العزيز ابن عمة أمي مدير مدرسة ملتزم في الدين والأخلاق وله بيت ملك ومطعم في حي الربوة يدر عليه دخلاً كبيراً.. أما الزواج والطلاق فهذه مسألة حظ والدنيا حظوظ..

ثم وجهت الكلام لسارة:

ـ ما رأيك يا سارة؟ دعي ليلى عنك فإنها لا تفهم في مثل هذه الأمور لقد طلبك عبد العزيز للزواج.. ما رأيك؟

صمتت سارة وداخلها ينزف.. ترى لو تدري عمتها بأنها تحمل جنيناً في أحشائها ماذا تفعل؟ هل تعرض عليها الزواج كما تفعل الآن أم تبصق في وجهها وتلقيها في الشارع؟

أفاقت على صرخة ليلى.. يا إلهي.. هل تفكرين بالأمر يا سارة؟..هل الأمر لديك يستحق التفكير؟ أم انك تفكرين كيف تقتلين هذا العبد العزيز لأنه تجرأ وطلب يدكِ للزواج؟

قالت الأم بغضب:

ـ ليلى.. لا تتدخلي فيما لا يعنيكِ واذهبي إلى حجرتك ودعي سارة تفكر بالأمر.. فالرجل ممتاز ولا يعيبه شيء..

نهضت سارة بتثاقل وقالت لعمتها بهدوء:

ـ دعيني أفكر يا عمتي وسأرد عليك إن شاء الله قريباً..

وفي الحجرة التي تضم ليلى وسارة.. هاجمتها ليلى بعنف:

ـ هل أنت مجنونة يا سارة؟ هذا الرجل بخيل وتافه ومطلق مرتين ولا يصلح لك أبداً..

قالت سارة بهدوء:

ـ وهل تقدم لي أحد غيره؟

هتفت ليلى:

ـ هذا لا يعني أن تقبلي بأي شخص يتقدم لك، فكأنك تلقين نفسك بالجحيم..

أجابت سارة بالهدوء نفسه:

ـ لكنني لا مأوى لي يا ليلى ولا بيت ولا استقرار.. أنا الآن في بيتكم وبعد غدٍ في بيت أمي وبعده بفترة في بيت أبى.. حتى متى؟

قالت ليلى بحزن:

ـ أعرف يا سارة.. لكن افترضي جدلاً لو طلقك هذا الرجل.. ماذا تفعلين؟ وهو حتماً فاعل لأنه لا يعجبه العجب.. فسوف يسوء وضعك أكثر وأكثر..

أطرقت سارة رأسها بحزن وهي تعلم تماماً أنها لا تستطيع أن تقبل بهذا الرجل ولا بغيره ولا حتى بأسوأ رجل في الوجود، وهذا الطفل مستقر داخلها باستماتة وكأنه يأبى إلا أن يفضحها على الملأ وعلى رؤوس الأشهاد..

ألقت برأسها على الوسادة عازفة حتى عن الحديث.. أحست بالضياع يكتنفها من مختلف الجهات.. تعالت خفقات قلبها حتى شعرت بأنه يدوي في أذنيها اعتصرها الموج والموج الآخر.. وآخر.. وآخر..

استسلمت للنوبة تماماً لتبتلعها الهوة الكبيرة السوداء وتسقط.. وتسقط.. وتسقط

قررت في لحظة جنون أن تقتحم عيادة أي طبيب وتسأله أن يخلصها من هذا الحمل غير المرغوب فيه، جازفت، دخلت إحدى العيادات في شارع الخزان تحمل خوفها وألمها وبشاعة المصير الذي ينتظرها.. قالت للطبيبة كل شئ وبكت مع كل كلمة وكأنها انفجارات بركان انتظر طويلاً ليطلق بحممه اللاهبة..

قالت الطبيبة بعد صمت طويل:

ـ حملك تعدى الأشهر الثلاثة، وسيكون من الخطر عليك إجهاضه، لكن حاولي إخفاءه حتى موعد الولادة.. وقتها أستطيع مساعدتك..

امتقع وجهها لألم الصدمة.. وكأن الطبيبة أحست بما يعتمل داخل جوفها فأضافت:

ـ لكن لا تيأسي حاولي عن طريق الأعشاب.. أنا لا أعرف في هذا الأمر جيداً، لكن ربما يفيد حب الرشاد أو زيت الخروع.. اسألي قبل المجازفة.. لكنني أتمنى أن تصبري حتى موعد الولادة.. وقتها لكل حادث حديث..

خرجت من عيادة الطبيبة وكأنها تدلف إلى عالم الجحيم.. هل ستنتظر ستة أشهر أخرى.. مستحيل!! والبطن المتضخم ألن يلاحظه احد؟ عمتها، والدتها، زوجة أبيها عدا الأخريات.. اسودت الدنيا في عينيها، فقررت مصارحة ليلى بالأمر.. لابد أن يشاركها أحد هذا الأمر الجلل والكارثة التي غدت ككرة الثلج تتدحرج لتستفحل وتتضخم يوماً بعد آخر..

انتهزت فرصة خلو الدار.. الأم وبناتها مدعوات لحفلة زفاف وهي وليلى لا ترغبان في الذهاب.

وقفت ليلى أمام المرآه تتأمل قميصها الجديد وسارة مستلقية في سريرها بأفكارها المشوشة المضطربة..

قالت سارة فجأة.. ليلى.. أنا حامل..

وقفت ليلى مكانها مصعوقة.. تجمدت يداها لوهلة على ياقة القميص ثم التفتت وكأنها ارتابت بما داعب أذنيها من كلمات لا تعقل.. ماذا قلت يا سارة؟

كررت سارة بصوت ثقيل: أنا حامل يا ليلى.. حامل..

احتقن وجه ليلى حتى كادت الدموع تفر من عينيها وهي تقول:

- سارة أنا لا أفهم ما تقولين أوضحي أرجوكِ..

قالت سارة بأسى:

- ماذا أوضح لك ليلى وماذا أقول.. لقد رفضت أن أذهب عند أمي قبل أيام وطلبت المكوث لديكم أكثر لهذا السبب.. لأنني أريد مصارحتك لقد تعبت يا ليلى.. السر الذي أحمله حطمني ودمر حياتي وقذف بي إلى أتون اليأس بلا أية بارقة من أمل..

ومضت تحكي وليلى تستمع، حيناً صامتة، وحيناً غاضبة، وحيناً باكية..

- والآن يا ليلى.. ما العمل؟

تعانقت الصديقتان وسط بكاء محموم.. أخيراً قالت ليلى:

- سارة البكاء لا ينفع.. لابد من عمل شئ.. أي شئ..

أطرقت الاثنتان صامتتين حتى رفعت ليلى رأسها فجأة:

- سارة.. أعرف امرأة عجوز كانت أمي تتردد عليها قديماً.. تعالجها وتدلكها وتعطيها خلطات وأعشاباً وما شابهها.. ما رأيك أحاول إيجاد عنوانها ونذهب إليها.. ربما لديها حل لك..

هبت سارة واقفة:

- أرجوك يا ليلى خذيني لها بأسرع وقت ممكن قبل أن يستفحل الأمر فلا نستطيع فعل شئ..

استغرق الأمر أياماً قبل أن تستطيع ليلى أن تأخذ رقم هاتف المعالجة العجوز بدعوى أن أم إحدى صديقاتها مريضة.. هاتفتها ليلى

وأخذت عنوان منزلها وواعدتها السبت عصراً ستكونان عندها في البيت..

عصر السبت قالت ليلى لوالدتها أنها ستذهب مع سارة لأسواق المجد القريبة مع السائق.. قالت الأم بلا مبالاة:

- اسألي شقيقتك نوال إذا كانت تود الذهاب.. لأنها طلبت مني منذ أيام أن تشتري عباءة جديدة..

ثم طفقت تنادي نوال.. نوال.. أقبلت نوال غاضبة كعادتها.. ليلى خائفة تنظر لسارة نظرات زائغة غريبة، وسارة لا تنظر لأحد بوجه ممتقع شاحب وجسد متهالك تنظر للا شيء..

قالت نوال بحدة حينما أبلغتها والدتها بالأمر.. لن أذهب معهما.. تنفست ليلى الصعداء وسارة بقيت على جمودها وشحوبها ومرضها..

تجاوز السائق بهما الشوارع الفسيحة وبدأت الشوارع تضيق والطرق تتعرج وترتفع وتنخفض.. قالت ليلى لسائق الليموزين مؤكدة:

- حي العود.. هل تعرفه؟

- ابتسم السائق قائلاً: نعم.. أعرف.. أعرف..

انتهى بهما الأمر إلى زقاق ضيق بالكاد تعبر السيارة خلاله.. ملئ بأطفال رثي الملابس قذري الهيئة.. بلا أحذية على الإطلاق.. أغلبهم من الأطفال السمر ذوي البشرة الداكنة.. سألت ليلى أحدهم عن بيت «أم صالحة»..

مسح الطفل افرازات أنفه الكثيرة قبل أن يشير إلى باب منخفض حالك اللون وجدران متهالكة..

اتجهتا إلى الباب بعد أن طلبت ليلى من السائق الانتظار.. فتحت لهما الباب امرأة عجوز سمراء البشرة تضع حجاباً سميكاً على رأسها دعتهما للدخول..

ترددت سارة.. جذبتها ليلى من ذراعها، قالت سارة بوجل وهما تتجهان لحجرة ضيقة بأثاث رث باهت لا يتجاوز سجادة بلا لون وعدد قليل من المراتب الإسفنجية المنخفضة ممزقة الجوانب:

ـ إن سليم ينتظرنا هناك عند أسواق المجد.. فماذا إذا تأخرنا عن الحضور.. هل يبلغ والدتك؟

همست ليلى:

ـ أنه لا يعلم أننا خرجنا من الباب الآخر واستقللنا سيارة أجرة.. هو يعلم أننا داخل السوق فقط..

قالت العجوز باقتضاب:

ـ من منكما المريضة؟

أشارت ليلى لسارة.. قالت سارة بتردد:

ـ أنا.. أنا لست مريضة.. و.. لكن..

قاطعتها العجوز بصرامة:

ـ اقتربي يا ابنتي..

اقتربت سارة وضربات قلبها تعلو وتعلو.. حتى خشيت أن تعاودها النوبة في هذا المكان الغريب..

ـ ما اسمك يا ابنتي؟

ـ اسمي.. سارة..

ـ واسم والدتك؟

ـ أمي.. أمي اسمها عواطف

أعطني شالك هذا قليلاً وانتظريني..

غابت العجوز في الداخل.. التقت عيناهما في حيرة.. قالت سارة بجزع:

ـ كيف أفهمها حالتي يا ليلى.. كيف تساعدني على الإجهاض وهي لا تفهم

أشارت لها ليلى بسبابتها أن تهدأ وتنتظر.. أقبلت العجوز بعد برهة.. لمعت عيناها وهي تقول:

ـ لديك مائتا ريال؟..

فتحت ليلى الحقيبة مسرعة ونقدتها المبلغ.. افترت أسنان العجوز عن ابتسامة قبيحة وهي تقول:

ـ لقد كشفت لكِ.. أنت يا ابنتي مسحورة منذ 7 سنوات وزوجة والدك لطيفة الجارن هي من عملت لك هذا العمل الخبيث..

(4)

أخذت ترقب الحشائش الخضراء وهي ساهمة.. بعود أخضر صغير أخذت تنبش الرمل، نملة كبيرة تتسلق العود سحقتها بيدها، لازالت أطرافها تتحرك.. حفرت لها حفرة صغيرة ثم دفنتها وسكبت عليها بقايا فنجان الشاي الذي برد في يدها.. التفتت ترقب والدتها وهي تفترش سجاداً بألوان زاهية فوق الحشائش الخضراء في الحديقة تتحدث مع زوجها بحديث لا يكاد ينقطع بسبب إزعاج الصغار حتى يتصل مرة أخرى..

تساءلت.. ترى هل والدتها سعيدة أم هي تمثل السعادة حتى لا تغدو حياتها انكسارات متواصلة.. وهل تشعر بابنيها من زوجها السابق أم خلعتهما من حياتها وطلقتهما كما طلقت زوجها السابق، وأصبح لا يربطها بهما سوى الواجب والمفروض..

شاب يمضغه المرض والغربة، وفتاة تنوء بأحمال تعجز عنها الجبال.. أمراض وخطايا وهزائم بلا بارقة من نصر تلوح في أفق مكفهر.. حتى استضافتها لها المؤقتة تشعر سارة بأنها مزعجة لها وثقيلة على نفسها..

ـ سارة.. هل تريدين المزيد من الشاي؟

أجابت سارة بالنفي بصوت واهن معذب.. تعاملها والدتها كخادمة أجيرة، لا تجلس معها وزوجها وصغارها على البساط نفسه

بل تبتعد عنهم أمتاراً قليلة ويجلبون لها ما ترغبه من أكل أو شرب ولا تستبقيها والدتها معهم أبداً.. بل إن سارة استمرأت هذا الوضع حينما شعرت إن والدتها لا تريد منها أن تخالط زوجها بأية طريقة كانت..

منذ يومين حطت رحالها لديهم، فرح بها أخوتها الصغار وتضايق منها الكبار.. سألتها والدتها البارحة دون أن تلاحظ شحوبها:

ـ غداً سنخرج في نزهة لحديقة العليا.. هل تذهبين معنا أم تبقين في البيت؟..

صرخ الصغار فرحاً.. أمسكت بيدها رغد شقيقتها الصغرى زاعقة بفرحة: سارة ستذهب معنا.. ستذهب معنا..

أومأت برأسها علامة الإيجاب رغم أنها غير راغبة في الذهاب، لكنها أرادت ألا تفسد فرحة الصغار..

قالت الأم بهدوء:

ـ أذن ساعدي اخوتك على حمل ألعابهم وأغراضهم الشخصية..

ومضت أمامها تخطر ببنطال ضيق وقميص بلا أكمام وشعرها الأشقر المصبوغ ينهمر على وجهها بقصة الكاريه الفرنسية..

نظرت سارة لعباءتها الطويلة الفضفاضة من رأسها حتى أخمص قدميها وقارنتها بعباءة والدتها المفصلة على مقاس الجسد وكأنها تلبس ثوباً أسود يبرز تفاصيل ومفاتن جسدها لا عباءة تستره.. ثم تضع اللثام على وجهها مبرزة عينيها المثقلتين بكل الأصباغ والألوان..

تساءلت.. متى تكبر والدتها؟.. متى تنضج؟.. متى تعرف أن

الحياة ليست لهواً ولعباً وزينة وان المسئولية كبيرة وعظيمة وخطيرة.. أين الأم المتفهمة؟ الناضجة، المفكرة باتزان، المحبة بحنان، القوية بإيمان.. أين هي لتدفن في أحضانها الدافئة كل الهموم الجاثمة على صدرها والتي تسد عليها منافذ الحياة وتغلق دونها أبواب الأمل؟..

تساءلت.. هل جمالها هو السبب؟ لكنها تذوي الآن وتذبل، وجمالها الذي كان يبهر العائلة بأسرها غدا مجرد أطلال تغطيها الأصباغ، حتى جسدها ترهل وبدأت الشحوم تتراكم وطيات الجلد تتعرج وتبدو ظاهرة للعيان، إنها تشفق عليها وترثى لها، فماذا سيكون عليه حالها بعد سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة؟ ماذا تفعل إذا ذبلت وذوت وملأت تجاعيد الزمن وجهها الذي كان جميلاً؟

ـ سارة.. هل تلعبين معي الكرة؟..

حدقت سارة إلى وجه أخيها الصغير راكان باسمة من وراء نقابها السميك

قالت مشيرة إلى عباءتها الفضفاضة:

ـ لا أستطيع أن ألعب معك يا راكان.. فأنا كبيرة وارتدي العباءة..

قال بسرعة:

ـ اخلعي العباءة.. وسألعب معك ورغد تلعب معنا وريم أيضاً..

طمأنت الصغير بكلماتها:

ـ عندما نعود للبيت سنلعب معا كرة قدم ولعبة الحبل وأيضا «عسكري وحرامي»..

قفز راكان فرحاً:

ـ حقاً.. هل حقاً سنلعب «عسكري وحرامي»؟

ركض بعيداً ليبلغ اخوته.. تعثر بأصغرهم رائد الذي ألقى بنفسه على الأرض صارخاً بعويل يصم الآذان.. لم تتحرك الأم من مكانها وكأنها لم تسمع شيئاً، اضطرت سارة للنهوض لإسكات الصغير وإلهائه بإعطائه الكرة التي نسيها أخوه الأكبر..

انشغلت بعدها سارة بمراقبة عائلة كبيرة جلست غير بعيد عن مكانها، تصلها ضحكاتهم باستمرار، وكأنهم حضور فرقة مسرحية كوميدية لا يملون ولا يكلون عن الضحك.. تمنت أن تكون معهم وتنسى غربتها الحالية مع أم لا تربطها بها صلة ورجل غريب عنها..

هدأت نفسها قليلاً حينما أعلنت الأم انتهاء النزهة.. أسرعت إلى السيارة تحمل ما استطاعت من مستلزمات النزهة علها بذلك تسقط جنيناً سكنها رغماً عنها وعنه..

في الطريق سألت الأم:

ـ من يريد ذرة؟

تعالت صرخات الصغار مطالبة بالذرة.. صمتت سارة تحاول كتمان ما تعاني من غثيان وضيق في التنفس..

سألتها الأم:

ـ وأنت يا سارة؟..

هتفت بسرعة:

ـ كلا.. لست جائعة..

توزعت عرانيس الذرة المشوية على الأم والأب والأطفال وانتشرت في السيارة المكيفة رائحة الذرة.. ازداد الغثيان ضراوة، وأطبق ضيق التنفس عليها الخناق حتى غدت تجاهد لاستلاب نسمة هواء تنعش به رئتيها المجهدتين..

بكى رائد لأن ريم نهشت من عرنوس الذرة خاصته، فألقاه في أرضية السيارة.. طلبت منها والدتها أن ترفع عرنوس الذرة من الأرض وتبقيه معها حتى الوصول للبيت..

حملت العرنوس مرغمة منهوش معظمه ويغطي اللعاب والتراب جزءه الآخر..

لم تستطع الاحتمال أكثر.. المرض.. الحمل.. الوهن والغضب المكبوت تفجر كل شئ في لحظة، فانطلق القيء مندفعاً من جوفها حاراً حامضاً محرقاً ليغمر عباءتها وغطاءها وعرنوس الذرة الذي تحمله وينتشر أسفل قدميها في أرض السيارة وقليل متناثر على كتف أخيها الصغير الذي بدأ يصرخ بعنف لم يكن له مثيل..

أوقف زوج والدتها السيارة لتنطلق الأم في شتائم متواصلة لها ولعمتها ولوالدها. غرقت في الخجل والإحراج والقئ وزوج والدتها يقول للأم بهدوء:

ـ هذا رغماً عنها.. اهدئي ولا تنزعجي.. عندما نصل ستغسل الخادمة السيارة كلها.. الأمر لا يستحق كل هذا الانفعال..

وصل الجميع إلى البيت بعد رحلة قصيرة انتهت بفشل ولوم وتقريع..

ألفت سارة نفسها في وضع لا تحسد عليه، فتحدرت دمعات على وجنتيها تمهد لعاصفة من الدموع أن تهطل وتهطل وتهطل، ثم أحست فجأة بتصاعد شديد في أنفاسها، وضغط هائل على صدرها مع خفقان مستمر يعلو ويعلو، أدركت أنها النوبة، تعاودها بعد غياب، استسلمت لها تماماً دون أية مقاومة، تخاذلت قدماها وشعرت بأنها تسقط في فوهة كبيرة سوداء توشك على ابتلاعها.. العرق الغزير ينز من جسدها ويبللها تماماً..

أفاقت على صوت رغد:

ـ ما بك يا سارة انك تصرخين؟

حاولت لملمة جراحها المنثورة وصوتها المتعب يخرج مترنحاً:

ـ لا شئ يا صغيرتي أنا متعبة قليلاً..

ـ هل أغضبتك أمي؟ هل تضايقت منها؟ هل ستذهبين وتتركينا؟

ابتسمت رغماً عنها.. تذهب..أين تذهب؟.. إذا كانت أمها تكرهها وترفضها فكيف بالناس أجمعين!! غداً ستكبرين يا رغد وتفهمين، وستدركين عمق مأساتي وقسوة عذابي.. وستعذريني.. كثيراً ستعذريني.. وربما بكيت من أجلي..

ـ كلا يا رغد لست غاضبة ولن أذهب..

في الغد كانت على موعد مع مكالمتين هاتفيتين.. الأولى مع

فيصل وقد استبد به القلق عليها منذ مكالمتها الأخيرة.. سألها عن انتظامها في تناول الدواء أجابته بالإيجاب رغم أنها قد تركت الدواء منذ فترة طويلة منذ أدركت عدم جدواه..

اتصلت بها ليلى تسألها عن أحوالها وماذا قررت أن تفعل في مصيبتها..

قالت بحرقة شديدة:

ـ لا شيء يا ليلى.. حتى الآن لا أدري ماذا أفعل..

ليلى بهدوء:

ـ وهل تعتقدين أنه قد وضع لك سحر فعلاً كما تقول تلك المرأة؟

أجابت سارة:

ـ وهل يغير هذا من الأمر شيئاً يا ليلى؟.. أتمنى أن أجد حلاً لمصيبتي هذه ثم أفكر في موضوع السحر..

ليلى بصوت هامس:

ـ لقد حادثتك يا سارة بعد أن قرأت عن زيت الخروع يقال أنه فعال في إجهاض الأجنة أيضا بذور حب الرشاد.. و..

قاطعتها سارة:

ـ ليلى لست في وضع يحتمل إجراء أية تجارب غير مضمونة قد تؤدي إلى فضيحة مدوية، أريد حلاً جذرياً ينهي الموضوع بشكل مؤكد..

صمتت ليلى.. طال صمتها ثم همست:

ـ معكِ حق يا سارة.. قلبي معكِ..

شعرت سارة أن ملابسها بدأت تضيق عليها عند الخصر، حتى تنورتها الواسعة أصبحت ضيقة عليها وتغيرات واضحة في صدرها وحتى ملامح وجهها.. الرعب يسيطر عليها، لكن الحل ما زال حلماً يداعب مخيلتها..

عادت من الكلية ذات يوم ووجدت والدتها في مزاج رائع تقرأ إحدى المجلات.. فاض الألم والوجع والحزن.. تمنت لو تلقي بكل عذابها في حضن أمها وترتاح.. لابد أن تكون أمها أماً..

سألت والدتها بصوت مرتجف:

ـ هل تريدين أن أساعدك في إعداد الغداء؟..

ردت الأم بهدوء وهي تتفحصها ربما للمرة الأولى منذ حضرت للإقامة لديها..

ـ أرجو ألا تفكرين بالأكل كثيراً، فقد سمنت يا سارة وقد يبدو جسدك بشعاً فيما بعد، فلا يتقدم أحد لخطبتك..

ثم أردفت:

ـ ان عمتك جاهلة من الرعيل القديم، فلا تفهم معنى رشاقة أو جسد جميل، فحتماً هي من سعت لزيادة وزنك ظناً منها بأن جمالك سيزداد ثم تفارقينها سريعاً بالزواج..

تمتمت سارة بألم ووجهها يحمر انفعالاً:

ـ كلا يا أمي عمتي ليس لها دخل في سمنتي.. انني.. أنا.. أنا التي.. أنا التي أصبحت أحب الطعام..

مصمصت الأم بشفتيها في حيرة قائلة:

ـ كنت أضرب بكِ الأمثال أمام اخوتك ليقتدوا بكِ في الرشاقة والجسد النحيف الجميل أما الآن..

دوت صرخة ألم في أعماقها.. كفى.. كفى يا أمي.. كفاكِ تباكياً على جثة قتلتها يداكِ وروحاً كانت ترفرف خنقتيها بكفيكِ المخضبتين بالحناء، وحضناً دافئاً حرمتيني منه ولم تكتفي بهذا بل اغتلت أحلامي واحداً بعد الآخر، وألقيتيني وأخي في غابة من الرمال المتحركة لا نكاد فيها نعرف رؤوسنا من أقدامنا..

جاهدت ليبدو صوتها طبيعياً:

ـ سأحاول مستقبلاً تقليل طعامي..

عندما سمعت صوت جلبة الصغار عرفت أن زوج والدتها قد حضر مع صغاره.. أسرعت إلى الداخل كيلا تضايق والدتها التي تريد أن تستقبل زوجها دون وجود أغراب..

تناهى إلى سمعها أصواتهم وضحكهم وهم يتناولون طعام الغداء بسعادة، وهي قابعة أمام أطباق حملتها لها الخادمة دون شهية.. دون شهية على الإطلاق.. تساءلت بمرارة والأطباق أمامها ممتلئة لم تمس.. لماذا لا تستشعر السعادة أبداً في بيت والدتها؟ قليلاً في بيت والدها، أكثر من القليل في بيت عمتها.. أما في بيت والدتها فلا تعرف إلا المرارة والحزن والألم وانبثقت الحقيقة من بين طوفان الدموع «لا مكان لها في بيت والدتها».

(5)

لم تكن تدري أي رجل هو أبوها حتى عاشت معه وهي في أحلك أوقاتها ظلاماً.. لم تكن تعرف أنه مسير لا مخير، لم تكن تدرك ضعفه وهوانه وتخاذله إلا عندما اقتربت منه وهي في قمة الضياع والحزن والأسى..

في لحظات الظلام الحالكة تبدو الأشياء على حقيقتها وتسقط ورقة التوت إلا عن الحقيقة العارية المجردة، فلا أضواء تضفي عليها هالة من نور ولا ألق الفجر الذي يجمل الأشياء..

بدا لها أبوها كما لم تعرفه أبداً من قبل، خائراً جباناً خائفاً من كل شيء وأي شيء..

بالبرود المعتاد نفسه استقبلوها.. أحست بنظرات زوجة أبيها تخترقها هذه المرة قوية نافذة قاهرة.. ارتجفت على الرغم منها.. اجتاحتها قشعريرة باردة هزت أطرافها وهي تتساءل بصمت.. ترى هل هذه النظرة قادرة على كشف أمري وفضح خطيئتي؟.. حاولت التجاهل والنسيان كعادتها (حتى هبط عليها) الصوت الصاعق:

ـ لقد ازداد وزنك كثيراً يا سارة..

اضطربت سارة وأحمر وجهها وأحست بركبتيها تتخاذلان وترتعشان.. أحست بأن المرأة أدركت بشخصيتها القوية ما يعتمل في داخلها..

لكن زوجة والداها تابعت بحسد بَين:

- اخبرينا ماذا تأكلين؟ ألا ترين أختك نحيفة العود ضامرة؟..

التفتت سارة وهي تتنفس الصعداء تتأمل أختها مشاعل ذات الخمسة عشرة ربيعاً وجه شاحب ضامر يبرز فيه عينان سوداوان واسعتان، شعر اسود ناعم طويل، فارعة القامة، عظامها بارزة من خلال جسدها النحيل..

تأوهت مشاعل بدلال:

- أمي.. لا أريد أن أسمن.. هذه هي الموضة..

ردت ألام بصوت حاد:

- لكننا يا حبيبتي في مجتمع لا يؤمن بالموضة التي تعرفينها خاصة الشباب.. إذ لم يثق أحدهم بأن زوجة المستقبل ممتلئة الجسد مثل أختك سارة فلن يتزوجها..

أخيراً خرج صوت سارة مبحوحاً متردداً وهي تتحاشى النظر للآخرين:

- خالتي.. أنا لا آكل سوى الأرز والدجاج..

وكأنها وضعت يدها على كلمه السر، وكأنها اكتشفت وجبة فاخرة باهظة الثمن قادمة من المريخ، صرخت زوجة والدها في وجه ابنتها:

- أرأيت.. تأكل الأرز والدجاج.. وبالتأكيد بكميات كبيرة.. وأنت.. رحم الله حالك.. لا تأكلين سوى السلطة. وفي الليل تنهال

طلباتك هامبورجر، بيتزا وغيرهما من هذه المأكولات التي لا تغني ولا تسمن من جوع..

صمتت سارة على مضض.. ابتلعت كلمات الحسد والغيرة والحقد ولم ترد.. لم ترغب في القول إن العكس صحيح وان الأرز والدجاج لا يقارنان بهذه المأكولات التي تزيد الوزن بالفعل..

أحست سارة أن مشاعل قد تغيرت عن ذي قبل، فقد أصبحت متباعدة عنها، حذرة، صامتة غالباً ولم تعد ترتاح للجلوس معها ولا لمبادلتها الحديث..

عندما انفردت سارة بذاتها تساقطت الأقنعة واحداً تلو الآخر، بدت كما هي وكما كانت دائماً.. حزينة وحيدة ومريضة..أنتحبت باكية رغماً عنها فقد هالها الصقيع الذي تستشعره داخلها، وغربة أدمتها رغم وجودها في بيت ولدت فيه..

أب لا يربطها به سوى الشفقة المرة التي تتأجج داخلها كلما رأته جالساً بينهم مشتت الفكر.. زائغ العينين.. حائراً بين رغبته في إرضاء زوجته التي لا ترضى والترحيب بابنته التي لا يراها إلا كل عدة أشهر..

فاضت عيناها دموعاً وشفقة عليه، فلم تعرفه إلا خنوعاً صابراً مطأطئ الرأس سواء في حاله الرضا أم الغضب أو فيما بينهما، لا يغضبه شيء ويرضيه كل شيء وتستدر دموعه كل الأشياء.. أحست بالشوق إليه يطفح داخلها رغم أنها كانت معه منذ قليل، لكنه القريب البعيد، الواقع والحلم، الأمل واليأس.. لم يهزها الشوق إليه كما

هزها في هذه اللحظات.. لم تشعر باليتم كما شعرت به هذا الوقت.. فراغ كاسح مؤلم يتقوقع داخل ذاتها آبياً التلاشي، وكأنه قد تكون من فقاعات صغيرة انسلت داخلها وهي ترى والدها هذا المساء دون أن تجرؤ على الاقتراب منه أو حتى مبادلته الحديث كأية ابنة مع أبيها..

تراه من بعيد.. وكأنها في محل فخم ترى فيه الآنية البلورية الثمينة من خلف الزجاج دون أن تجرؤ على لمسها أو حتى مداعبتها من وراء الزجاج..

خرجت من الحجرة التي تتقاسمها مع أختها مؤقتاً.. رأت والدها وحيداً يقرأ جريدة، اجتاحتها فرحة زاعقة وكأن الله قد حقق أمنيتها، هرعت إليه..جلست إلى جواره تتأمله بصمت وكأنها تتعبد في محراب.. بافتتان وبهيبة ترتشفه عيناها..هذا الوجه الطيب الذي اخذ فيصل شقيقها اغلب ملامحه بلحية شذبتها زوجته لتكون رباعية على مزاجها هي دون أن يجرؤ على الاعتراض..

همست بصوت مبحوح:

ـ أبي

انتبه لها فجأة وكأنه يراها للمرة الأولى.. ابتسم مرحباً وهو يضع الجريدة جانباً:

ـ أهلاً يا سارة.. حدثيني عن أخبارك يا ابنتي..

قالت وهي تنظر إليه بشغف:

ـ لا جديد أبي

قال بابتسامة صادقة:

ـ وما أخبار دراستك؟

هزت كتفيها بلا مبالاة قائلة:

ـ جيدة وان كنت في السابق أفضل قليلاً، لكن أعدك أبي أنني سأبذل قصارى جهدي

مد يده ليربت على كتفها بحنان.. ثم تنشق الأرض لتخرج زوجة أبيها لا تدري من أين..يلون محياها الغضب وتقذف عيناها حمماً نارية لاهبة..

لتصرخ بقوة:

ـ هل أحضرت ما طلبته منك منذ قليل..

ضرب والدها يده على رأسه قائلاً:

ـ يا الله.. لقد نسيت.. هاتفني عبد القادر زميلي وعندما انتهيت وجدت نفسي أتصفح الجريدة وقد نسيت كل شيء..

وكأنه ألقى المزيد من الوقود على نار غضبها فاشتعل أكثر:

ـ أنت دائماً هكذا، طلباتي تنساها وبكل برود ولا تحضرها إلا بطلوع الروح.. وغيري تعامله بمنتهى الحنان والحب..

هتف الأب مستعطفاً:

ـ لطيفة اهدئي أرجوك.. الأمر لا يستحق كل هذا.. المطعم قريب والبيتزا ستكون عندك خلال دقائق معدودة..

تشنجت وازداد وجهها احمراراً:

ـ ولماذا لم تهتم بالطلب في وقته؟ لقد مللت منك ولم أعد أطيق كل هذا..

ـ اهدئي.. ولا تحرقي أعصابك أكثر.. أنا آسف..

بكت بحرارة وهي تهتف:

ـ وماذا ينفع الأسف لقد أعددت كل شيء، الصحون والشوك والملاعق وأكواب العصير والبيبسى، وبدلاً من أجدك داخلاً وفي يدك ما طلبت.. أجدك مشغولاً تدلل ابنتك العجوز التي كبرت على الدلال، بينما أبناؤك الصغار يتمنون أن تحتضنهم وتربت على أكتافهم، فهم الذين يحتاجونك حقاً وليس هذه..

فهمت سارة كل شيء.. هذا الغضب المفتعل وهذه الدموع المزيفة وهذه الضجة غير المبررة كلها.. كلها بسبب أن والدها وضع يده على كتفها فقط لا غير، وكأنه ارتكب جريمة كبرى أو فعل فعلة لا تغتفر.. وهي التي قضت عمرها كله محرومة من عطفه وحنانه ورعايته، وليس لها منه نصيب سوى الفتات الذي يتبقى من إخوانها ووالدتهم بعد أن يأخذوا كل ما باستطاعتهم أخذه منه..

ابتلعت دموعها لتهدر عواصفها الداخلية التي اتحدت مع الحزن والألم والإحساس باليتم.. والعجز. والعجز القاتل.. عدم القدرة على فعل شيء..أي شيء لتغيير الوضع القائم الظالم المهين..

تراجعت سارة خطوات إلى الوراء قبل أن يقول أبوها بصوت مرتجف:

ـ هيا يا لطيفة سأعوضك خيراً.. ارتدي ملابسك وسنتناول العشاء في أفخر المطاعم..

قالت زوجة الأب باستسلام:

ـ والأولاد..

انطلق صوت الأب بمرح وقد انزاحت عن صدره غمة كبيرة:

ـ نعم والأولاد.. وأنت يا سارة..

بتر الجملة حينما حدجته زوجته بنظرة صاعقة متوعدة.. ثم تابع قائلاً:

ـ أنت يا سارة.. اذهبي لحجرتك يا ابنتي وسنخرج في يوم آخر..

قالت زوجة الأب بامتعاض:

ـ المفروض ألا تخرج سارة لمطاعم أبداً فوزنها لا يحتمل..

مشت سارة بخطوات وئيدة إلى حجرتها المؤقتة.. لم يعد لديها دموع تذرفها ولا آمال تنشطى في انتظار الآتي، ولا أحلام تنسج عليها زخارف الزمن القادم.. نظرت إلى بطنها المرتفع نظرة حقد وغل.. حتى متى يحسبها الناس سمنة طبيعية لا غير.. ومتى تتكشف الحقائق وتتبدى الخفايا ويظهر المستور..

بدأت تثقل مشيتها شيئاً فشيئاً، وأصبحت مع الأيام تشعر بحركة تدور داخل أحشائها.. شهقت بعنف حينما أحست بأول حركة

تساءلت بحرقة «هل بدأت الحياة تدب في جنيني.. هل غدا يحس ويشعر ويدرك وجوده»؟..

تحاول إغلاق التنورة في الصباح المبكر استعداداً للذهاب للكلية، فلا تستطيع، تكرر المحاولة كثيراً بلا فائدة، تطلب من مشاعل مساعدتها.. تنجح مشاعل في إغلاق الزر الكبير فقط، لكن السحاب لا يغلق، نصحتها مشاعل وهي تكتم ضحكتها أن تسدل القميص على التنورة حتى لا يبدو السحاب مفتوحاً..

أدركت سارة أن الأمر بحاجة إلى حسم سريع وإلا فسينكشف كل شيء خلال فترة قصيرة..

اجتمعت مع زميلاتها في الكلية على طبقين من الحلويات وقهوة أحضرتهما حصة زميلتها من منزلها.. قالت حصة ضاحكة:

ـ كلكن تأكلن من البسبوسة وحلا التمر عدا سارة، فالمسموح لها هو القهوة فقط.. فلو سمحت لها بالأكل فسوف تنفجر..

انفجرت الزميلات بالضحك وسارة صامتة لا تريم.. قالت إيمان:

ـ يبدو انك أغضبت سارة يا حصة..

قالت حصة والضحكة الشقية لا تزال تملأ وجهها وتفيض به:

ـ أحقاً غضبت مني يا سارة؟.. إنني أهزل..

لكن سارة لم تكن منتبهة لها، فقد ولجت عالماً آخر بطله جنين صغير مغمض العينين ومقصلة لا تدري متى يحين موعدها..

وجلادون ينتظرونها منذ أمد بعيد ليأخذ كل منهم نصيبه من الغنيمة.. وأية غنيمة.. إنها بنظرهم تفوق بسبوسة حصة حلاوة ونكهة..

ابتسمت للمفارقة.. ابتسمت للكوميديا السوداء التي تجللها من رأسها حتى أخمص قدميها «الطير يرقص مذبوحاً من الألم».. تناهى إلى سمعها صوت فاتن:

ـ سارة تبتسم يا حصة، فهي لم تغضب منك.. هيا احشي فمها بالحلوى لتنساك تماماً..

بصوت هادئ متعقل قالت نوف:

ـ سارة لقد زاد وزنك بشكل كبير خلال مدة وجيزة.. انتبهي لطعامك.. ضحكت حصة قائلة:

ـ يبدو أن زوجة أبيك يا سارة لم تقصر في الحفلات والولائم..

تنهدت سارة بصوت مسموع حينما سمعت عن زوجة أبيها.. ثم قالت بصوت بارد ومشاعر ثلجية:

ـ سأحاول أن أطبق حمية غذائية خلال الأيام القادمة..

في الطريق إلى البيت قالت لأبيها ذات الكلمات، وشيء ما يتصاعد داخلها بعنف كبخار ماء يغلي وهي تهمس لنفسها (هذه الكلمات ستكررها كثيراً وكثيراً حتى تجد حلاً جذرياً وعاجلاً لمأساتها المعلقة دون حلول)..

في البيت كانت زوجة أبيها متأنقة على غير عادتها في مثل هذا الوقت..

قالت لسارة بلهجة آمرة:

ـ اذهبي إلى المطبخ وساعدي الخادمة في إطعام اخوتك..

سألها الأب مستفسراً:

ـ ألن نتناول الغداء جميعاً يا لطيفة؟..

قالت بدلال:

ـ هناك مناسبة تستحق أن نتناول الغداء في الخارج.. أنا وأنت فقط..

تناهى إلى سمع سارة صوت الأب متلهفاً..

ـ ما هي، أهناك أخبار ترقية جديدة لي في العمل؟..

أمسكت سارة بالسكين لتقطع ثمرة الطماطم.. سمعت صوت زوجة أبيها واضحاً مسموعاً وهي تهتف:

ـ أهم وأجمل خبر.. أنا حامل..

اندفعت السكين بسرعة من يد سارة لتجرح إصبعها، انبثق الدم أحمر قانياً وتدافعت قطراته على مفرش المائدة الأبيض قطرة قطرة.. وانسابت دموع الداخل دون حساب!!

(6)

المكان معتم رطب وقذر.. درجات السلم باهتة متشظية.. الصناديق الكرتونية منتشرة في المكان.. أسفل السلالم، على الدرجات، في الزوايا محملة بشتى الأشياء، علب فارغة وأسلاك صدئة.. أقمشة مستعملة وغيرها الكثير.. سحبتها ليلى من يدها:

ـ هيا أسرعي يا سارة، فليس هناك وقت لتفحص الأشياء..

صعدت سارة مع ليلى ببطء درجات السلالم التي أحست أنها لن تنتهي أبداً.. تلاحقت أنفاسها وأحست بدوار.. سألت بهمس:

ـ هل بقي لنا الكثير؟..

نظرت ليلى إلى ورقة في يدها ثم قالت:

ـ كلا.. ان العيادة هنا.. لكن ترى أية شقة هي.. فلا توجد أية لوحة أو شيء يدل على وجودها..

هنا صعد طفل داكن البشرة تميل بشرته إلى السواد.. سألته ليلى:

ـ أين عيادة د. إيميلدا؟..

أشار الطفل إلى باب يبدو أنظف من البقية، عليه حاملة ورقة صغيرة مكتوب عليها بخط دقيق (welcome)..

قالت ليلى: يا لي من مغفلة.. لم أنتبه لهذه اللوحة الصغيرة.. هل رأيتها يا سارة.. ما بك؟

أحست سارة بصدرها يعلو ويهبط، وخفقان قلبها يتسارع بشكل عنيف.. أكان الخوف هو سبب اضطرابها أم أنها النوبة.. تساءلت بمرارة وهي تجر قدميها خلف ليلى جراً..

ما أن وضعت ليلى يدها على الجرس حتى انطلقت أصوات عصافير جميلة تغرد.. طال التغريد حتى انطوى الباب أخيراً عن وجه امرأة فلبينية في منتصف العمر ترتدي قميصاً وبنطلوناً من الجينز، ومن فوقهما بالطو أبيض.. عبق جو الشقة برائحة المطهرات القوية، أدخلتهم حجرة جانبية تحتوي على مقاعد عدة مع طاولة خشبية منخفضة تعلوها مجلات وجرائد أجنبية..

قالت د. ايميلدا بعربية مكسرة:

ـ سأفحصها أولاً لأعرف هل ممكن أم لا.. لا يمكن المجازفة..

أمضت دقائق في حجرة الفحص ثم نادت على المريضة.. دخلت سارة بوجه ممتقع وأطراف ثلجية.. دون عاطفة قالت د. ايميلدا:

ـ انزعي ملابسك وارتدى هذا واستلقي على سرير الفحص، سأعود لك خلال ثوانٍ..

أعطتها روباً أزرق بلون البحر.. استلقت سارة وأغمضت عينيها وأطرافها ترتعد بعنف.. قالت د. ايميلدا:

ـ لابد من الهدوء.. لا يمكنني فحصكِ وأنتِ ترتجفين هكذا.. استرخي أرجوكِ..

أخذت سارة نفساً عميقاً شعرت بعده بجرح مؤلم في صدرها ينز بصديد طري يدمي فؤادها.. تشبثت بزرقة البحر وغاصت في أعماقه النقية.. حوت كبير يهاجمها.. كلا انه روبير.. هو حوت يحمل وجه روبير ينهشها بقسوة.. صرخت بصوت عالٍ..

همست الدكتورة ببرود..

ـ لم ننته بعد.. إنني أفحصك فقط..

حاولت سارة الاستكانة وافتعال الهدوء.. لكن الألم حارق والشهقات تتصاعد متقطعة حارقة زاعقة.. غرقت في العرق البارد اللزج.. آهة.. تلو الآهة

قالت الدكتورة بنفاد صبر:

ـ الأمر مستحيل.. الجنين كبير..

تحدرت الدموع على وجنتي سارة وهي ترتدي ملابسها ومعها عشرات الصفعات القاسية وخيبات لا تدري كم عددها.. هل كُتب عليها الذل والهوان والفضيحة؟ كيف ستعيش أيامها القادمة والمستحيل يطارد بقايا أمل آفل عاش في مخيلتها طويلاً طويلاً؟..

قالت ليلى بعصبية بدت من خلال حركات يديها:

ـ دكتورة ألا يمكن.. أن تحاولي مرة أخرى.. ربما.. لعل..

قاطعتها الطبيبة غاضبة:

ـ عملياتي ناجحة 100٪ والعملية التي أشك في نجاحها ولو بنسبة ضئيلة فإنني أرفض إجراءها.. وهذه الحالة خطيرة.. فالجنين كبير ربما في نهاية الشهر السادس..

أحست سارة بالضياع واليأس يطوقها من كل جانب، والجنين يركلها من داخل بطنها بقوة وكأنه يهزأ بها وبمحاولاتها الفاشلة للتخلص منه.. تراخت على الأرض الرخامية الباردة وبكت ما شاءت لها قدرتها على البكاء..

قالت الطبيبة بهدوء وربما بتعاطف:

ـ لماذا لم تأت لي باكراً حتى يمكنني أن أساعدك؟.. عموماً.. في نهاية الشهر السابع أستطيع إن أساعدك على ولادة مبكرة لكن المبلغ يتضاعف..

هتفت ليلى:

ـ لا يهم المبلغ.. المهم الخلاص..

خرجت سارة مستندة على ذراع ليلى، بطنها مشدود بالمشدات، وقلبها مثقل بالخيبات وآثار الدموع على خديها ترسم خرائط من أحزان ممتدة بطول لياليها المؤرقة وفجر أيامها الذي لا تعلم متى يبزغ نوره.. بصوت متحشرج مخنوق بآهات البكاء قالت سارة:

ـ هل تعتقدين أنني أستطيع الصبر لشهر آخر يا ليلى؟..

قالت ليلى مواسية:

ـ ولمَ لا.. إنها أيام تمضي بسرعة يا سارة، وستمضى كما مضت الأيام التي سبقتها وستتخلصين من همك..

ألقت سارة برأسها على مقعد سيارة الأجرة هامسة:

ـ ترى هل سيولد حياً أم ميتاً؟

بين ركام الفاجعة تولد البسمة.. قالت ليلى بعد تردد:

ـ لقد أضحكتني يا سارة.. أعرف من زميلاتي وقريباتي الحوامل أنهن يتساءلن هل سيكون القادم ولداً أم بنتاً؟.. لكن..

عموماً أتمنى يا سارة أن يولد الطفل ميتاً فيستريح ويريح..

خرج صوت سارة باهتاً ضعيفاً:

ـ كيف يموت وهو يتحرك في أحشائي بكل حيوية ونشاط.. ثم افترضي أنه خرج حياً وكثير من مواليد الشهر السابع يعيشون فكيف نتصرف؟

استشعرت ليلى الهم الذي ينوء بكاهل سارة فقالت باستسلام:

ـ لكل حادث حديث وليقدر الله أمراً كان مفعولاً..

عندما دخلت سارة برفقة ليلى بيت عمتها.. وجدتا الأخيرة جالسة على الأرض في جلستها المفضلة قبل غروب الشمس، تحتضن دلة القهوة، وإلى جوارها طبق التمر الذي أوشك على النفاد، فلم يتبق في الصحن سوى ثلاث أو أربع تمرات وهي تتكلم عبر الهاتف قائلة:

ـ لا بد ان نراك قريباً يا سعود فأنا وأبوك نشتاق لرؤيتك..

رجحت سارة ان عمتها تحدث ابنها سعود الذي يعمل في مدينة الظهران أغلقت العمة سماعة الهاتف ثم هتفت مبتسمة على غير عادتها:ـ

ـ هل وجدت الكتاب في المكتبة يا ليلى؟..

ارتبكت ليلى، فقد نسيت كذبتها.. لكنها استدركت قائلة بأسى:

ـ لففنا أنا وسارة المجمع مرتين ولم نجده.. قضينا في مكتبة جرير وحدها ساعة ونصف الساعة دون جدوى.. تقول زميلتي إنه في مكتبة في جدة..

مصمصت الأم شفتيها قائلة:

ـ ومن يحضره من جدة يا ليلى.. دعي زميلتك تشتري لك واحداً وأعطيها النقود.. ثم تابعت باسمة:

ـ وكيف حال العروس؟..

التقت عينا ليلى وسارة بدهشة وذهول.. أردفت العمة وقد اتسعت ابتسامتها حتى ملأت وجهها كله:

ـ عبد العزيز سيحضر اليوم ليراك يا سارة.. فقد اتفقت مع والدك على أنه أنسب رجل لكِ..

شهقت ليلى برعب.. وضحكت سارة.. ضحكت حتى دمعت عيناها..

تابعت العمة كلامها بهدوء:

ـ سارة عاقلة وفاهمة.. الرجل متدين ولديه أملاك، وسيدفع لك

يا سارة 60 ألفاً مهراً، غير أطقم الذهب والهدايا.. وسيعطيني خمسة آلاف وسيهب والدك خمسة آلاف أخرى..

هتفت ليلى صائحة: بيعة موزونة..

صرخت بها والدتها:

ـ اصمتي يا ليلى، هذا الموضوع لا شأن لك به، إنه يخص سارة فقط.. ما رأيك يا سارة يا ابنتي..

ألفت سارة نفسها هادئة ثابتة الجنان وهي تقول:

ـ الرأي لكِ ولأبي يا عمتي..

ضمتها عمتها بقوة.. وليلى تنظر للجميع بدهشة ممتزجة بعدم تصديق، وكأنها ترى أمامها مخلوقاً من كوكب آخر..

في الحجرة التي ضمتهما معاً صرخت ليلى:

ـ سارة أنت مجنونة..

ردت سارة بهدوء:

ـ بل هذا هو الحل الوحيد يا ليلى.. إنسانة فاقدة لكل شيء.. كرامتها وإنسانيتها وشرفها.. من سيقبل بها إلا إنسان يماثلها إلى حد ما..بل هو أفضل بكثير، إنه يستحق من هي أفضل مني بكثير..

أشارت ليلى إلى بطنها قائلة:

ـ وهذا؟

تنهدت سارة قائلة:

- الزواج لن يتم بين عشية وضحاها.. هناك شهور طويلة ربما أستطيع فيها أن أنقذ ما يمكن إنقاذه..

نهضت ليلى من مقعدها وضمت سارة بحنان قائلة:

- أتمنى لكِ التوفيق يا سارة وأن يفرج الله كربتك..

مسحت سارة دموعها الغزيرة وقالت بلهجة حاولت أن تكون مرحة:

- هيا ساعديني على اختيار ثياب ملائمة تخفي بطني وتجعلني أبدو جميلة..

في المساء حملت سارة أكواب العصير ودخلت بخطوات مترددة إلى حيث ينتظرها الرجل الذي ستحمل أسمه.. وضعت أكواب العصير على المنضدة الزجاجية في حجرة الاستقبال.. قال لها والدها بحنان أحزنها:

- أجلسي يا ابنتي.. اجلسي قليلاً..

تجنبت النظر إلى الجميع وتركزت مأساتها في بطنها التي نجحت في إخفائه مؤقتاً..

جلست تحدق في طرف حذائها.. سمعت صوت رجل يسألها:

- في أي مستوى دراسي أنت يا سارة؟

أحست بحركة الجنين في أحشائها وبقدمه الصغيرة تقف ملتصقة ببطنها من الداخل وكأنها تهزأ بزوج المستقبل وتضع سداً من الأقدام في وجهه..

رفعت عينيها تدريجياً إلى أعلى وهي تهمس:

- في المستوى الثالث.. كلية العلوم قسم فيزياء..

صدمت لرؤيته.. لم يكن وسيماً ولم يكن أيضاً دميماً.. كان رجلاً عادياً، لكنها ولسبب لا تدريه لم تشعر بأي ارتياح نحوه.. بل ضايقها شعور الانزعاج الذي بدأ ينمو داخلها ببطء مقيت، متوسط الطول يميل بعض الشيء إلى البدانة، حنطي اللون، له لحية صغيرة مشذبة بعناية..

شعرت بالاختناق وبدأ نفسها يعلو ويهبط، استأذنت والدها بالخروج، خرجت وهي تسمع صوت زوج المستقبل يقول لوالدها: على بركة الله..

تهربت من البقاء مع عمتها وتجاهلت أسئلة ليلى الكثيرة.. وما أن احتضنت وسادتها لتبثها لواعجها وجزعها وارتياعها حتى تلاحقت أنفاسها شهيقاً وزفيراً وابتلعتها دوامة سوداء لا نهاية لها.. افترستها النوبة مجدداً ورغماً عن أنف أمومتها المرتقبة وزواجها القادم!!

«نفــوق»

21 جمادى الأولى 1423 هـ

لم تغادرني حالة الحيرة والتشتت منذ ودعت سارة قبل أيام..
حزنني تبدل أحوالها من النقيض إلى النقيض خلال فترة قصيرة..
سايتها في لندن كانت متوجسة حذرة، ثم انطلاقة مرحة، ثم انغلاق
حزن وجمود بلا سبب.

سألتني كاتيا البارحة عن تدهور مزاج سارة فجأة.. ترددت قليلاً،
كنني طفقت أروي لها كل شيء عن مرض سارة النفسي وزيارة
دكتور ستيوارت والأدوية و..

ابتسمت قائلة: إذن هذا يفسر كل شيء.. لا تحزن، فالمريض
النفساني معروف بتغير المزاج..

لم تزدني كلمات كاتيا إلا مزيداً من التشتت والأسى، فهذا يعني
ن مرض شقيقتي ليس بالمرض الهين، وان الأمر لا يعني أدوية مهدئة
وينتهي كل شيء.. ربما اكون قد أدركت وتفهمت مرضها هذا، لكن
هناك على بعد آلاف الأميال في الرياض.. من يشعر ويفهم
ويتعاطف..

قفز بيت من الشعر إلى مخيلتي فجأة:

ليس اليتيم من أنتهى أبواه من هم الحياة وخلفاه ذليلاً

إن اليتيم الذي تلقى له أماً تخلت أو أباً مشغولاً

23 جمادى الأولى 1423 هـ

تعرفت إلى ناصر.. شاب ثري قدم من السعودية حديثاً، وبالتحديد من مدينة الدمام.. كل شيء فيه يدل على البذخ والترف بدءاً من حذائه ذي الماركة العالمية الشهيرة وحتى ثيابه وساعة يده وسيارته، وليس انتهاءاً بطريقة حديثه ومشيته وأكله وشربه.. أنه المال يمشي على قدمين.. التف حوله الأغلبية طمعاً بثرائه وجاهه ونفرت بأسمالي وفقري عنه حتى فوجئت به يترك الجميع ويرافقني.. عرفني بنفسه وأبيه وشركاتهم المعروفة.. لم أخجل وأنا أبلغه بأنني عصامي من أسرة متوسطة الدخل وأعمل إلى جانب الدراسة.. قال لي بأنه معجب باعتمادي على نفسي وأنه يسره أن يصادقني.. سألته إذا كان يعرف سعود ابن عمتي الذي يعمل في شركة ارامكو في الظهران.. ضحك قائلاً بأن المنطقة الشرقية مساحتها واسعة ومتعددة المناطق ومن الاستحالة بمكان أن يعرف جميع الاشخاص..

رافقته البارحة إلى حانة في ويمبلي.. تجرعنا كؤوس البيرة حتى الثمالة، ووجدت نفسي أحكي له حياتي كلها سطراً سطراً حتى قال ناصر أخيراً وهو يبتسم:

ـ أريد أن أتعرف إلى كاتبا هذه التي قلبت حياتك رأساً على عقب..

جمادى الآخرة 1423 هـ

لم أر كاظم طوال معرفتي به حزيناً إلى هذا الحد.. مكتئباً حتى كؤوس الخمر ويشرب معها دموعه النازفة.. لقد بلغه نبأ وفاة والدته وهو لم يراها منذ ست سنوات..

قال لي وشهقاته الباكية تحفر أخاديد من الأحزان داخلي:

ـ ماتت قبل أن أراها.. ربتني أنا وأختي وسط ظروف قاسية من الفقر والمرض.. كانت تبيع الخبز لأتعلم وتبيع كل ما تحصل عليه من حلي ذهبية صغيرة وأثاث وهدايا لتراني دكتور كما كانت تقول.. الا انا حققت حلمها ولا أنا أعدت لها جزءاً مما صرفته عليّ طوال السنين طويلة..

لم تفلح كلماتي المواسية في تبديد ضباب أحزانه، بل فوجئت بنفسي أبكي معه.. انتقلت تعاسته من الجو المحيط بي عبر مسام جلدي المتعطش للألم، فأحدثت فيه شروخ لا تبرأ وليفيض الوجع والعذابات الداخل بلا حساب وبقينا أنا وكاظم في ذات الحجرة الباردة المقابلين كل يبكي على ليلاه.. غريبين في بلاد غريبة يلفنا الصقيع من جميع الجهات حتى من ذواتنا المضعضعة..

أحدنا هارب من وطنه والآخر هارباً من نفسه.. أحدنا يبكي أمه التي غافلته بالموت والآخر يبكي الحياة التي أبقت أمه على حيز الوجود.. أحدنا ينعي زمناً فات والآخر يخشى زمناً آت..

عندما فاض الوجع وامتلأت به جدران الحجرة، من حولنا اختلط بروائح التبغ والكحول خشيت أن يغلبني (متعب) مرضي

العتيد، فيلقي بي في غياهب المجهول.. استأذنت بالمغادرة بعد أن ضممت كاظم طويلاً إلى صدري، ثم أسرعت أهاتف جين قائلاً أن كاظم بحاجة ماسة لها.. أعرف برود الإنجليز وعواطفهم الميتة، لكنني أيقنت أن وجود جين إلى جوار كاظم قد يقلل شيئاً من حدة الحزن والألم..

لكن حزني لم يقل ولم يهدأ، بل زاد أواره خصوصاً بعد أن حادثتني سارة ظهر هذا اليوم.. بدت قلقة حائرة خائفة، وان طمأنتني أنها على خير ما يرام.. أحاول إعادة الهدوء إلى ذاتي.. أتوسل بطيور القلق ألا تنطلق من أعشاشها.. أؤكد لنفسي ربما للمرة الخمسين بأن سارة قد تعاركت مع عمتي أو بناتها وأنه لا شيء يدعو للقلق..

22 جمادى الآخرة 1423 هـ

البرد ينخر عظامي ومعه الألم والتشتت.. لم أكن أظن يوماً أن كاتيا تخدعني وتلهو بي حتى رأيتها بالمصادفة مع ناصر رفيقي الجديد القادم من السعودية حديثاً وعلى متن سيارته الجديدة.. أحسست بسهم ناري يخترق قلبي وأنا أراها تضحك معه بحبور.. تشبثت قدماي بالأرض ولم أملك أن أتحرك قيد أنملة حتى اقتربا مني.. لم تهتز كاتيا ولم تضطرب.. بدت ثابتة قوية وهي تقول:

ـ أهلاً فيصل ما هذه المصادفة الجميلة؟

تعثرت الكلمات على شفاهي، فلم أنطق بحرف.. بدا ناصر مرتبكاً وهو يقول:

ـ تقابلت مع كاتيا بالمصادفة، وطلبت منها مرافقتي للتسوق.. تعرف.. وافد جديد إلى لندن ولا أعرف كيف أبتاع حاجياتي..

نقلت نظراتي بينهما بريبة، فلا تبدو على أي منهما أنهما قد تواجها على حين غرة.. فكاتيا في أتم زينة وبهاء، وناصر يرتدي بذلته الجديدة التي ابتعتها معه منذ أيام.. علامات الاستفهام والتعجب والاستنكار تنهمر عليَّ مع حبات المطر فتغرقني بنحيب صامت..

غادرتهما لا ألوي على شيء ولندن تذوي أمام ناظري وتتلون بالسواد..

25 شعبان 1423 هـ

مرت أيام طويلة كنت فيها أغرد خارج السرب.. ميتاً يعيش على قيد الحياة.. منذ انتهت علاقتي رسمياً بكاتيا..

حدث هذا بعد أيام من رؤيتي لها مع ناصر.. قالت أن والدتها متعبة وأنها مضطرة للانتقال للعيش معها.. طار قلبي شعاعاً وخفقت روحي ألماً واضطراباً.. ويحي قد اقتربت النهاية!!

ما كذبته عيناي وأنكرته أذناي يتجسد أمامي واقعاً مقيتاً.. منفراً.. بشعاً.. حرائقي الداخلية تتصاعد منذرة بفجيعة..

قلت لها بصوت مخنوق:

ـ هو ناصر إذن؟.

صمتت تجمع حاجياتها بهدوء معذب.. أحسست بدبيب المرض ينبض في أحشائي.. العرق يتساقط بغزارة على جسدي ورجولتي تسخر من ضعفي.. استجمعت قواي لأهتف بوجهها:

ـ كاتيا.. أجيبي بصراحة.. هل تحبين ناصر؟

وللمرة الأولى منذ أبلغتني بأنها ستهجرني نظرت لي بكلتي عينيها قائلة:

ـ اعتقد أن كلاً منا حر في تصرفاته ثم أنك لست زوجي..

25 رجب 1423 هـ

لندن تتشح بالثياب السوداء.. والسماء تبكي بدموع غزيرة.. الأرصفة ذليلة.. والناس غرباء.. الطرقات موحلة، وقلبي تملؤه الجروح وتدميه القروح وثلوج لندن تهرب من الجبال والسفوح لتستقر داخل نفسي وتملأ شروخ الوجدان..

5 رمضان 1423 هـ

لم أستطع الصيام.. أيضاً لا رغبة لي بالطعام.. أمضي يومي على الطوى.. أقتات على إبرة الانسولين مع ما يقيم أودي من طعام يسير، ثم أمشي وأرى وأنام دون أية رغبة في الحياة..

13 شوال 1423 هـ

كاتيا سعيدة مع ناصر وأنا أذوي ببطء.. أتمنى أن أعود إلى الرياض.. إلى العذاب.. إلى التمزق والشتات كيلا أرى كاتيا أبداً بعد اليوم..

21 شوال 1423 هـ

كاظم يحاول المستحيل لاستعادة فيصل القديم وأنا أصرخ به (عبثاً تحاول).. عدت البارحة من سهرة فاشلة مع كاظم وجين ترافقنا

إحدى صديقاتها الممرضات لكنني بدوت مريضاً معظم السهرة، وعندما عدت إلى الشقة أويت فوراً إلى فراشي لأفيق على حلم غريب أقلقني، رأيت فيه شقيقتي سارة في بحر عاتي الموج، تحيط بها الحيتان من كل جانب وهي تجاهد وتصارع وتستغيث بي..

رويت لكاظم حلمي هذا الصباح، فطمأنني قائلاً بأن الأحلام ليست بظواهرها وربما يكون لخطوبتها واستعدادها للزواج القريب علاقة بهذا الحلم..

أحاول أن أطمئن نفسي، فلا أستطيع.. اكتشفت أخيراً أن فاقد الشيء لا يعطيه..

«السماء تلد القمر»

(1)

الغيوم تتكاثف لتحجب كل شيء والآلام تزداد وتتعاظم حتى تغدو كل شيء وأنا.. من أنا؟ في خضم هادر كاسح من الاعتصارات التي تكاد تصهرني صهراً لتخرج من بقاياي مخلوقاً آخر..

ـ ادفعي.. ادفعي يا سارة..

الأصوات تخترقني كسهام حادة، وأنا أعتلي الموجة تلو الموجة في لجج عاتي الرياح، كالح السواد، بارد كالصقيع، الألم الممض ينخر أعضائي حتى النخاع.. يقصمني.. يزلزلني.. أكتم صرخاتي، أئد آهاتي، أحبس زفراتي.. فالأمومة لن تحتفل بي لأني لم أحفل بها..

لن تنتظرني أمي بالزغاريد تمسح عن جبيني قطرات العرق العالقة بها قائلة بفرح:

ـ مر عليك تجربة مثل تجربتي.. لتعرفي قدر الأم وغلاوتها..

ولن يتحرق ويتألم لألمي زوج ينتظرني بالزهور خارجاً، يذرع

الممر جيئة وذهاباً في قلق ليهمس لي فور خروجي: أنت أروع أم.. وأجمل زوجة..

لن يفتخر بي أبي، ويعتز بي أخي، وتجتمع العائلة بأسرها ترمقني ومولودي لترى من منا يشبه الآخر؟

بل أقبع بخزيي وعاري في عيادة سرية في مبنى متهالك بشارع الخزان في الرياض، اقتحم عالم الأمومة برعب لاحدود له وأرفل في ثياب الخطايا، ليس لي حق أن اصرخ أو أبكي أو أن أتألم، فالخاطئة منذ أن تحمل بطفل الخطيئة عليها أن تحمل معه كل وزر المجتمع وذنوبه وأخطائه دون شكوى.. الألم يصهر بطني ويحكم بحلقاته حول خصرى الذي غدا كتلة من نار ثم يهبط إلى أسفل.. ندت عني صرخة قوية رغماً عني..

هتفت الطبيبة بحنق:

ـ قلت لكِ لا تصرخي.. لا تفضحينا.. اكتمي ألمك..

ثم ألقت إليَّ بوسادة لأعض عليها بنواجذي كلما أحسست بأن الأمر لا طاقة لي باحتماله، الآهة تلو الآهة، ودموع حارقة تصب في غيبوبة الأحزان، الأمر طال أكثر مما ينبغي.. والجنين يأبى الخروج..

سمعت طرقاً على الباب وصوت ليلى هامساً خائفاً مرتجفاً:

ـ ألم ينته الأمر بعد.. لقد تأخرنا..

لم أسمع صوت الطبيبة، فقد زلزلتني عاصفة جديدة.. أجزائي

تتمزق ببطء.. مئات من السكاكين تقطع جسدي بمهارة وتبعثر اللحم والعظام وتتخلل إلى حيث مكمن الألم والحنين، فتنشب فيه أطرافها الحادة لتندلع نار حارقة تشعل بركاناً من الأنين، صواعق الألم تغيب بي إلى عوالم لا نهائية، تتفتح على عوالم أخرى مرئية ولا مرئية..

بحيرتا العسل تعودان من جديد.. روبير.. آه.. كلا.. أرى روبير يراقص فتاة ساذجة غريرة ثم يغرس خنجراً حاداً في أحشائها.. تتمزق الأوردة ويعلو نحيب الوجع..أصرخ وأصرخ وأصرخ.. يتناهى إلى سمعي صراخ طفل وليد أتراخى باستسلام وكأنني قد خضت معركة قاسية بالسيوف والحراب خرجت منها مقتولة.. نعم كل جزء من جسدي ملتصق بالسرير لا يريم.. حتى إصبعي لا أستطيع أن أحركه..

أسمع صوت ليلى وأشم رائحتها الحبيبة:

ـ أرجو ألا تراه كيلا تتعلق به..

والطبيبة ترد:

ـ أنه طفل جميل بل رائع الجمال.. لكنني أعتقد أنه يحتاج لحضانة..

أهمس وعيناي مغمضتان:

ـ دعيه يموت.. دعيه يموت أرجوك.. فهذا أفضل لنا جميعاً..

يأتيني صوت الطبيبة مشفقاً:

ـ أنه أصلاً متعب ولونه يميل إلى الزرقة.. يحتاج أكسجين فوراً.. وإلا..

- سارة.. ألن تري طفلك قبل أن..

فتحت عينيّ بجهد جهيد وكأن كل جفن مشدود إلى حجر ضخم لا يتحرك بسهولة رأيت خيالاً لملاك صغير.. العينان مغمضتان، الأنف صغير، الفم يفتح ويغلق في صراخ خافت، الوجه تعلوه زرقة طفيفة، الشفتان تميلان إلى الزرقة، انفتحت العينان فجأة على بحيرتي عسل صغيرتين، فانتبهت على حين غرة إلى شعره الأشقر الكثيف أشحت بوجهي وجراحي تنزف.. لا أريد أن أرى هذا الطفل.. لا أريد أن أراه..

خرجت وليلى تاركين وراءنا طفلاً يحتضر..قطعة من ذاتي ومن أحشائي تطالبني بالبقاء، تصرخ بانهزامي وضعفي وصمتي لمَ تتركيني في يد غريبة وبيت لم أسكنه يوماً وحضن غير حضنك بل حتى حليبي الدافئ حرمتيني منه، فكيف لا أحتضر؟ ليرد شرفي الذبيح.. لسنا في زمن الأنبياء، ووقت المعجزات ولى وفات، مريم العذراء وطفلها عيسى لن يعيشا في زمننا هذا وفي مجتمع كمجتمعنا فى هذه المدينة التي تخفي العهر وتدعي الفضيلة نعرف جيداً أن السماء لا تمطر أطفالاً وأن وجود الطفل يسبقه ترتيبات كثيرة معقدة.. المأذون وعقد النكاح، ليلة الزفاف، شهر العسل، وقد يأتي الطفل وقد لا يأتي بعد ذلك..

قبل أن نخرج دست ليلى في يد الطبيبة المبلغ المتفق عليه من المال.. برقت عيناها في فرح وكأنها آلة لجمع النقود.. قالت بأسلوب من اعتاد هذه العمليات:

- لا تخشيا شيئاً الطفل في رمقه الأخير ولن يلبث إلا قليلاً ثم سأتصرف بعد ذلك بطريقتي الخاصة..

قالت ليلى:

- المهم هل هناك خطر على سارة فيما بعد؟

ردت الطبيبة بابتسامة ذات مغزى:

- أبداً.. نزف قد يستمر أياماً كأية دورة شهرية، واطمئنا، فسارة عادت كسابق عهدها، فتاة لم يسبق لها الزواج والإنجاب بالطبع..

أخرجت نقوداً أخرى من حقيبتي ووضعتها في جيب معطفها الأبيض الذي تراءى لي وقتها بأنه مجلل بالسواد..

وكما اتفقنا سابقاً أنا وليلى.. روت ليلى لوالدتها قصة مرضي الموهومة وهي أنني قد أكلت شطائر شاورما غير نظيفة، فبدأت أتقيأ بالسوق وأشعر بألم شديد في معدتي، مما اضطرها إلى نقلي إلى المستوصف القريب الذي وصف الحالة بأنها تسمم شديد وأوصى بالراحة التامة..

وكعادة عمتي في الأيام الأخيرة منذ وافقت على الخطبة من قريبها عبد العزيز في إغداق العناية والاهتمام والتدليل لى بشكل فاق كل التصور.. قادتني إلى فراشي ببطء تكاد تحملني حملاً بين ذراعيها ثم دثرتني بالملاءات السميكة والأغطية الصوفية الثقيلة، معلنة انني أحتاج للراحة التامة، وأمرت الخادمة بأن تعد لي الطعام مع شوربة دجاج دافئة..

ألقيت برأسي إلى الخلف متنهدة براحة.. ترى هل ستبتسم لي الأيام القادمة أم أنها تحمل لي مالا طاقة لي باحتماله..

أشعر ببطني فارغاً خاوياً وقد تركت محتواه في ذلك البيت العجيب.. لم يمت ضميري بعد.. فخروجه من جسدي ليس النهاية ولا يعني أنني قد تخلصت من حمل ثقيل وفضيحة مدوية مقبلة، طلبت من ليلى همساً أن تتصل بالطبيبة لتتأكد من موت الطفل.. جاءتني بعد دقائق وقد لاح في وجهها شيء غامض لم أفهمه، قالت:

- انسيه تماماً فقد انتهى من الوجود.. واهتمي بنفسكِ فقط..

جازعة هتفت نفسي.. ومرضي يا ليلى كيف أتخلص منه؟

ما أن أغمضت عينيَّ حتى رأيت رؤيا غريبة، صحوت على أثرها من النوم.. رأيت شيخاً وقوراً مهيب الطلعة يقول لي: لن يشفيك إلا القرآن.. لن يشفيك إلا القرآن.. لن يشفيك إلا القرآن..

صحوت مذعورة.. قالت لي ليلى بأنني كنت أهذي في نومي.. حكيت لها عن رؤياي قالت وعيناها تتسعان دهشة وذهولاً:

- يقصد مرضك الأساسي.. النوبات..

رددت عليها وأنا أكثر منها ذهولاً:

- نعم يا ليلى.. بالتأكيد، إنها النوبات وهذا المرض النفسي البغيض..

قالت ليلى فجأة وكأنها تفيق من إغماءة:

- هل تذكرين تلك العجوز التي زرناها يوماً، فقالت انك مسحورة وأن زوجة والدك هي من سحرتك..

هززت رأسي بذهول وكأنني أفيق أنا الأخرى من سبات عميق:

- نعم.. أنني لم أنس هذا، لكنني لم أحمله على محمل الجد يوماً..

كيف أنسى وكيف أسلى؟ في داخلي إيمان كاليقين أن زوجة أبي تمقتني مقتاً شديداً وإنها تود لو تغيبني عن الوجود، ولا أنافسها وأخوتي على حب أبي، تكره أمي وجمالها وذكرياتها وأولادها، جروح الذاكرة تطفح بالصديد، فأعود لأحداث وددتها في خبايا النسيان لا تعود، لكنها تأبى إلا أن تعود وأعود معها طفلة يتيمة بلا أم ولا أب رغم وجودهما..

في التاسعة من عمري كنت.. ولشقائي وألمي كنت إحدى المتفوقات في المدرسة.. قالت لي المعلمة: لتحضر والدتك غداً حفل المتفوقات وستلبسينها عقد الورود هذا.. حارت طفولتي وحرت معها أي أم فيهن التي ستحضر حفل تفوقي وستفرح لنجاحي وسأطوقها عقد محبتي؟ أهي زوجة أبي التي أقيم معها وقتي الحالي؟ أم أمي الحقيقية القريبة البعيدة؟ أم عمتي التي تتولى أحياناً بعض أموري.. أرشدني قلبي إلى أمي الحقيقية.. أسرعت إلى الهاتف وقلبي يسبقني وطفولتي تسابق تفكيري، سألتها أن تحضر غداً حفل الأمهات، وهناك مفاجأة أعدها لها في هذا اليوم.. قلت لها أنها ستفرح كثيراً.. صدمتني كلماتها الجافة:
أنت تعرفين أنني لا أصحو باكراً!

إنه يوم واحد وهناك مفاجأة بانتظاركِ.. كل الأمهات يحضرن برفقة بناتهن..

حسمت الموقف: لا أستطيع.. خذي خالتكِ معك..

خالتي «زوجة أبي» ربما تكون أحن من أمي.. لاحقتها في كل مكان، بالبيت اتمسح بها استجدي حباً لا يمنح وأتسول حناناً لا يعطى.. أسألها عاطفة لا تباع ولا تشترى.. صدتني طويلاً.. تعلقت بعنقها قائلة:

- أريد أن تحضري معي غداً حفل الأمهات وقد أعددت لكِ مفاجأة..

سألتني بجفاء: وأمكِ..

ببراءة الطفولة أجبت: قالت إنها لا تصحو باكراً..

رجوتها كثيراً.. قبلت رأسها ويديها.. همست لها: ليس لي سواكِ..

كلمة واحدة هي التي خرجت مرغمة من شفتيها: خير.. سيكون خيراً..

لم أرها صباحاً في البيت، وقفت مع جموع الطالبات أبحث عن وجهها بين الأمهات اللائي اكتظت بهن قاعة المسرح المدرسي.. كلا.. أنها وعدت بالمجئ، ستجئ بالتأكيد، لن تخيب رجائي..لن تخذل يتمي.. لن تبدد فرحتي بتفوقي، سرنا موكباً تحمل كل منا عقداً من الورد لأغلى انسانة في الوجود.. كل زميلة لي تشير بيدها إلى مكان أمها وأشيح بوجهي كيلا تبدو بشاعة يتمي مطبوعة على وجهي، بدأت زميلاتي في تعليق الورود ثم تحتضن كل منهن والدتها نبع الحنان.. ركن الأمان.. رياض الجنان، وأجد ذراعيَّ معلقتين في الهواء لا أم حقيقية ولا أم مزيفة ولا أم على الإطلاق..

ترتد أطرافي حائرة كسيرة ومرارة الخذلان تنكأ جراحي، يذبل الحزن ورودي، العبرات الطافحة بالألم والانكسار تتجمع في عيني، يوشك تيار الحزن أن يجرفها سيولاً وأنهاراً.. تنتبه مديرة المدرسة لوجودي وحيدة دون أم.. بلا شك هي تعرف قصتي.. تنهض من مقعدها بهدوء تعانقني وتساعد يداي المرتجفتين على تطويقها بالورد التي ابتلت بدموعي..

صقيع حاد من البرودة يجتاحني كلما تذكرت ذلك الموقف الموجع لطفولتي وغيره الكثير.. لكن هذه التي أشاحت عني وأنا في أمس الحاجة لها واستدرت مني المآقي في عز فرحي، وازدادت نفوراً وحسداً وحقداً على مرور الأعوام لمَ لا تكون هي فعلاً سبب مرضي بإرادة منها أم بغير إرادة؟..

قالت لي عمتي باسمة وفي جعبتها ما تود قوله:

- هل ترغبين في أن تذهبي عند والدتك يا سارة غداً؟.. أم ترغبين في المكوث لدينا حتى تتزوجين؟ أنت الآن واحدة منا، فزوجك المقبل هو من أعز أقربائي..

صرخت نفسي هلعاً.. أريد البقاء أرجوكِ.. فما عادت لي طاقة أبعثرها في الذهاب هنا وهناك.. منذ عودتي من لندن ومأساتي الأخيرة لم يعد في النفس قدرة على الاحتمال والصبر والتحمل.. لقد فاضت الأحزان عن مكمنها.. تماسكت وجمعت شتات نفسي وقلت بهدوء:

- الرأي لكِ يا عمتي..

بالابتسامة الودودة نفسها أجابت:

ـ إذن ابقي مع البنات ولا تذهبي..

وأخيراً.. أخيراً يا عمتي.. تتعطفين وتسمحين لي بالبقاء حيث أرتاح..

تابعت العمة:

ـ أعتقد لا مانع لديكِ من عقد القران بعد شهر..

كتمت هلعي وجزعي.. لابد أن أدفع الثمن.. لكل شيء في هذه الحياة ثمن.. هذا ما تعلمته ممن دمرن حياتي وهن يبتسمن.. أمي وزوجة أبي وعمتي..

ـ لكن يا عمتي.. التجهيزات و..

قاطعتني قائلة:

ـ لا تهتمي لشيء.. هو سيدفع المهر عند عقد القران، وعندها نجهز كل شيء، والزواج في العطلة الصيفية القادمة، وستكملين دراستك معه إن شاء الله.. أما ثوب عقد القران، فهو هدية مني لكِ، وسأشتريه لكِ هذا الأسبوع إن شاء الله..

نظرت إلى وجهها أبحث عن مكامن طيبة أو حب أو إيثار.. ارتدت نظراتي خائبة كسيرة، لم أجد سوى لغة النقود هي التي تتحدث!!

(2)

تحول شكي إلى يقين، وخيالاتي التي أطاردها وأطردها إلى حقيقة واقعة مجسمة أمامي تطالب بالفعل ورد الفعل.. يا إلهي..ماذا كنت وكيف أصبحت ويا لهول المعرفة التي تقلب كياني وتهز ثوابتي..

عدت من الكلية متعبة، جروحي بدأت بالاندمال، وجسدي يعود إلى طبيعته تدريجياً عمتي لم تكن موجودة.. ليلى نائمة.. أسمع صوت نوال تقرأ القرآن بصوت عالٍ.. ضاق صدري فجأة وأحسست بالظلام يهبط داخلي.. دخلت فراشي أحاول النوم، الصوت يتسلل إليَّ من تحت عقب الباب، من الثقوب، من الجدران يا إلهي ما بي؟ أغطي رأسي ووجهي بلحافي..الصوت يقتحمني يدخل إليَّ من تحت اللحاف ويهاجم أذنيَّ بعنف مقيت، سددت أذنيَّ بقطع من القطن دون فائدة، أشعر بجهد جهيد حينما أتنفس وكأن الكرة الأرضية تطبق على صدري، وأخيراً فقدت صبري وهدوئي، خرجت إلى حيث حجرة نوال ودلال.. ألفيت نوال جالسة على فراشها تقرأ في مصحف صغير في يدها، حاولت جهدي الهدوء وأنا أقول:

ـ نوال.. صوتك عالٍ جداً.. لا أستطيع النوم... أرجوك اخفضي صوتكِ قليلاً..

بعنجهيتها المعهودة قالت نوال:

ـ سأشارك في مسابقة القرآن هذه السنة، ولابد أن يكون صوتي عالياً واضحاً.. لن اخفض صوتي..

تنازلت أكثر:

ـ نوال أرجوكِ اخفضي صوتكِ قليلاً.. قليلاً فقط..

انتفضت غاضبة وكأن استجدائي قد أشعل فتيل كبريائها:

ـ لا تنسي أن هذا البيت ليس بيت أبيك ورفع صوتي أو خفضه من شأني أنا فقط..

تعثرت بذلي خارجة من الحجرة، لحقت بي دلال الصغيرة هاتفة:

ـ لا تغضبي يا سارة، إنها مجنونة.. لكن ضعي في أذنيك قطناً..

هزني تعاطفها:

ـ لم أغضب يا حبيبتي.. وسأضع في أذنيَّ قطناً..

أردفت نوال:

ـ أنا المجنونة يا دلال.. أم.. الله يعلم من هي المجنونة؟

تدافعت الدموع إلى عيني وأنا أعود إلى حجرة ليلى.. حشرت نفسي في الفراش تحت أكوام الأغطية، يتناهى لي صوت نوال عالياً متحدياً مستفزاً وهي تقرأ القرآن، أصغت السمع لثوانٍ ودموعي عالقة بأهدابي، ثم بدأت أرتجف وقلبي يخفق بشدة، يا إلهي إنها النوبة.. النار تندلع في رأسي ويتطاير شررها إلى كل أجزاء جسدي صمم في

أذنيَّ وأنا أرى الهوة السوداء تتسع أمامي تدريجياً حتى تكاد تبتلعني، الطفلة العارية تصرخ صرخات حادة.. لا إنسانية.. أدور وأدور وأدور ثم أسقط في الهاوية..

حينما صحوت من نوم قلق معذب، أرى فيه باستمرار قطاً أسود اللون، ضخماً ينهش أعضائي الواحد تلو الآخر، كانت هناك أسئلة تنخر ذاتي.. أسئلة بعمق آلامي واتساع أحلامي.. أسئلة تهبط علي تصفعني، تواجهني، تعريني.. لماذا تعبت حينما سمعت صوت نوال تقرأ القرآن بصوت عالٍ؟ هل كانت النوبة التي امتصت طاقتي نتيجة خلافي مع نوال أم كانت لسماع القرآن، متى بدأ نفوري من القرآن؟ منذ خمس سنوات.. ست.. أم أكثر؟ لماذا كرهته فجأة ويخفق قلبي بسرعة إذا سمعت صوت قارئ يقرأ القرآن ولو بالمصادفة؟ ما العلاقة بين مرضي وكتاب الله؟.. هل حقاً أنا مسحورة؟.. وهل السحر حقيقة أم خيال.. أوهام وأساطير وخزعبلات أم أنه علم معروف حقيقي؟

ذهبت وليلى إلى مكتبة جرير ترافقنا الصغيرة دلال، اشتريت كل ما وقعت عليه عيناي من كتب السحر والتداوي بالقرآن الكريم، عكفت على الكتب اقرأها الواحد تلو الآخر، «الصارم البتار في تحدي السحرة الأشرار»، «كيف تعالج نفسك من السحر»، «الشفاء بالقرآن».. و.. و..

أخيراً رفعت رأسي بانهاك شديد.. قلت لليلى بصوت ضعيف:

ـ نعم يا ليلى.. أنا أعاني من السحر.. تعالي واقرأي.. كل أعراض المسحورين تنطبق على حالتي..

هرعت ليلى لتقرأ ما أشرت له.. ثم قالت.. ما رأيك؟ نخبر أمي؟!

هززت برأسي علامة الموافقة.. فعمتي هذه الأيام غير عمتي السابقة منذ أعلنت خطبتي لقريبها عبد العزيز، فهي تدللني وتعاملني أفضل معاملة بل ويااللعجب تتصدى لنوال من أجلي..

هاتفي يرن بإلحاح.. لا يوجد رقم.. إذن هذا فيصل..

ـ كيف حالك يا سارة طمئنيني؟..

قلت هادئة:

ـ الحمد لله في أفضل حال.. وأنت..هل ستزورنا هذا الصيف؟

جاءتني ضحكته عبر الأسلاك:

ـ طبعا سآتي.. سمعت أنك ستتزوجين إن شاء الله هذا الصيف..

اهتز الهاتف في يدي.. تذكرت كاتيا وروبير و..

ـ أنا سعيدة لأني سأراك.. هل ستحضر؟ أقصد.. هل ستحضر وحدك؟

أحسست به يبتسم:

ـ ماذا دهاك يا سارة؟.. طبعاً وحدي.. على فكرة لقد انفصلنا أنا وكاتيا منذ أشهر وهي الآن مخطوبة لشاب لبناني..

انقبض قلبي بشدة.. ويحي.. بالتأكيد تألم أخي وبكى..

وكأنما شعر بما يدور بخلدي فأردف ضاحكاً:

ـ لا يهمك سارة.. هذه كلها صداقات مؤقتة في بلاد الغربة، وفي النهاية يتزوج الشاب فتاة بلاده.. المهم ماذا تريدين هدية الزواج؟..

انداحت الأحزان من قلبي.. ومسني تيار من فرح مفاجئ.. ربما يتزوج ليلى وربما..

عاد لي صوته من جديد:

ـ لا تفكري كثيراً، فلندن كما تعرفين غالية.. اختاري هدية بسيطة.. على فكرة.. ما أخبار مرضكِ هل تعاودكِ النوبات؟

لم أشأ زيادة أحزانه.. قلت له بصوت مرح:

ـ الحمد لله.. لقد شفيت بحمد الله.. أشكر لي د. ستيوارت كثيراً..

تبادلت النظر مع ليلى طويلاً قبل أن أقول لها:

ـ فيصل.. سيزورنا في الاجازة الصيفية القادمة.. قال أنه سيحضر عرسي..

أحسست بعيني ليلى تتألقان ببريق غامض وهي تشدني من يدي قائلة:

ـ هيا يا سارة.. نستشير والدتي في مرضكِ..

في جلستها المفضلة كانت.. دلة القهوة العربية إلى جوارها..

وعاء التمر يتوسط حضنها كطفلها المدلل، تنتقي منه التمرة الأجود والأكبر وترتشف القهوة بلذة وهدوء بال..

بادرتنا قائلة:

ـ فاطمة لديها مأدبة عشاء كبرى غداً، وهاتفتني منذ قليل تطلب مساعدتكن.. يجب أن تكونوا عندها غداً بعد صلاة العصر مباشرة..

ضايقني الأمر وحد من حماسي في مصارحة عمتي بمرضي وتبعاته.. فاطمة مثل نوال، مدللة مغرورة يخامرني شعور غامض أنها تغار على زوجها مني.. قبل زواجها كانت تفتعل المشاجرات معي على أتفه الأسباب، وبعد زواجها أصبحت تترفع حتى أن تسلم عليّ، لم يغادر ذاكرتي ذلك الموقف الغريب حيث كنت أرافق عمتي وبناتها في زيارة فاطمة، ذهبت لأساعدها في المطبخ كما طلبت مني عمتي، حضر زوجها فجأة وهو لا يعلم عن وجودي، دفعتني إلى الوراء بغتة وأغلقت الباب بسرعة في وجه زوجها كيلا يراني.. ثم اشتد بها الغيظ خوفاً من أن عين زوجها قد حفظت ملامحي.. انهالت عليّ وقتها غاضبة:

ـ إنني لا أحتاج لمساعدة.. لماذا جئت؟ ماذا تقصدين؟

بهدوء أجبتها:

ـ والدتك طلبت مني أن أساعدك..

بعصبية واضحة أجابت:

ـ ومن تسير في بيت غريب هل تسير هكذا دون حجاب أو غطاء أو شيء يسترها..

تلعثمت بخجلي:

ـ لم أكن أعلم.. أن زوجكِ في البيت..

ومنذ ذلك الوقت تحاشت فاطمة دعوتي مع أهلها لزيارتها أو الخروج معهم إلى أي مكان يضمها وزوجها، لذلك دهشت وتألمت لأنها تطلب مني أنا وليلى مساعدتها كيف؟ وزوجها؟ قطعت عمتي تساؤلاتي الصامتة بقولها:

ـ ان المأدبة نسائية بحتة وزوجها لن يكون موجوداً في بيتهم منذ الظهيرة..

حملت انزعاجي داخلي بعد أن أشارت لي ليلى ببدء الحديث مع عمتي.. قلت لها بإيجاز:

ـ عمتي أنت طبعاً تعرفين مرضي..

لم تصدم ولم تتأثر بل قالت بسلاسة:

ـ لكنكِ والحمد لله يا سارة أفضل بكثير من السابق.. في تلك الأيام كنت تصرخين بفزع حتى أن «أبو علي» قال انه أصابك مس..

بادرت ليلي بإمساك طرف الخيط هاتفة:

ـ أمي.. نعم.. سارة تشعر بأنها «ممسوسة»..

تركت الأم وعاء التمر ينزلق من بين أصابعها ومضت تتأملني مشدوهة.. مرتعبة.. أدركت ما يدور في ذهنها قبل أن تنطق به:

ـ لكن زوجك يا سارة.. عندما يعلم بهذا..

ومضت تفكر.. وأنا أرقب تساقط الأقنعة عن وجهها الواحد تلو الآخر.. قناع المحبة الزائف، وقناع الطيبة المفاجئ، وقناع الحنان الذي لا وجود له، وقناع الأم الرؤوم، إنها تفكر بالصفقة التجارية التي توشك أن تخسرها.. تفكر بالبضاعة التي أدركت متأخراً إنها معيبة.. تفكر كيف تخرج من هذا الوضع بأقل الخسائر الممكنة..

بدت كما لو كانت تبحث عن مخرج، وملامحها الحقيقية بدأت تظهر، عمتي التي عشت معها أعواماً وأعواماً لم أر منها غير التحقير والاستهزاء والسخرية، هل أبدو ساذجة لأصدق عمتي في شكلها الجديد؟ إن أياماً وأسابيع معدودة لن تلغي عمراً بأكمله، عمراً قضيته على أرصفة البيوت السعيدة تضمني حيناً وتلفظني أحياناً كثيرة، أكون صديقة في بيت وعذولاً في بيت آخر وعدوة في بيت آخر وآخر، لكن أبداً لم أكن صاحبة بيت، جزء من منظومة، ركن أساسي لا يقوم بيت دونه..

كم حسدت الطيور على أعشاشها التي تبنيها قشة قشة.. كم تمنيت أن أكون نملة، لي جحر خاص بي آوي اليه عندما تلفظني بيوت البشر.. قالت عمتي بعد تنهيدة طويلة:

- وماذا تتوقعين مني أن أعمل لكِ؟ أبوكِ متفرغ لزوجته وأمكِ كأنها عروس ابنة ثمانية عشرة والهم والغم والمشاكل من نصيبي أنا..

قالت ليلى محاولة تهدئة الموقف:

- أنت من اقترح زواج سارة يا أمي وليس أحد غيركِ..

علا صوت عمتي وقد تناست كل لطفها وحنانها وشفقتها المستحدثة:

- كنت أريد مصلحتها.. أردت أن أسترها برجل كامل تتمناه كل الفتيات بدلا من تشتتها وتمزقها بين البيوت، لكن من يفعل المعروف..!!

خرج صوتي مخنوقاً:

- عمتي أنا لم أفعل شيئاً.. لم أرفض الرجل.. كل ما هنالك أنني مريضة وأنت تعرفين هذه الحقيقة قديماً، فلماذا تغضبين؟ نحن نبحث عن حل فقط.. حل لهذا المرض..

نفضت عمتي غبار حنانها الطارئ وقالت باستهزاء:

- ولماذا لم تعرضي نفسك على أطباء لندن؟ أم خفت على نقود أخيك التي ربما يصرفها على الراقصات هناك..

تجاهلت تجريحها وأجبتها بهدوء:

- ذهبت إلى أشهر الأطباء هناك.. لكن لا فائدة يا عمتي.. ابتلعت أقراصاً مختلفة والمرض موجود موجود..

أطرقت عمتي تفكر ثم قالت بعد دقائق:

- سأحادث أم صالحة.. وأسألها في أمركِ يا سارة..

تبادلت وليلى نظرة سريعة وعمتي تحادث المرأة المشعوذة وترتب معها موعداً قريباً..

ذهبت وحيدة مع عمتي إليها، لم ترافقني ليلى، فقد خشينا أن

ينكشف أمرنا، ثم أنها همست لي بأنها فرصة لنعرف صدق هذه المشعوذة من كذبها، استقبلت المرأة عمتي بالترحاب الكبير مما يوحي بتعاملات كثيرة متعددة بينهما، نظرت لي المرأة طويلاً وكأنها تتأكد إذا ما كانت قد رأتني سابقا أو أن لي شبيهة قد رأتها يوماً ما.. بيد أنني كنت قد استعددت لهذا بمكياج كثيف حاولت به أن أغطي أغلب ملامحي..

سألت العجوز عمتي وهي تومئ برأسها نحوي: ابنتك؟..

قالت عمتي بثقة: كلا.. هي ابنة أخي..

ثم تهامستا مطولاً غابت أثر ذلك العجوز في الداخل، ثم عادت لتقول بصوت مسموع:

- سارة تعاني من سحر خبيث عملته لها امرأة اسمها لطيفة..

صرخت عمتي كالملدوغة:

- وأين هو هذا العمل؟..

قالت العجوز:

- أنه مشروب يا «أم علي» ولابد أن تتقيأه الفتاة وإلا قضت بسببه.. ولدي العلاج.. لكن أريد خمسمائة ريال أولاً..

التفتت لي عمتي ووجهها ممتقع هامسة:

- سأعطيها المبلغ الآن.. لكنه قرض ستردينه لي من مهركِ..

رباه حتى في المصائب الجسام عمتي لا تنسى نقودها..

قلت لها ساخرة منها ومن شحها:

- سأرد لكِ يا عمتي ألفاً بدلاً من الخمسمائة..

تنفست عمتي الصعداء قائلة: الآن نبدأ العلاج..

(3)

جلست إلى جوار عمتي وليلى وأنا أشد أطراف عباءتي جيداً لتغطيني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، وأرى النساء من حولي المتشحات بالسواد لا يكاد يظهر من أجسادهن شيء سوى عينين سوداوين تبرقان بخوف أو برهبة أو ترقب.. اقتربت امرأة ضخمة الجثة قالت بكلمات سريعة متدافعة:

ـ لابد من قفازات سوداء لليدين.. لن يستقبلكم الشيخ دون قفازات..

قالت عمتي:

ـ لم نحضر معنا قفازات..

بسرعة ردت المرأة:

ـ نحن نبيعها هنا.. القفاز بخمسة ريالات..

لأن عمتي لا تحب أن يقال لها ادفعي.. اتجهت بسرعة إلى حيث تباع القفازات وابتعت ثلاثة أزواج لي ولعمتي ولليلى..

أخذت مكاني بعد أن غطاني السواد بالكامل.. ابتدأ قلبي يخفق بجنون وتساؤلات حادة تطرق مخيلتي.. لمَ جئت إلى هنا؟ وكيف؟ وماذا أفعل؟

أتذكر أنني قد عشت أسوأ أيامي بعد عودتي وعمتي من لدن

المرأة العجوز، أرعدت عمتي وأزبدت وأخذت تكيل الشتائم لزوجة أبي وتتوعد بأنها ستنتقم منها اسوأ انتقام، ثم أجبرتني على استخدام الدواء.. وياله من دواء.. ماء أشربه صباحاً وماء آخر مخلوط بأعشاب اغتسل منه عصراً وبخور لفترة بعد المغرب، وأشياء التهمها مساءً عدا بعض الزيوت الكريهة.. وبدأت أتعب.. أتعب من هذه الأدوية الغريبة وأتعب من جسدي الذي أنهكته هذه السموم وأتعب من النوبات التي ازدادت عليّ خلال هذه الفترة بشكل عجيب..

وذات يوم صرخت بقوة في وجه عمتي:

ـ أرجوكِ عمتي ارحميني.. هذا العلاج قتلني.. انه فعلاً يقتلني..

بالنظرة المادية البحتة نفسها أجابت:

ـ ولكن ما دفعناه من نقود هل يضيع هباءً منثوراً؟ تحملي يا سارة كي تشفي.. أرغمي نفسكِ أكثر وأكثر..

ألقيت بكيس الأعشاب بعيداً وأنا أهتف:

ـ أرجوكِ عمتي لا أريد.. إن السحر يعالج بكتاب الله.. بالقرآن.. فهل تعرفين شيخاً يرقي الناس بالقرآن؟ أما علاج هذه المرأة فلا أريده البتة..

مضت أيام قبل أن تبلغني عمتي بأن هناك شيخاً مشهوراً في حي الربوة بالرياض اسمه «أبو عبد الله» يملك استراحة يقرأ فيها على الناس القرآن، وهناك أيام للرجال وأيام أخرى للنساء والرسوم رمزية لا تتعدى خمسة ريالات..

وافقت عمتي على مضض لابتعد عن تلك الأدوية المقززة، لكن ما بالي خائفة مرتعبة وكأن الشيخ سيلتهمني!! التفت كفأر مذعور وقع في المصيدة حينما دخل الشيخ وأغلق الباب وراءه بالمفتاح، أشعر برجفة تسري في بدني قبل أن يبدأ، ثم بدأ الشيخ يتلو آيات من كتاب الله بصوت جهوري من خلال جهاز مكبر للصوت زادت الرجفة في جسدي.. صداع عظيم يحطم رأسي.. يا إلهي النوبة.. أشعر بكل مقدماتها.. أحاول دفعها.. منعها.. كلا.. ليس الآن... ليس الآن.. ليس أمام الناس.. أيتها النوبة ارحميني اليوم فقط.. تنفسي يزداد صعوبة.. جسدي يرتعش ويرتعش.. الطفلة تصرخ داخلي صرخات مسعورة وحشية.. لا إنسانية.. فقدت السيطرة على ذاتي تماماً، فتجاوبت مع الصرخات وابتدأ صوتي يعلو ويعلو ويعلو..

أفقت علي نفسي مسجاة في حجرة غريبة بكامل ملابسي السوداء، جسدي مبتل تماماً وغارق بالعرق ومياه الجسد.. وحولي عمتي وليلى وامرأة لا أعرفها.. والشيخ يسألني:

- هل أفقت الآن يا ابنتي؟..

بصوت خافت ضعيف أجبت بنعم.. قال:

- هل شعرت بما يدور حولك بعد صراخكِ..

أجبته صادقة بكلا.. قال بصوت وقور:

- أخبرتني مرافقتك أن هذا الأمر يعاودك بين فترة وأخرى دون تلاوة القرآن..

أجبته بنعم.. سألني مرة أخرى:

- هل هناك شيء آخر تشعرين به غير هذا؟..

سرت في صدري برودة الألم، فأجهشت بالبكاء، تتحدر دموعي جمرات تحرقني قبل أن تنزف.. ماذا أقول لك أيها الشيخ وماذا أحكي؟ هل أبدأ بيتمي ووحدتي وانفراط عقدي وأمي على قيد الحياة ترفل بأثوابها الزاهية، لا تعبأ باثنين أخرجتهما إلى الحياة طوعاً أو كرهاً، متغافلة عما يحدث لهما وكأنهما ليسا ابنيها، ليسا جزءاً منها، ليسا ثمرة فؤادها..

أحدهما شريد على أرصفة مدينة بعيدة.. يعاني الغربة واليتم وشظف العيش والأخرى شريدة أيضاً على أرصفة بيوت منسية.. بيوت كالحة خابية ترفض وجودي كما تأبى العذراء يد الغريب.. تترقب مغادرتي كما يترقب المريض مغادرة الألم.. لم أع كيف أصبح وجودي ثقيلاً كئيباً ممعناً في الإيلام، لم أع كيف ضاقت الدنيا على رحابتها في أن تضمني في جنباتها..

هذه التي تجلس أمامك أيها الشيخ وتحسبها أمي.. هذه المرأة غزلت بيديها خيوط كفني ودثرت بالصمت فجيعتي، لم ترحم يتمي ووحدتي وقلة حيلتي، استقبلتني بعد أن انفرط عقد جمعنا، وبتنا عائلة منكوبة، أمي انضمت لعائلتها وأنا وأخي انضممنا اليها مع أبي..

طفلة السادسة ببراءة موسومة بالألم وعذاب الفقد، لم تجد من يحتضنها ويلملم شظايا قلبها المكسور، وجدت امرأة حاقدة تمقت والدتها بعنف انعكس حتى على من ليس لهم ذنب ولا جريرة.. تكره جمال الطفلة الذي يشي بجمال والدتها، تكره تعلق الطفلة بوالدها،

منذ البداية كراهية ولا حب.. استنزاف ولا رحمة.. استغلال بشع ولا حنان.. تصحو وتنام مع الخادمة، حتى آنست ليلى وآنستها فدعتها للنوم بجوارها رغماً عن أنف الحقد الأعمى.. لكنها لا تفتأ تنكأ جراح يتمها وهي ترى عمتها قادمة من الخارج، محملة بثياب العيد الزاهية لبناتها وتبدأ عملية القياس وصرخات البهجة والفرح من الصغيرات وقلب ينزف الألم وينظر لهم بعيون دامعة لا تلبث العمة أن تقول:

ـ قولي لأبيك أن يشتري لكِ مثلهم..

لكنها لا تقول.. وتخطو بخطوات كسيرة وقلب ثقيل وطفولة ممزقة إلى حيث أبيها يحرق اللفافة تلو اللفافة، وملامح الحزن والأسى لا تغادر وجهه، فتشفق عليه.. نعم هي بطفولتها البائسة تشفق على أبيها.. يتفجر قلبها حزناً وحناناً من أجله، فلا تقول شيئاً، لكن عينيها ترتد إلى أخيها بثوبه البالي، يلعب مع ابن عمتها بثوبه الجديد الناصع البياض.. لا فرق بينهما سوى أن الأول بلا أم والثاني له أم قالت لأبيها بصوت كسير:

ـ أبي.. اشتر ثوباً جديداً لفيصل فليس عنده ثوب..

من وراء غلالة الدخان وكثافة الهموم يجيب الأب:

ـ قريباً إن شاء الله..

ولا يأتي هذا القريب أبداً.. ويمضي العيد تلو العيد، وأخوها يلعب بثوبه الكالح مع أطفال بثياب ناصعة جديدة وهي تتوارى عن الضيوف أو تمنحها ليلى ثوباً من أثوابها القديمة..

هذه المرأة لم ترحمني يا شيخ حينما اكتشفت في أحد الأعياد أنني أرتدي ثوب ابنتها، فلم تكتفِ بلومي وتقريعي، بل انتزعت مني الثوب نزعاً وامتهنت آدميتي وكرامتي وقبلهما طفولتي التي لا أعرفها، وتركتني بثياب داخلية اكتوي بنار الحرمان وأبكي الجور والخذلان..

هذه المرأة يا شيخ لم ترحم طفولتي، ولا تخلي أمي عني، ولا حرماني بل أوغلت في قسوتها حد الطغيان وزوجت أبي لامرأة لا تقل عنها قسوة وظلماً، وأعلنت حكم قراقوش.. أنا وأخي ندور بين البيتين كالمتسولين، شهر هنا وشهر هناك ثم شملت الدائرة أمي بعدما أعلنت عمتي بأنها لابد أن تتحمل جزءاً من المسئولية.. وبدأت الأيام تتقاذفنا ذات اليمين وذات الشمال، تطوح بنا غرباً وشرقاً.. بين سندان عمتي ومطرقة زوجة أبي وعصا أمي.. ولا خيار.. ولا راحة ولا أمان ولا تفتأ ذاكرتي تغذي جفافي بومضة من شذرات حنان قديم كنت أعيشه بين أمي وأبي، اجتره من طفولة قديمة.. قديمة بعمر الزمان، لكنه لا يكفي زاداً أتلهى به في ليالي الحرمان..

عمتي أيها الشيخ الجليل لم تصبح عمة حقيقية بمعنى الكلمة سوى منذ أشهر معدودة حيث لاح لها بريق المال وأعمت عينيها بواد الغنى، دراهم معدودة تبدل الجفاء حناناً والمقت حباً والسخرية حبوراً.. يا إلهي.. أهذا ثمنك يا عمتي..خمسة آلاف ريال؟ خمسة آلاف ريال تخرجك من جلدكِ الحقيقي وتحيلك انسانة كباقي البشر!! إذن لو وهبتك عشرين ألفاً ماذا ستكونين؟ أماً حتى الثمالة.. أم ستسكبين طوفان حبكِ الهادر على منابع ألمي وشقائي وبؤسي، أم ستهبينني طفولة ضاعت وسط دهاليز الشقاء.. أم تراه حنانك المزيف

سيروي ظمأ حرماني.. كلا.. لن أقبل بالزيف ولو كان فيه شفائي.. صرخت بقوة.. كلا..

سألني الشيخ بصوت رزين:

ـ ألا زال رأسك يؤلمك؟

استندت على ليلى وأنا أنهض:

ـ كلا يا شيخ.. لكنني أشعر بأقدامي ثقيلة جداً..

ابتسم الشيخ ابتسامة خفيفة وهو يقول:

ـ خير.. خير إن شاء الله.. استخدمي الزيت والماء وواظبي على حضور الرقية.. واعلمي أن شفاءك بالقرآن، لذلك أنصحك أن تقرأي ورداً منه يومياً..

صعدنا إلى السيارة ولا أكاد أشعر بجسدي، هالتني خفته العجيبة وكأنني قد تخلصت من مئات الأطنان من الحديد، خدر في رأسي..ارتخاء في أطرافي.. ضباب يحيطني من كل الجهات.. تساءلت في داخلي..ما بي يا ترى؟ هل لأجواء الرياض الممطرة علاقة بما يدور في أعماقي؟ استرق النظر عبر النافذة كم تبدو الرياض جميلة تحت المطر.. سبحان الله!! حتى الأشياء المنفرة والبغيضة تتحول في الجو الغائم والمطر المنهمر إلى أشياء أخرى ودودة قريبة إلى النفس..

أتأمل الشوارع من حولي.. هذا الشارع كم نفرت منه وكرهته وأحسست به ثعباناً يوشك على ابتلاعي، لكنني استشعره الآن طريقاً

مستكيناً مغتسلاً بماء المطر، أليفاً يكاد يضمني بين دفتيه، ملاهي الربوة كنت أشعر بها نافرة تتحداني كلما مررت بها، لكنها تحت المطر تداخلت ألوانها الزاهية وأزهرت، فغدت لوحة مبهرة تغري باقتحامها وامتطاء عالم من الأحلام الأسطورية.. حتى الوجوه المنهكة للعمال الآسيويين الذين يمرون بنا هطل عليها المطر، فطوى عذاباتها وغربتها وشقاءها، لتبدو إشراقة الحياة تطل كسنا البرق على تلك الوجوه فتضيئها..

أتأمل يدى عمتي بأناملها المعروقة وراحتيها المصبوغة أبداً بالحناء وأظافرها المشققة والملونة باللون الأسود القاتم التي تجيد عمتي صنعه كنوع من الزينة، تأملت تجاعيد عينيها من خلف النقاب دقيقة تحت عينيها وعميقة في الأطراف، أشفقت على عمتي بتجاعيدها وبأناملها المعروقة.. لحظة من عمر الزمن شعرت فيها بطوفان محبة غامر يكتسحني ويفيض على من حولي.. أحببت الجميع وغفرت للجميع وعذرت الجميع..

هبطت السكينة ببساطتها الآسرة وضخامة معناها على روحي المتعطشة، فأروتها وفاضت.. جذبت معها الألم والمرارة والأحزان وأطلقت سرباً من العصافير الملونة وملايين النجمات اللامعة ودفقة من حلم مضئ..

فتحت النافذة الزجاجية ليغمرني الرذاذ المنعش ويعبق بغطائي ورداني، مددت يدي خارجاً أتلقى حبات المطر ثم أرتشف بفمي الماء المتبقي في يدي والقطرات العالقة بأصابعي، والرياض كعروس تستحم

بماء المطر وتنثر شعرها المبتل لتسيل الأرصفة أنهاراً وتذوب ذرات التراب العالقة بالجو كما لم تكن..

قالت عمتي وهي تتنهد:

- كم أتمنى طبق حنيني مع قهوة في هذا الجو الجميل.. ما رأيكن يا بنات؟

همست ليلى وكأنها تناجيني:

- لو خرجنا جميعاً إلى مطعم «بيتزا هت» سيكون أفضل..

انداحت المرارة من أعماقي واستشعرت معنى الصفائين الروحي والجسدي، وللمرة الأولى منذ نشأت أشعر بالتصالح مع ذاتي وأن أهدافي تتوافق مع طموحي.. رنوت إلى البعيد، فما استشعرت ألماً وحزناً، وطفقت أرمق القريب، فلمست السكون والهدوء، فانبثقت الفكرة خارجة من الذات تحمل معها كل آلام الولادة ولواعجها.. سكنتني الفكرة المفاجئة وأبت أن تبرح تفكيري فما لبثت إلا أن هتفت بصوت عالٍ:

- عمتي أريد أن أحج إلى بيت الله الحرام!!

(4)

تناهى إلى سمعي صوت عائشة رفيقتي بالحملة قائلة:

- سارة.. هل هناك من ينام في يوم عرفة؟

دارت عيناي في أرجاء الخيمة الكبيرة، فلم أجد سواي ملتفة بدثار مستلقية في ركن قصي أحمل المصحف الصغير في يدي.. جبتها بصوت خافت:

- إنني لست نائمة يا عائشة أنا أقرأ سورة البقرة..

كانت النسوة من حولي يجتمعن في مجموعات صغيرة تختلف في اهتماماتها، فمنهن من أخذن يتغامزن ويتضاحكن، وأخريات ملتهمن أطباق الحلويات مع القهوة والشاي، والبعض يتدارسن كتاب الله، ومجموعة قصية التفت حول إحداهن التي شرعت في إلقاء محاضرة عن فضل يوم عرفة..

تأملتها.. عائشة بصفاء ووجهها العجيب ومرحها الحبيب وطيبة قلبها التي حببتني إليها، في مثل سني تقريباً تعاني من سرطان في الثدي قد هاجم شبابها الغض قبل عام وثمانية أشهر تقريباً، بعد عقد قرانها بأيام، لكن هذا لم يمنعها وابن عمها أن يتوجا قصة حبهما بالزواج وكأنهما يتحديان هذا المرض الخبيث..

حكت لي وعيناها غائمتان أنها وزوجها سافرا بعد الزواج إلى

www.rewity.com شبكة روايتي الثقافية مختلف

لندن وعرضها زوجها على أفضل الأطباء هناك، الذين أقنعوها بالعلاج الكيميائي، فرفضت ثم عادا إلى الوطن.. تدهورت حالتها، فأدخلت المستشفى التخصصي بالرياض.. لا تنسى ما قاله أحد الأطباء المسيحيين وهو طبيب هندي.. قال لهما بثقة:

ـ اذهبا إلى مكة.. فكثير من مرضى السرطان يعودون إلينا متعافين منها..

بمجرد أن استعادت بعض قواها اعتمرت وزوجها..طافا بالبيت العتيق..سعيا دعيا.. صليا.. قرأت معه كثيراً من القرآن.. شربت من ماء زمزم حتى تضلعت.. تصدقت على الفقراء والمساكين.. عاشت لحظات مسروقة من عمر الزمن، من الصعب أن تعيشها ما لم تكن مبتلاة.. تقول أنها بعد ذلك رأت رؤيا غريبة.. رأت أنها تطوف بالكعبة بثيابٍ بيض والمطر يهطل عليها بغزارة وهي تدعو وتدعو وتدعو.. بشرها أحد معبري الرؤى أنها بشرى الشفاء من المرض تقول عائشة أنها شعرت بالحياة تدب في أعطافها من جديد، فعادت إلى دراستها الجامعية بشغف وجدية.. حتى جاء موعد الحج، فعزمت أمرها ورافقها زوجها ليحجا سوياً..

قالت ودموع شفافة تبرق بعينيها:

ـ ادعي لي يا سارة بالشفاء، فهذا هو أملي الوحيد في الحياة لأسعد زوجي، فكم تعذب معي كثيراً، وكم عانى طويلاً.. حتى والدته أقرب الناس إليه وقفت منه موقفاً مضاداً حينما أصر على الزواج مني..

ثم تنهدت بقوة قبل أن تقول بصوت حالم:

ـ كم أتمنى أن أنجب له الأطفال وأسانده في رحلة الحياة وأسعده كما يستميت هو ليسعدني..

خرج صوتي من الأعماق صادقاً مرتعشاً:

ـ أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك يا عائشة..

ابتسمت لتخفف من تأثري قائلة:

ـ ليس الآن.. إدعي لي في يوم عرفة..

قلت لها باسمة:

ـ وأنت أيضاً يا عائشة إدعي لي فأنا مريضة..

اتسعت عيناها الجميلتان بتساؤلات كبيرة وبصرها يعبر جسدي ويتحسسه بحثاً عن مرض ظاهر..

أشرت لها بيدي إلى داخل صدري هامسة:

ـ مرضي يا عائشة داخلي.. أنه مرض نفسي..

لم تسأل ولم تجادل.. رفعت كفيها الصغيرتين إلى السماء هاتفة:

ـ اسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك يا سارة ويشفيني ويشفي مرضى المسلمين..

قلت لها باسمة:

ـ ليس الآن.. في يوم عرفة..

أغلقت المصحف وأقبلت مع الجموع نتناول طعام الغداء.. بعد صلاة العصر انتبذت ركناً قصياً في الخيمة، وبدأت طقوس طويلة من الدعاء والتكبير والتهليل وقراءة القرآن بخشوع وتدبر ويقين، دعوت طويلاً لكل أفراد عائلتي وخصصت أخي فيصل بأكبر حصة من الدعاء، تذكرت وجهه الحبيب وشحوبه واهتمامه بي فغمرت عينيّ الدموع وأنا أدعو له بالصحة والهداية وطول العمر.. دعوت لعائشة كثيراً.. لم أنس ليلى من الدعاء.. حتى أبي الذي يرافقني الحج دعيت له كثيرا وبكيت..

تداعت إلى ذاكرتي الأحداث القريبة بعدما أقنعت عمتي برغبتي الشديدة في الحج جادلتني كثيراً.. حاولت إقناعي بأن زوجي سيرافقني بالتأكيد في الحج السنة القادمة، وأن الحج مع الزوج أفضل من غيره.. ثم طرحت أمامي المعضلة الكبرى من سيحج معي؟

هتفت بإصرار:

ـ ليلى.. أنا وليلى سنحج..

قبل أن تنطق ليلى بحرف قالت عمتي: إنني أتحدث عن المحرم.. من سيكون محرمك في الحج؟ أخوك فيصل في لندن وأولاد عمتك ليسوا محارم لكِ وأخوتك لأمكِ وأبيكِ لازالوا صغاراً.. وأبوك..

ثم صمتت.. قلت لها مشدوهة:

ـ وأبي يا عمتي؟ ما به أبي؟

مصمصت شفتيها كعادتها في هذه المواقف قائلة:

ـ أبوك خاتم في يد زوجته.. ولن يتحرك خطوة دون إذن منها.. عندما أذهب معه لزيارة عائلية لابد أن يقدم لها تقريراً أين يذهب ومع من وكم ساعة سيمكث ومتى يعود وهكذا، فكيف الأمر بأن يحج معك؟.. انسي يا سارة..

هتفت بقوة غريبة:

ـ أريد يا عمتي أن أحج هذه السنة بالذات وكل هذه المصاعب سيحلها الله

أدهشتني قوتي.. أذهلني إصراري!! هل يعقل بأن من تتحدث بهذه الجرأة هي أنا؟ أنا الضعيفة المنبوذة بلا سكن ولا مرفأ، الشريدة بين البيوت أتسول الإيواء والعاطفة الكاذبة، الناجية تواً من مصيبة كبرى كادت تودي بحياتي، المريضة أبداً بمرض لا شفاء له ولا برء منه، الواقفة دوماً على أعتاب الحياة لا أهيم على وجهي ولا يسمح لي بالدخول..

أهذه هي أنا أم نوال المدللة بين أحضان والديها التي اعتادت أن تأمر فتطاع، تطلب فيكون طلبها رهن إشارتها، أو حتى ليلى من تنتمي لهذا البيت وهذه الأسرة.. لحظتها تساءلت.. ماذا أريد من الحج حقاً وصدقاً؟ هل هو شعيرة يجب أن أؤديها، أو ركن خامس لا يتم إسلامي دونه؟.. كلا.. أعرف جيداً بأن هذا ليس هو السبب.. هو شيء غامض تفجر داخلي كبركان يفور ويفور ويلقي بحممه، فيصهرني ويضج كياني بنداء واحد يأخذ بمجامع قلبي وعقلي.. الله.. الله.. الله..

هل كنت أكفر عن خطيئتي العظمى وأنا لا أدري؟ هل كنت أبحث عن حضن أكبر من حضن الكون يبتلعني بعد أن مللت الأحضان التي لا تسعني؟ هل نفذت آيات الله الكريمة في أعماقي لتخرج مكامنها ولواعجها وخيباتها في قالب واحد هو الظمأ.. الظمأ لواحة أمان وحضن حنان ورعشة كيان.. جسدي كله يرتجف والنداء الداخلي يتصاعد ويتصاعد ويتصاعد حتى حجب وجه عمتي وقامتها، ولم أعد أرى واسمع سوى صوت واحد..

لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك..

خرج صوتي قوياً ثابتاً بقدر عزمي ويقيني:

ـ عمتي.. سأقنع أبي بنفسي..

في اليوم نفسه مساء ذهبت إلى بيت أبي.. بوجه ممتقع، استقبلتني زوجة أبي ثم لم تلبث أن تمالكت نفسها وهتفت بسخرية مبطنة:

ـ هذه زيارة مفاجئة بعد انقطاع.. ثم أن عمتك لم تبلغني..

تابعت وهي ترى يدي الخاويتين من حقيبة ملابسي..

ـ هل ستمكثين معنا طويلاً كعادتكِ؟..

أجبتها بهدوء:

ـ كلا.. إنها مجرد زيارة واستشارة..

لم تتركني مع أبي ولا دقيقة واحدة.. فاضطررت بعد انتظار

طويل أن أصارح أبي بما عزمت عليه.. قال لي بأنه قد حج مع بعض أصدقائه منذ سنوات، وكانت رحلة مرهقة عاد منها مريضاً.. ثم سألني فجأة:

ـ لا مانع لدي من حجك.. لكن من سيرافقك؟

قلت بهدوء لكن بقوة وثبات:

ـ أنت يا أبي..

عمَّ صمت ثقيل في المكان.. دوى صوت زوجة أبي كقنبلة خارج توقيتها:

ـ ولِمَ لا تستدعين شقيقك فيصل ليرافقك؟..

ابتلعت ريقي لأجيب:

ـ فيصل مرتبط بدراسة صعبة، ثم أن عودته إلى هنا تستلزم أموراً كثيرة وموافقات ولا أريد أن أضايقه..

قالت بتهكم:

ـ وتضايقيننا نحن وأبوك على وجه الخصوص.. ألا تعلمين أننا خططنا للسفر إلى دبي، ومشروعكِ هذا غير وارد على الإطلاق..

أحسست بالدنيا تنهار من حولي والأمل الذي بدأ قوياً ألفيته يذوي شيئاً فشيئاً، ثم تنطفئ ذبالته.. امتلأت عيناي بالدموع وغادرتني القوة التي حسبتها غدت إحدى صفاتي لتعود لي إحباطاتي الماضية وذلي وخنوعي..

أعرتها أذناً صماء وقلت مخاطبة أبي ودموعي تغرق وجهي:

- أرجوك أبي.. لا تخذلني..

قالت ناعقة:

- ألا تهتمين سوى بنفسكِ؟.. أنانية مثل أمكِ..

قاطعها والدي بإشارة من يده وقال لي بحنان أبكاني طويلاً..

- اذهبي الآن وسأرد عليك لاحقاً..

ودعته قائلة بصوت باكٍ:

- ليس لي سواكِ يا أبي.. فلا تخذلني..

وبعد أيام.. بعد أن كاد اليأس يطوي وريقات أملي هاتفني أبي ضاحكاً:

- ألا زلت مصرة على الحج يا سارة؟

قلت له برباطة جأش:

- إذا كان الأمر يضايقك فسأنهي الموضوع برمته..

لكنه فاجأني بأنه قد حجز لي وله في حملة حج إلى بيت الله الحرام.. فبدأت رحلة الدموع.. بكيت طويلاً على الهاتف مع أبي، لا أدري كيف أشكره على صنيعه من أجلي.. ثم بكيت أمام عمتي وليلى عندما أدهشهما موقف أبي، وكيف خرج من براثن هذه الحرباء كما قالت عمتي.. ثم بكيت على وسادتي ونمت في بحر من الدموع..

فيما بعد أخبرني أبي أنه قدم لزوجته هدية كبيرة لترضى وتوافق!

واشترطت عليه أن يعوضها عن السفر إلى دبي بالسفر إلى تركيا وبإجازة الصيف وأنه وافق من أجلي.. قال مبتسماً وملامحه تشي بالطيبة والدعة:

- بعد زواجك مباشرة يا سارة.. تسافرين مع زوجك وأسافر مع زوجتي.. ثم قهقه ضاحكاً لكنني لم أضحك ولم أبتسم..

بعد الغروب مباشرة انطلق بنا الباص متوجهاً إلى مزدلفة.. الطريق قصير، لكنه مزدحم جداً بالسيارات والباصات والعربات المختلفة، عدا الكتل البشرية الموجودة بكثافة في هذه المنطقة.. بعد صلاة العشاء بدأنا نجمع الحصوات الصغيرة من الطريق لرمي الجمرات.. قال لي أبي أن الجمرة الأولى هي جمرة العقبة، وهي أولى الجمرات، وسنرميها إن شاء الله بسهولة، لأن الوقت المحدد لرميها طويل يتفاوت الناس في ميعاد حضورهم لرمي الجمرات..

في البداية كان الأمر صدمة لي.. محشورة بعباءتي وغطائي بين آلاف مؤلفة من البشر، أتشبث بأبي بقوة وخوف كيلا يضيع مني وأضيع منه، روائح عرق وروائح طعام وروائح لأشياء لم أتبينها، لكنني لم أحبها، تدافع وتقطع أنفاساً، لكن الأمر كان أشبه بالفردوس بالنسبة للجمرتين الثانية والثالثة التي شعرت فيها بأنني نقطة في بحر يموج ويموج، تتقاذفني الرياح ويلطمني الموج اللطمة تلو اللطمة.. صرخ أبي.. ابتعدي سأرمي عنكِ الجمرات، فالأمر بالنسبة لكِ مستحيل.. رفضت وبإصرار المحارب.. رميت الجمرات الأخيرة الواحدة تلو الأخرى حتى عددتها سبعاً بجهد قطع مني الأنفاس،

وبلغت الروح الحناجر.. وما أن انتهيت حتى تنفست الصعداء وشعرت بسعادة عظيمة وأنا أبكي على صدر أبي فرحة مستبشرة..

في الليلة الأخيرة قبل العودة وبعد طواف الإفاضة ألفيت عائشة صفراء ناحلة، لكن الصفاء والإشراق لم يغادرا وجهها وعينيها.. سألتها إذا ما كانت تشعر بتعب ما وهل أنهكها رمي الجمرات والطواف.. ابتسمت بسعادة حقيقية وهي تهتف:

- صدقيني يا سارة إنها من أسعد لحظات حياتي، وأشعر فيها بأنني أكثر نشاطاً وأكثر قدرة على التحمل.. لكنني رغم ذلك وكلت زوجي ليرمي لي الجمرة الثالثة، فقد أصر وكنت متعبة فوافقت..

استلقت على فراشها بجواري وهي تحدق إلى سقف الخيمة وقالت حالمة:

- سارة.. هل تعتقدين أنني سأعيش وأشفى؟..

هببت من مرقدي جالسة.. ربما أكون قد لفت انتباه النسوة الراقدات بين نيام ومن يقرأن القرآن ومن يتهامسن بصوت خافت كتهامسنا أنا وعائشة..

قلت بحماس وبصوت متهدج:

- إن شاء الله يا عائشة ستعيشين العمر كله، ولن يخيب الله دعاءك..

بعد عودتي من الحج بشهر تقريباً تلقيت اتصالاً هاتفياً.. هزني صوتها..عائشة قالت لي بفرحة زاعقة:

- إنني حامل يا سارة..

سألتها بوجل: ومرضكِ.. هل.. هل..

قاطعتني بضحكة صاخبة:

- لماذا أنت خائفة؟ الأطباء يقولون أن الحمل بالنسبة للمريضة مؤشر جيد لشفائها، وهذا ما أتمناه منذ تزوجت..

أصغيت صامتة ثم أغلقت سماعة الهاتف.. تركت قلبي ينتحب طويلاً..

(5)

لم أكن أتوقع وأنا استعد لحفل زفافي أن مجرى حياتي كلها سيتغير في أيام فقط.. خرجت عمتي وزوجها وبناتها لزيارة بيت عمهم الأكبر، وخلا البيت إلا مني والخادمة.. بدأت فوراً في ارتداء ثوب فخم كنت قد أنهيت خياطته مؤخراً لقياس ملاءمته لجسدي، لأرتديه غداة ليلة الزفاف، كان ثوباً جميلاً بلون وردي زاهٍ يلف جسدي ويبرز جماله، وقفت طويلاً أمام المرآة أتأمله بنظرات فاحصة.. أتممت زينتي لأرى كيف يبدو الشكل النهائي، وضعت لمسات من الورد على شفاهي، وأسدلت شعري الطويل على ظهري، وبدأت أتمايل أمام المرآة بغنج ودلال.. أحسست بحرارة مفاجئة تحرق ظهري.. التفت بغتة لأرى وجهاً مألوفاً يحدق بي مذهولاً.. وقفت برهة لا أريم..

قال سعود أخيراً:

ـ عفواً.. كنت أعتقد.. أن ليلى.. أقصد..

ثم خرج مغلقاً الباب وراءه.. اندفعت فور خروجه إلى فراشي أدفن رأسي في الأغطية، والحرارة المفاجئة انتقلت إلى رأسي ليضج من الغليان وأنا أتساءل.. بلا شك هو سعود شقيق ليلى الأوسط الذي يعمل في شركة آرامكو في الظهران. بالتأكيد هو لا يقصد ولا يتعمد.. أعرفه جيداً، وهو لا يعرفني سوى اسماً، أراه كثيراً في

تجمعات العائلة وفي السيارة وفي الشارع ولا يراني سوى هيكل مغطى بالسواد..

افترقنا منذ بدأت ألبس العباءة والغطاء، ولم يكن يحفل بي على الإطلاق، ولم أكن بدوري أشعر بوجوده.. عندما أنهى الثانوية التحق بجامعة البترول والمعادن في الظهران ولم أعد أراه إلا لماماً.. ثم طابت له الحياة في المنطقة الشرقية، فبعد أن أنهى المرحلة الجامعية عمل فوراً بشركة الزيت العربية «ارامكو» بوظيفة جيدة كما سمعت، وتباعدت زياراته للرياض لانهماكه بشيءون الوظيفة..

لكن أن يأتي في هذا التوقيت ويقتحم حجرة ليلى، فهذا ما لم يحدث أبداً.. انداح أثر المفاجأة الأولى لتبقى مشاعر الخجل والرهبة تملأ كياني، أستعيد ملامح وجهه جزءاً جزءاً وكأنني لم أره أبداً سوى هذه اللحظة، بيد أن شيئاً ما من تعابير وجهه الذاهلة هو ما أربكني وشتتني وبعثر أفكاري، لم أتبين ما هو ولم أدرك كنهه، نهضت بسرعة وبدلت ثيابي وعقلي يضج بأفكار شتى وأحاسيس متناقضة تتناهبني..

دخلت عليَّ الخادمة وقالت هامسة أن سعود جاء من الظهران وأنه يسأل من في هذه الحجرة، فقالت له أن سارة موجودة.. إذن هو لم يعرفني!؟

أصابني الأرق طويلاً تلك الليلة، ولم أبح لليلى بشيء مما حدث حتى فوجئت بليلى تسألني باسمة:

ـ أخي سعود يبدو أنه معجب بكِ.. يسأل عنكِ كثيراً هذه الأيام، وكأنه لم يعرفكِ أبداً.. غريبة!! وعندما علم بأنك مخطوبة لهذا.. هذا العبد العزيز غضب كثيراً وقال إنه لا يناسبكِ!!

هتفت بالرغم مني:

ـ هل قال هذا حقاً يا ليلى؟

اتسعت ابتسامة ليلى قائلة:

ـ يبدو أن الاهتمام مشترك..

قلت نافية:

ـ كلا يا ليلى.. لكن هذا الرأي قد سمعته منكِ ومن أمي والآن من شقيقك سعود..

قاطعتني ليلى:

ـ سارة اعتقد أن أخي سعود يفكر بالزواج منكِ..

صرخة عابرة فلتت مني.. تابعت ليلى:

ـ نعم يا سارة، هذا ما أعتقده من كلماته وأسئلته المباشرة وغير المباشرة ومن حديثه مع أمي عنكِ..

قلت مأخوذة:

ـ لكن موضوعي محسوم يا ليلى.. فزواجي قريب..

التفتت لي ليلى بغتة مثبتة عينيها في عيني وهي تقول:

ـ سارة أنت تعلمين جيداً أن أخي سعود أفضل ألف مرة من خطيبك.. فأجيبيني بصراحة، لو انتهت خطبتك لعبد العزيز بشكل أو بآخر.. هل تقبلين بأخي سعود؟

أطرقت مفكرة ثم سألتها بدوري:

ـ ليلى.. أنت لا تتحدثين من فراغ.. هل أوحى لكِ سعود بشيء..

ابتسمت بود وهي تجيب:

ـ لقد حدثني سعود بكل شيء، وقال أنه فوجئ حينما رآك مجدداً بعد اثني عشر عاماً أو يزيد، قال بأنه لم يتوقع أن يحوي بيتنا المتواضع ملكة جمال..

تجاهلت ليلى احمرار وجهي وتابعت:

ـ بل أنه مندهش كيف لم ينتبه اليك من قبل.. ويلوم أمي كثيراً لأنها لم تسع لتزويجكِ من أحد أولادها..

ضحكت ليلى وهي تقول:

ـ وقال عبارة أضحكتني وسرتني في الوقت نفسه.. قال كيف تقبل أمي بأن تخرج هذا الجمال كله خارج العائلة؟..

اندفع الدم إلى رأسي، فتضرج وجهي كله بالاحمرار حتى يداي ألفيتهما ترتجفان بشدة.. ما هذا؟ وما الذي يحدث؟ هل هي من غرائب الصدف أم لا زلنا في زمن المعجزات؟ ابن عمتي الأوسط لم أحفل به أبداً، بل نفرت منه كما نفرت من عمتي وأولادها جميعاً عدا ليلى صديقتي الوحيدة.. أراه أحياناً فلا يلفتني في شيء أرد عليه مرات عبر الهاتف فلا أشعر لكلماته صدى داخل نفسي، أنه رجل كأي رجل آخر في الوجود، لا يعنيني وجوده ولا يضنيني غيابه، ولم أتوقع في يوم ما أن تنشأ بيننا أية علاقة أو وشاج..

حقاً هو حلم جميل تتمناه أية فتاة.. وسيم، مثقف، ذو مكانة مرموقة، هل كنت من فرط إحساسي بالضياع أقصيه جانباً لأنه أكبر من أحلامي ويفوق كل تصوراتي عن فارس الأحلام وزوج المستقبل؟ هل تشكلت عقدة النقص داخلي من مرضي ووحدتي ويتمي لتفرز إحساساً بالضآلة تجاه كل البشر والدونية نحو كل متميز وجميل وفخم..

عشت حياتي دون أن أفكر برجل من محيطي اتخذه منبعاً لآمالي وفارساً لأحلامي ومنجماً لأمنياتي.. لم أفكر بأحد لأنني كنت أرى نفسي دون الجميع..كل شيء في حياتي عابر ومؤقت.. امتطي حقيبتي ونتفاً من حزني وشذرات من وجعي وأزرعه على عتبات بيوت رفضتني.. وحدها الحقيبة بيتي تحوي ملابسي وكتبي ودموعي تغلفها رائحة الحنين..

رائحة حليب تتسرب إليَّ من شقوق الذاكرة دافئاً متدفقاً مشبعاً بالأمومة حتى انهار العش الصغير على رؤوسنا الصغيرة، فطفقنا نتخبط بحثاً عن عش آخر، مرفأ، نهر من الحنان.. لم أجد سوى بيوت واسعة لكنها لا تسعنا.. فضاءات رحبة لكنها تضيق بنا.. وحدها حقيبتي كانت لي مرفأ وبيتاً وحضناً آخر.. غلفتها رائحة حليب الأمومة لتغدو جزءاً من ذاتي.. أعلقها على كتفي.. انتقل بها من بيت إلى آخر.. احتمي بها عندما تهب الأعاصير على شمعة حياتي واحتضنها عندما تقفل الوجوه أبوابها في وجهي..

الحقيبة هي أمي وملاذي وسكني.. فكيف لابنة حقيبة أن تحلم وتبني وتأمل كما تفعل البنات الحقيقيات؟ كيف لها أن تعيش الترف كأية فتاة بخيالها الجامح وهو يترقب فارس الأحلام ويبني معه قصوراً

من الأوهام؟ إن أقصى حلم كان يراود فتاة مراهقة تنتظرها حقيبة هي أربعة جدران تضمها وأخاها بعيداً عن الكلمات الجارحة والنظرات القاتلة والوجوه الممجوجة وإحساس الضيف الثقيل.. في أي من البيوت التي دخلتها كارهة لم أكن أرى أحداً من ساكنيها رغم معايشتي لهم اليومية.. أدخل كسيرة النفس محطمة الفؤاد أبحث عن ركن أضع فيه حقيبتي الأهم لدي، ثم أتردد عليها كملاذ لي في الأوقات الحالكة..وكل أزماني حالكة..

أتأمل صديقتي غادة في المرحلة الثانوية من دراستي وهي تحكي لنا عن تعلقها بابن عمها وتدلهها في حبه، وكيف تعود إلى البيت لتنسج من خيالها أحلاماً وآمالاً.. ثم سألتنا جميعاً إذا كان في حياة إحدانا فارس ما؟.. طفقت كل فتاة تروي ما عنَّ لها خيالها الجامح أن تصنعه.. حينما سألتني قلت لها بأسى وانكسار: أحلم ببيت..

تعالت الضحكات من حولي.. قالت غادة ساخرة: بيت دون رجل..

استدركت نفسي.. تذكرت مطرباً كنت أتنافس مع ليلى في الإعجاب به.. قلت بسرعة: لا طبعاً.. بيت يجمعني وراشد الماجد.. المطرب!؟

ضحكت الزميلات وبدأت كل منهن تعبر عن حبها لأحد الممثلين أو المطربين..

وبقيت وحدي أتذكر الحقيبة التي تنتظرني في أي مكان وعلى أي رصيف وأحلم ببيت يسدل أستاراً بيني وبين الآخرين..

قلت لليلى بهدوء:

ـ أنت يا ليلى تعرفين ظروفي جيداً.. وتعلمين دوناً عن بشر الدنيا بأسرها بأمر حملي و..

وضعت ليلى يدها على فمي قائلة:

ـ انسي هذا الموضوع يا سارة، فقد أسقطته من ذاكرتي تماماً.. أنت تستحقين سعود، ففيك كل الصفات التي يرغبها أخي في فتاة أحلامه وقد كنت مستاءة من زواجكِ المقبل ورافضة له في أعماقي.. كنت أشعر وكأننا سنلقيكِ في الجحيم.. فعبد العزيز رغم أمواله إنسان بخيل.. صاحب نزوات وأهواء ولا يستطيع أحد أن يتحمله مطلقاً..

هتفت:

ـ لكنني أخطأت يا ليلى.. والخطأ لابد فيه من التكفير..

قالت لي بحكمة امرأة عجوز:

ـ لقد دفعت عمركِ كله يا ليلى ثمناً لهذا الخطأ.. ولابد أن تعيشي السعادة الحقيقية في حياتكِ القادمة.. سارة.. بماذا أرد على سعود؟

اندفع الدم إلى وجهي مرة أخرى وأنا أرد باسمة:

ـ يبدو أن الله تقبل دعائي في الحج يا ليلى..

ضحكت بدورها قائلة:

ـ أريد رأيكِ الصريح بعيداً عن التلميح وفوراً، لأن سعود عندما

يتأكد من رأيكِ سيبدأ معركة قاسية مع الجميع أولهم أمي وأنت تعرفين.. ماذا قلت يا سارة؟

نكست رأسي وقلت هامسة:

ـ وأين أجد أفضل من سعود؟..

صرخت ليلى ضاحكة: أريد إجابة صريحة..

ابتسمت قائلة: أنا موافقة يا ليلى..

ثم لا أدري كيف عادت عقارب الزمن إلى الوراء وعدت مراهقة من جديد.. ازدهر قلبي بالمشاعر الفياضة المستعرة لمجرد أن سمعت بأن سعود يرغب في الزواج مني.. عدت فتاة حقيقية أحلم وأتمنى وآمل، وأصل الأفق بالأمنيات يلونها خيالي بألوان الطيف.. هل حقاً عدت أتنفس من جديد؟

تجاوزت أزماتي الطاحنة وخرجت من عنق الزجاجة وانسللت من فم الأسد لأعود للحياة من جديد.. سبحان الله!! كنت أنتظر كفناً ومقبرة لا زوجاً وبيتاً.. كان عبد العزيز يمثل لي القشة التي ستقصم ظهر البعير وستردديه قتيلاً، كنت أراه المثوى الأخير لأحلامي في الحياة، ثم أضع الفاصل النهائي فلا حياة أرجوها معه ولا أملاً أبتغيه من وراءه..

كنت أعرف أنه لا يناسبني وأعرف أنني لن أحبه، وأدرك مقدماً نوع الحياة التي سأعيشها معه.. لكن الحياة لم تكن تهمني، وبالتالي تتساوى طرق الموت لديَّ..

كنت أستعد للموت بطريقة جميلة يزكيها الأقربون وأولهم عمتي وليس أخرهم أبي.. أحمل جهاز عرسي وأحزاني ورفات طفلي إلى قبر يحوينا معاً ويطوف علينا عبد العزيز حارس المقبرة، فإما أن يدع موكب الجنازة يسير وإلا فالحياة ستضمه إلى مقدمة الركب..

سعود.. يا إلهي.. كيف نسيت الماضي والحاضر وما فتأت ذاكرتي تعتصر مشهداً واحداً تلوكه باستمرار.. مشهد لقائنا الأول، شاب يبحث عن حلم، وحلم فتاة يبحث عن مخرج، شاب مسكون بالأمل وفتاة تنوء بالألم، شاب يرتدي الفرح وقلبه معلق بغيمة وفتاة ترتدي ثياب الحداد على حزن أفل، وتنسج خيوطاً من الخيبة ترتق به بؤساً قادماً، عينان تتوهج فيهما أطياف الصبا وصهيل الفجر المقبل وعينان خبا بريقهما ما بين كمد ماضٍ وكرب آتٍ.. رباه.. أهكذا يأتي الفرج كالمطر مفاجئاً سريعاً غزيرا لا تتحمله نفسي الضعيفة المثقلة بوجع عمرٍ كاملٍ..

ذات الليلة همست لليلى وأنا أضاجع أحلامي وأتدثر بفرحي الزاعق:

ـ ليلى.. هل يعلم سعود.. أقصد.. هل يدري بمرضي؟

التفتت لي بسرعة هامسة بدورها:

ـ لكنكِ شفيت يا سارة..

أجبتها حالمة:

ـ الحمد لله وبنسبة كبيرة يا ليلى.. لكن هل يعلم بشيء من ذلك؟

ابتسمت ليلى.. لاحت لي ابتسامتها الواسعة في الضوء الخافت الذي يشع من أحد أركان الحجرة.. ثم سمعت ضحكة مكتومة قبل أن تقول:

ـ يلوح لي يا سارة أن أخي سعود وفي شغفه المفاجئ هذا لو قيل له أنكِ ستموتين غداً فلن يتزحزح خطوة واحدة عن عزمه على أن يفوز بكِ..

حرارة شديدة تعصف بكياني.. تابعت ليلى بتفكه:

ـ ماذا فعلت لسعود حتى غدا متيماً بكِ هكذا؟ أنني أشبهه بالأمير البرت أمير بريطانيا وأنت اسم على مسمى «سارة فيرجسون»، فلتهنأ بكما العائلة البريطانية المالكة.

فوراً جذبت وسادتي وألقيتها في وجه ليلى لأغلق فمها وعينيها.. لكن ضحكتها الصافية لا تزال تتسلل إليّ من تحت الدثار..

(6)

يتداخل الحلم بالواقع في لوحة بانورامية من صنع الطبيعة.. أعتلي المنصة في كامل بهائي، تضج نفسي بالفرح.. فرح غريب.. عجيب.. لم أذق له طعماً طوال حياتي وإلى جواري سعود بثوب أبيض ناصع يرتدي فوقه عباءة سوداء شفافة.. يرمقني بين الحين والآخر، وكأنه لا يصدق بأنني أخيراً أصبحت زوجته..

أخيراً!! الحروب الطاحنة مع والدته وكأنها تأبى أن ترد مبلغاً تافهاً من المال للعريس السابق.. سمعت سعود يحاورها كثيراً ويقنعها..

ـ أمي أرجوكِ لا تقفي في طريق سعادتنا..

تجيب والدته بحسم:

ـ البنت مخطوبة.. وحرام.. الرجل لا يخطب على خطبة أخيه..

يسألها بصوت مشروخ:

ـ هل تفضلين عبد العزيز عليَّ؟ هل تحبينه أكثر من ابنك؟

ترد عمتي:

ـ من العيب أن يتأمل الرجل ويستعد للزواج ويدفع المهر ثم نأتي لنقول له ليس لدينا فتيات للزواج.. ثم بعد أيام نزوجها ابننا..

يصرخ سعود بعصبية:

ـ وما شأننا به ليضرب رأسه في الحائط.. لماذا تخافين منه؟ لماذا تحسبين له ألف حساب؟ هناك خطأ وتم إصلاحه.. وماذا في ذلك؟

ترد الأم بصوت بارد:

ـ يا إبني العائلة مليئة بالفتيات الجميلات أجمل من سارة بكثير وأنت شاب متميز الكل يتمناك.. اختر أية فتاة وسأزوجها لك فوراً..

يخفق قلبي بقوة وأنا اسمع صوت سعود:

ـ لا أريد سوى سارة..

وتستمر المجادلات والاجتماعات المغلقة.. ثم ازدادوا شخصاً بحضور أبي ثم سمحت عمتي لزوجها المستكين بحضور المناقشات والجدل الدائر.. وبدأت ليلى تزودني بالأخبار.. قالت انهم اتفقوا أخيراً على أن يردوا للرجل مهره وأن يبلغوه أن الفتاة رفضته وأصرت على رفضها..وأن يتم التكتم الشديد على موضوع سعود..

حضر عبد العزيز بعدها بأيام وانتهى الموضوع بهدوء لم يتوقعه الجميع..لم يزد على أن قال:

ـ أتمنى لها السعادة والتوفيق من كل قلبي..

وبعد أيام تمت خطبتي لسعود، وأصر والدي وسعود أن يتم الزواج في موعد زواجي المحدد سابقاً على عبد العزيز.. لأن أخي فيصل قد أتم إجراءات السفر وسيحضر خلال أيام ليكون معنا في

حفل الزفاف.. لذلك اجتهدت وليلى على أن أتمم كل مستلزمات الزفاف بسرعة وخلال ايام فقط..

رافقنا سعود لمجمع الفيصلية التجاري.. كنت أتخبط من شدة الارتباك..فتح لي باب السيارة الأمامي، فرفضت الصعود واتجهت مسرعة إلى الباب الخلفي، وتقدمت ليلى إلى جوار سعود الذى قال ضاحكا:

ـ أيام فقط.. وستكونين هنا يا سارة إلى جواري شيءت أم أبيت..

اندفع الدم إلى وجهي وعادت بي الذاكرة إلى أيام لندن، وكيف تجرأت أن أصعد السيارة إلى جوار شاب غريب دون خجل أو حياء.. ثم يأتي الحياء كله ويغمرني حينما يتعلق الأمر بزوجي المقبل وابن عمتي الذي يخشى عليَّ من نسمة الهواء..

تجولت مع ليلى وسعود في الفيصلية، لكنني كنت خجلة ومنقبضة ومترددة..وما أن تقترب يد سعود من يدي حتى أبعد بسرعة، وأنا أشد قبضتي إلى صدري، ولم استطع أن ابتاع شيئا ذا بال.. كلما اقتربت من تنورة أو قميص أشعر بظل ورائي، وإذا هو سعود يتأمل ما اخترته بابتسامة إعجاب قائلاً بهمس:

ـ سيكون رائعاً حينما ترتدينه..

فيربكني الحياء وامتنع عن الشراء.. وأخيراً بعد ساعات من التجول في السوق جلسنا في الركن العائلي في الدور العلوي من السوق، وقد جلب لنا سعود أنواعاً متعددة من المشروبات وأطعمة

مختلفة من المطاعم المنتشرة بكثرة..ثم أرجع مقعده إلى الوراء متطلعاً إليَّ وهو يقول بابتسامة:

ـ أما آن للشمس أن تبزغ في وجوهنا نحن المحرومين؟..

كففت يدي عن أي طعام وتمسكت جيداً بغطائي.. قال متألماً:

ـ ما بكِ يا سارة.. لماذا أنتِ متوجسة هكذا؟ هي أيام وستكونين زوجتي..

لم أحر جواباً.. فانبرت ليلى غاضبة:

ـ لقد ضايقتها كثيراً يا سعود.. لم تدعها تشتري شيئا والآن تمنعها حتى عن الأكل.. اصبر قليلاً.. يا للرجال كم هم حمقى!!

لم يغضب سعود واكتفى بابتسامة حزينة وهو يقول:

ـ حسناً.. حسناً.. أنا آسف.. أنتظركما في السيارة..

وغادرنا وقلبي يتمزق لوعة وأسى.. رغماً عن أنف خجلي ناديته:

ـ سعود.. خذ نصيبك من الطعام..

عاد وقد اتسعت ابتسامته وأخذ مني الطبق قائلاً:

ـ صدقت ليلى.. الصبر.. الصبر..

كانت تجربة يتيمة لم يكررها سعود لاحقاً، ومضينا فيما بعد نتسوق بمفردنا وبعض الأحيان ترافقنا عمتي..

حتى حضر فيصل من لندن.. لحضوره رائحة لا يعرفها

سواي.. رائحة الدم، رائحة الأمومة، رائحة الود الصافي، عبق العبير بأجوائي، فلفح وجوه من حولي ألفيت ليلى واجمة على غير عادتها.. صمتها يحكي ألف لغة ولغة.. عيناها تثرثران بما يعجز عنه لسانها.. ابتسامتها تلبستها روح شهر زاد، فطفقت تروى الحكايا دون حديث..

عندما أنطق باسم فيصل أمامها يتضرج وجهها حمرة وتصمت لتتحدث بقية الحواس.. اجتمعت وأخي في مجلس الرجال.. المكان الوحيد المتاح لي أن اجتمع فيه بأخي.. ويتخذه أيضاً مكاناً للنوم، فقد رفض الإقامة لدى أمي وأبي وقال أفضل المكوث حيث تمكث سارة..

بادرني فيصل باسماً:

ـ ما هذا الذي سمعته يا سارة.. أتبدلين الأزواج كما تبدلين الثياب؟

ابتسمت لدعابته قائلة:

ـ قدر الله وما شاء فعل..

قال:

ـ حقاً أن المقادير بيد الله يقدرها كيفما يشاء.. لكن سعود شاب ممتاز وهو من كنت أتمناه لكِ زوجاً..

قلت لأغير الموضوع:

ـ وأنت يا فيصل؟

غاضت ابتسامته وهو يقول:

ـ أنا.. ماذا بي يا سارة؟

قلت هامسة:

ـ أقصد الزواج.. متى تتزوج؟ وهل هناك فتاة معينة تفكر أن ترتبط بها؟..

أجاب صادقاً:

ـ كلا.. هل سترشحين لي فتاة ما؟..

بسرعة أجبته:

ـ ليلى يا فيصل.. إنها أفضل فتاة على الإطلاق، ولن تجد زوجة مثلها أبداً.. جميلة ومؤدبة و...

قاطعني ضاحكاً:

ـ ما هذا يا سارة.. ألهذه الدرجة تحبينها؟..

أجبته ساهمة:

ـ بل هي تحبنا يا فيصل..

اتخذ وجهه طابع الجدية وثبت عينيه في وجهي قبل أن يقول:

ـ أنني أفكر فعلاً بالزواج يا سارة.. لكن.. ليلى هل تقبل بي؟

شهقت فزعة وقبل أن أنطق أردف قائلاً:

ـ أنا مريض يا سارة.. مريض بمرض السكر واستخدم حقن انسولين يومياً ولابد أن تعلمي بهذا الأمر..

فاضت عيناي حزناً وألماً.. إذن هذا هو المرض الذي تعاني منه يا فيصل.. وقد حاولت كثيراً أن أعرف سر مرضك.. لكن لا بأس أنه مرض لا يعيق الحياة..

قلت واثقة:

ـ ليلى تحبك يا فيصل ولن يهمها مرضك في قليل أو كثير..

تألقت عيناه بالسرور وهو يهمس:

ـ إذن.. اسأليها الأمر يا سارة وأخبريني..

ذات الساعة كنت أنفرد بليلى أحكي لها كل شيء.. كانت ملامح وجهها المليح تتبدل وتتغير من الفرح الطاغي إلى الأسى ثم التعاطف ثم طغى الرضا ليكسو ملامح وجهها كله.. قالت وعيناها تومضان ببريق الأمل:

ـ أنت تعلمين يا سارة غلاوتكما عندي..

قاطعتها ضاحكة:

ـ غلاوتنا أم غلاوة فيصل؟..

لم يتوان فيصل عن التقدم رسمياً لخطبة ليلى على أن يكون حفل الزفاف بعد عودته من بريطانيا بعد عام على الأرجح..

وفي خضم هذه الأحداث نسينا أمي.. فوجئت بها تدخل علينا في بيت عمتي.. أول مرة تخطو قدماها بيت عمتي بعد سنوات طويلة.. لاحظت الامتعاض على وجه عمتي في البداية ثم الفتور فيما بعد..

تأملت أمي بأسى.. لقد تغيرت وتبدلت المرأة الجميلة التي كانت إلى بقايا امرأة.. عيناها الجميلتان محاطتان بالتجاعيد الدقيقة كشبكة العنكبوت.. وكسا ملامحها الذبول والانطفاء..

همست لي بصوت كسير:

ـ أهكذا يا سارة تتم خطوبتكِ.. ثم خطبة فيصل دون أن أعلم؟..

تلعثمت وارتبكت وأنا أقول:

ـ كل شيء تم بسرعة يا أمي.. وصدقيني لم يكن هناك حفل ولا أي مظهر فرح فقط اتفاقات بين الرجال..

اغرورقت عيناها بالدموع.. مسحت بكفها دمعة كبيرة تحدرت على خدها الشاحب وهي تقول بالصوت الهامس نفسه:

ـ لكنني أمكما يا سارة مهما يكن..

دارت بي الدنيا ودرت بها.. اتقد الجرح واحتدم الألم وطفح الصديد.. أمي.. أماه «يمه».. أين كنت في طفولتي الجرداء وأنا انتحب ليلة عرسكِ أبحث عنكِ في كل مكان؟ أسأل حجارة الطريق عن حضنكِ الدافئ..

أين كنت في أحرج مراحل عمري؟ أقف أمام المرآة عارية إلا من خوفي وخيط من الدم ينبثق من جوفي ويخالط بياض أقدامي.. أسعى مرتجفة فزعة أبحث عن حضن أمان أودعه هلعي وتوجسي فلا أجد.. الام واحدة وهي في أحضان زوجها فلا أجد سوى الخادمة تطمئنني بأن هذه بداية الأنوثة..

أين كنت في دوامة مرضي العاصف القاسي المدمر؟ طفقت ألهث بحثاً عن سكن أهجع في كنفه هرباً من نوبات المرض الكاسحة، فلم أجد من ألوذ به سوى وسادة أغرقتها بدموعي ونفس ضائعة.. تائهة في لجج النسيان..

أين كنت أمي حينما أنشد منك المعونة بعد أن تلاطمت بي أمواج الحياة فلا تدري أي شاطئ تقذف بي إليه، حينما انتقل من بيت ينبذنا إلى بيت يكرهنا إلى بيت يمقتنا ويستثقل وجودنا..حينما يأتي وقت المغادرة كان يتمي يصرخ بأمومتكِ.. وعيناي تستنجدان بفائض حنانكِ وجفافي يتمسح بمحيطات عطفكِ.. أن تستبقينا لديكِ مزيداً من الوقت لأنه من الثوابت ألا حب يعلو على حب الأم، ولا حنان يفوق حنان الأم، لكنكِ كنت أقسى من الغريب.. فلفظتيني كما تلفظ التمرة النواة وأرغمتيني بجفائك على الاحتماء بحقيبة التصق بها.. انتسب إليها.. انضوي تحت لوائها وتكون لي كل شيء أماً ومسكناً ودنيا صغيرة..

أين كنت في مصيبتي الكبرى؟ كأي أم في هذه الظروف.. وحيدة تتناهبني الرياح.. أحمل جنيناً أمقت أباه وأسير قدماً في طريق الخاطئات.. كنت أعرفك جيداً وأعلم انكِ ستخذليني وتفضحيني وتنبذيني.. لذلك لم أضع أمومتك في اختبار ستسقط فيه حتماً، وفضلت اللجوء إلى فتاة في عمري أو تصغرني تساندني في مواجهة الموت أو العار..

أين كنتِ يا أماه حينما خرجت من عملية الولادة.. عملية ذقت

فيها الأهوال وكدت ألاقي حتفي مرات ومرات.. أمشي بخطوات مترنحة وخواء العالم كله يعوي داخلي..

وفيصل يا أمي.. يا من كنتِ أمي.. في جعبته المزيد من ذكريات الأمومة المنسية على رفات الزمن..

فاض الوجع وتبعثرت الآنات، فانسكبت العبرات.. نهضت بسرعة إلى حجرتي مع ليلى واحتضنت أمي الحقيقية.. حقيبتي!!

فجأة في حفل الزفاف ألفيتها تأتي متعثرة بخجل..أمي.. قبلتني بود وتمنت لي السعادة طوال العمر.. أشفقت عليها وتفجرت داخلي ينابيع من الرحمة والرأفة فأمسكت يدها بلطف لأطبع عليها قبلة غفران ثم ضممتها لي برفق..

همس سعود باسماً:

ـ أنت تثيرين غيرتي بهذا..

ابتسمت له بحب متأملة أخي فيصل وهو يختلس النظرات إلى ليلى القابعة إلى جواري بكامل حجابها..

تصدح الأغنية من جهاز التسجيل الكبير الموضوع في زاوية قريبة من مقعدي

ليلة يا أم العروسة الله يتمم هناكي

هذي ليلة سعيدة والحبايب معاكي

ألمح زوجة أبي تتسلل خارجة من المكان.. يتبدل وجه عمتي

ويشحب وكأنها تلقي باللوم على من وضع هذه الأغنية.. أمي تشهق باكية..

تذكرت ثلاثة أزواج من الأحذية ابتعتها من لندن كهدية لثلاث سيدات لم يعبأن بالهدية ولا بالمهدي.. راودتني فكرة مضحكة أقسرتني على الابتسام.. بادلني سعود الابتسامة دون أن يدري كنه تفكيري..

«أحلام مؤجلة»

منذ متى أحببت فيصل؟

لا أعرف.. بيد أنني تشربت حبه منذ الطفولة.. أحببت مرآه وآنست لحضوره وطربت لحديثه، وعندما يغيب عني تظلم الدنيا في عينيّ فجأة، ويغدو بيتنا موحشاً كئيباً.. وأحببت سارة لحبي لأخيها.. كنت أبكي بشدة عندما يغادرانا إلى بيت أبيهما أو أمهما، وكانت أمي تعنفني بقسوة ولا زلت أذكر قولها:

ـ ماذا تريدين منهم؟ هل تريدين زيادة أعبائنا؟ إذا كنت تريدينهما فاذهبي معهما..

وابتلع شهقاتي الباكية داخلي وأسدل سجفاً من الصمت على مكنونات قلبي ودخائل ذاتي.. لكن لا ألبث إلا أن أعود لغيي حالما أرى جفاء أمي وتبرمها وقسوتها فانبري أدافع عن سارة وأخيها بكل حرارة.. تشتمني أمي من جديد ولا ألبث أن أعاود الكرة تلو الكرة..

لكن متى تفجر حبي لفيصل؟

هل في ذلك اليوم البعيد حينما عاد جريحاً من الخارج يشد قدمه الجريحة بصعوبة ويلجم دموعاً ملأت مقلتيه، كان في الثانية عشرة من

عمره يتلفت فزعاً والدم لا يفتأ ينبثق من الجرح بسيماء أفزعت صبيا غراً في مثل عمره، أمي لم تحرك ساكناً، فأسرعت وسارة إليه نحاول محاولات ضحلة لإخراج شظف الزجاج المكسور من قدمه، ولما يئسنا وهو يصرخ مرتعباً.. صرخت بأمي باكية:

ـ أمي.. فيصل سيموت..

نهضت أمي متثاقلة وهي تغمغم بكلمات غير مفهومة وبحركة بسيطة من يدها أخرجت الزجاج.. ثم توليت أنا وسارة تعقيم الجرح وربط القدم بالشاش الأبيض ودموعي لا تزال عالقة بأهدابي..

وعندما انتهينا نظر لي فيصل بود عميق وهو يقول:

ـ أنت رائعة يا ليلى..

وقتها أحسست بمشاعر طاغية تسمو بكياني إلى حيث القمر والنجوم، تحملني ذبذباتها ثم تتركني معلقة بين الغيوم.. إحساس عجيب حيرني تفسيره، يتأرجح بين السرور والنشوة مع شعور عارم بالضياع..

لكن ربما تفجر حبي لفيصل في تلك الرحلة الخلوية إبان يوم شتاء عاصف أصر فيه أهلي على أن نخرج في رحلة للبر..

نصبت الخيام وأضرمت النيران، وبدأت مع سارة نلهو ونجمع النباتات الحديثة النمو في الصحراء، في السادسة عشرة من عمري كنت أرقب فيصل بعين خفية وأتابع خطواته، وكأنما يخطو فوق قلبي وصبابة حارقة تعصف بكياني الصغير.. ألفيته يتخذ مكاناً بعيداً فوق

ربوة صغيرة افترش فيها سجادة صغيرة يقرأ فيها كتاباً وعندما استدعاه خالي أتى مسرعاً على أن يعود لاحقاً..

فاض حبي وشوقي وشجني فغافلت سارة وذهبت إلى مكان جلوس فيصل، نزعت حجابي وعباءتي وجلست.. فلما عاد فيصل وقف لحظات مذهولاً ثم أخذ يعتذر بلغة لم تسعفه واحمر وجهه احمراراً شديداً.. فاضطررت أن انسحب صامتة..في عيني دمعة..وفي قلبي لوعة.. وفي جسدي ارتعاشة عصفور حاق به الأجل..

بكيت كثيراً تلك الليلة، لم أحتمل طوفان مشاعري بذلك الطغيان المخيف دون أي مقابل من الطرف الآخر، أربكني صمته وهزني تجاهله وأدماني خجله.. ماذا يعني كل هذا؟ حب من طرف واحد، أي كالطائر بجناح واحد، كالشخص بعين واحدة، كاليد الواحدة لا تصفق..

وقفت أرقب الصحراء مترامية الأطراف بعينين دامعتين، وانتابني غضب كاسح وددت لو أروي رمال الصحراء بدموعي أو ألقي بنفسي بين غياهب الرمل.. أملأ به فمي، وأغسل به شعري، وأدثر به جسدي، علني أهدأ وتسكن جوارحي بيد أنني فوجئت بظل يسقط على ظلي..كانت فاطمة شقيقتي.. قالت باسمة:

ـ أنه لا يحبك ولن يحبك يوماً..

ومضت على حطام قلبي.. أسمع طقطقة عظام قلبي وهي تتكسر تحت قدميها.. بيد أنها غير عابئة بثورتي التي أوشكت حد الجنون..

فألقيت نفسي على الرمال أتمرغ فيها، أحتضنها بجسد عاشق، وأدعها تتخلل شعري وتغمر أنفي وشفاهي ببطء، ثم تنزلق ملتحمة بجسدي والذرات تغوص داخل كياني طامسة كل آثار سخطي وغيظي.. لتبقى فتيلة صغيرة من نار حبي يزداد أوارها كل دقيقة.. تلك الليلة فقط أدركت عظم حبي لفيصل..

عدنا إلى الرياض وحمى الحب تستعر بين جوانحي، لكنني عزمت على طمرها في أعماقي حتى يقدر الله أمراً..

كنت أراه كثيراً، وحالما يقع بصري عليه تعلو دقات قلبي وتصيبني حرارة مفاجئة تشملني من رأسي حتى أخمص قدمي، فأغض الطرف وتغيبني أحلامي في عالم ضبابي لا يطرقه سوانا، أرى نفسي فيه عروساً تختال بالرداء الأبيض، يطوقني فيصل بحنان، وما ألبث إلا أن أفيق على الواقع ومرارة السراب تطارد لحظات صحوي وأزمان إفاقتي..

حتى قرر فيصل السفر إلى لندن للدراسة والعمل.. وقفت مذهولة مفجوعة لا أستطيع النطق، وآمالي تتسرب من بين أصابعي كماء زلال، وأحلامي غدت معلقة مؤجلة مرفوعة من الخدمة مؤقتاً.. ومتى؟.. حتى يعود فيصل.. ومتى؟ ثلاث سنوات أو ست أو ربما تسع.. واحتمال ألا يعود أبداً.. واحتمال آخر كبير أن يعود وبرفقته أجنبية شقراء، ولأذهب وحبي إلى أتون الجحيم.. رباه.. كلا.. تفجر غضبي قوة مدمرة حطمت بها المرآة أمامي، وبدا فيها وجهي المشروخ متعدد الزوايا يسخر مني ومن سذاجتي ومن طوفان عاطفتي الذي أغدقته على سراب، ولن أجني من وراءه إلا الانصهار والذوبان حتى الموت.

ضمتني سارة إلى صدرها لتنسكب الدموع أنهاراً من عيني تصب في بحيرات دموعها الفائضة.. وحدنا الألم المشترك وجمعنا الإحساس بالفقد..

قالت سارة من بين دموعها:

ـ ليلى.. أشعر بعالمي ينهار من حولي.. فيصل سيسافر.. وأنا من لي سواه..

قلت لها والشهقات تزدحم بصدري:

ـ أنا لكِ يا سارة.. لا تخافي ما دمت معكِ.. ثم أن فيصل سيعود..

فاض بي الحزن، فلم تسعفني الكلمات وانخرطت في نحيب حار.. همست لي سارة وبريق عينيها يتلألأ في فضاء الحجرة المظلمة:

ـ أتحبين فيصل يا ليلى.. أتحبينه؟..

أجبت وأنا أبكي:

ـ بل أعشق الأرض التي يسير عليها، ومستعدة لانتظاره طوال العمر.. لكن.. لكن.. هل يشعر بي فيصل؟ هل يعلم بحبي؟

أخذتني في أحضانها من جديد وهي تمسد شعري بحنان:

ـ سيعلم يوماً ما يا ليلى.. وأنا على ثقة تامة بأنه لن يتزوج غيركِ أبداً..

همست بحشرجة وأنا أتعلق بقشة الغريق:

- أبداً يا سارة..

أجابت ساهمة:

- أبداً يا ليلى..

لم يخفت حبي بابتعاد فيصل.. بل ازداد ضراوة وعنفاً وأنا أتعقب أخباره القليلة من سارة، وأعيش على أمل أن يجمعنا بيت واحد مستقبلاً.. كنت أودع يومي بلحظات طويلة أتأمل فيها صورته الوحيدة المخبأة بين أثوابي، ثم أنام على طيفه وأقضي ليلي في أحلام طويلة يكون هو فارسها الأوحد ببطولة مطلقة وبلا نهاية وعندما يضنيني الشوق ويستبد بي الحنين أبحث في وجه سارة عن ملامح وجهه وأنقب في حكاياتها الصغيرة عن ظل من ظلاله، والتمس من دفء يديها حرارة فقدتها بغيابه..

عندما سافرت سارة إلى أخيها في لندن أظلمت الدنيا بعيني فجأة، وكأن فيصل يرحل من جديد، لكن بألم أشد وطأة وبعذاب أكثر وقعاً.. عافت نفسي الطعام وتاهت روحي بعيداً بعيداً عني، فغدوت أمشي بلا روح وأعيش بلا حياة.. أمشي وأرى وأنام، لكن مع غياب تام للحواس.. أترقب مكالمات سارة المتباعدة بيد أنها لا تروي ظمأ ولا تشفي غليلاً..

حتى عادت سارة محملة بنفحات من روح فيصل وشذرات من أقواله وأفعاله.. استاف من عبيرها فوعة من أريج فيصل ولا أرتوي ولا أهدأ، بل أكابد الوجد ويكابدني، وأطوي لهيبا يشق صدري ويكاد يذيب الضلوع..

متى وقعت في حب فيصل الصغير؟

لا أدري.. لكن ربما منذ رأيته بين يدي الطبيبة وبشرته زرقاء، أشقر الشعر بعينين بنيتين بصفاء عجيب، حملته بيدي ملفوفاً بخرق بيضاء، يصرخ صرخات محمومة وكأنه يدرك كل شيء.. فتح فاهه الصغير وكأنه يستنشق عبير أمومة سيفقدها إلى الأبد..اعترتني رجفة ومست جسدي قشعريرة ألمتني.. أنه لا يشبه سارة بل على الأرجح هو صورة من والده.. لكنني أحسست بدم فيصل يكاد ينبثق من وجنتيه.. يده الصغيرة تتشبث بأصابعي، وكأنها تستحلفني بألا ألقي به في غياهب المجهول، وكأنها تقسم لي بأغلظ الإيمان ألا أتركه من أجل فيصل حبيب العمر وخدين الروح..

همست وعيناي معلقة بهذا الكائن الجميل:

- أرجو ألا تراه سارة فإنها ستتعلق به حتماً..

ذهلت الطبيبة كما أذهلني جمال هذا الطفل العجيب.. بيد أن ذهولي كان يخالطه حب غريب بدأ ينمو بين أضلعي، كنبتة صحراوية انبثقت من بين الصخور والرمال.. تضاعف حبي له وازداد حينما أنت سارة قائلة:

- دعوه يموت.. دعوه يموت..

ضممته إلى صدري بقوة، وتمنيت لو كانت لي القدرة على حشره داخل حناياي فأحميه من كل مكروه.. ارتعبت من نظرة سارة التي وجهتها نحو الصغير.. نظرة مقت وألم وامتعاض ثم صرخت كلبؤة جريحة:

- لا أريد أن أرى هذا الطفل..

سألت الطبيبة بهمس وقلبي يخفق بقوة:

- إذا توفر للطفل أكسجين.. فهل سيعيش؟

اتقدت عيناها بلهيب النقود وهي تهمس:

- بالطبع.. لكن الأكسجين يحتاج لنقود و..

قاطعتها بصوت خافت حرصت ألا يخالط سمع سارة:

- اعملي كل ما بوسعك لإنقاذه وسأعطيك كل ما تريدين.. لكن طمئني سارة بأن الطفل سيموت قريباً.. أرجوكِ..

ثم وضعت في يدها مبلغاً من المال كدفعة أولى، وذهني يعمل في كل الاتجاهات.. ماذا أفعل بالطفل فيما بعد؟

هاتفتني الطبيبة بعد أيام لتطمئنني بأن الطفل قد تحسنت صحته بدرجة كبيرة، وهو يتلقى أكسجين بصفة دائمة.. لكنها سألتني:

- حينما يخرج من الحضانة بعد أيام ماذا أفعل به؟

قلت لها بثقة:

- لا يهمك.. سأتدبر أمره..

قضيت بضع ليالٍ مؤرقة تتناهبني فيها حيرة الأسئلة.. ماذا أريد من هذا الطفل الخطأ؟ ولماذا وقعت في حبه بهذه السهولة العجيبة رغم أن مشاعري عصية إلا على فيصل، وقلبي محكم الإقفال موصد

الأبواب استثناء من فيصل وسارة.. هل لانتماء هذا الطفل لهما بشكل أو بآخر؟ أم أنه فعلاً يشبه «فيصل»؟

ومضيت سادرة في موضوع احتضان الطفل.. طمأنت سارة بأن الطفل قد مات واتفقت مع إحدى صديقاتي والدتها تعمل حاضنة في دار التربية الاجتماعية بالرياض بأن تدخل الطفل الدار على أنه طفل لقيط ثم أحتضنه عندما تسنح الظروف.. واتفقنا على تسميته باسم «فيصل»..

يوم زفاف سارة على سعود أخي زرت فيصل الصغير صباحاً.. رباه ماذا حدث لي حينما رأيته؟

كياني كله يرتجف بشدة، وعيناي طافحتان بالدموع.. مسني تيار الأمومة الصاعق، فأحالني إلى صدر كبير مترع بالحب والشجن والأنين.. افتر ثغره الصغير عن فم يخلو من الأسنان، مرحباً بوجودي، وتعلقت عيناه العسليتان بعيني، وكأنه يبحث عن شيء ما.. وكأنه يبحث في ملامحي عن أم له تركته ولن تعود.. مد يده الصغيرة وجذب أطراف شعري بقوة آلمتني وأسالت الدموع من عيني مدراراً.. همست له: فيصل.. فيصل.. حبيبي فيصل..

أجابني بمناغاة طويلة أثارت لواعجي وأسبغت على روحي حزناً شفيفاً.. ماذا سيكون مصير هذا الطفل بعد أعوام؟ هل سيبقى في المكان نفسه دون أن يعرف له أماً رؤوماً ولا أباً شفوقاً ولا أسرة ولا قبيلة في مجتمع يعيش بأمر القبيلة وينام بأمر القبيلة ويتزوج ويتناسل بأمر القبيلة!؟ فأول سؤال يوجه للخاطب حينما يتقدم لخطبة أية فتاة

«من أي قبيلة أنت؟ من هو أبوك وأجدادك؟ من هم أخوالك وأعمامك»؟

ضممته إلى صدري بقوة حتى كاد يخالط أضلعي.. ترى هل أخطأت في حقك يا صغيري وجنيت عليك بإعادتك إلى حياة لا مكان لك فيها.. أم تخلت وأب مجهول..هل تغلبت أنانيتي وحبي الذي أعماني عن مصير طفل لا أحد يرغب بوجوده؟ وهل أخطأت في حق صديقة عمري سارة حينما أبقيت خطيئتها حية تنبض وتتنفس الوجود عندما أرادت لها الموت والنسيان.. هل يصلح هذا الطفل لبنة للمستقبل أم أنه معول هدم لحياة فتاة أخطأت وستبدأ من جديد.. هل هو قدر أم قصاص.. ذكرى أم نسيان.. ماضٍ انتهى أم مستقبل يشعل خط البداية.. وأنا أقدم لفيصل زجاجة الحليب هاتفتني سارة ضاحكة:

- أين أنت يا ليلى.. أحتاجك بسرعة..

أجبتها ساهمة:

- سارة.. ماذا ستسمين أول أطفالكِ من سعود؟..

أجابت بمرح:

- ليلى.. سنسميها ليلى..

عدت لاحتضان فيصل وأنا أبكي من جديد..

«حلم مشنوق بغلالة من حرير»

الضوء يتسرب من شقوق النافذة ليضئ شعري الأشقر بانكسارات متعددة، تتقزم عندها انكسارات ذاتي المضعضعة المتهافتة المجروحة.. يتدفق شلال الضوء كاملاً لينسكب على روحي، فيغمرها بحزن معتم داكن بغيض، وتتألق عيناي العسليتان كما لم تتألقا أبداً من قبل بدموع رائقة لامعة وغزيرة..

دوماً كنت مختلفاً.. بياضي كان ناصعاً، شقرتي كانت مخيفة، عيناي كانتا بحيرتي عسل، وسامتي كانت نادرة وغريبة ومثيرة وسط أطفال جلهم سمر البشرة وبعضهم داكنو البشرة، وقليل منهم يخالط بشرتهم البياض.. أفتح عينيَّ على أمهات عديدات ماجدة ومنى وخديجة، لكن بلا أمومة.. بين الحين والآخر تنبثق دنياي الكئيبة على وجه مليح لا يشبهني، مترع بالحنان يفيض أمومة لا أعرفها لكنني أستشعرها.. وجه مشرق يملأ الدنيا حولي بهجة وحبوراً.. «أمي ليلى» اعتدت أن أناديها فتقبل عليَّ إقبال الدنيا على بائس محروم، فتمنحني كل ما كنت أتوق إليه من حب وعطف وود خالص يسري في جسدي مسرى الدماء بالعروق..

«أمي ليلى».. ماذا كانت تمثل لي؟ بل من أنا دونها؟ إنها كل

شيء.. كل شيء البهجة والسعادة والحلم والأمل.. في غيابها أحلم بعودتها وفي وجودها أخشى غيابها.. من خلالها أتنفس الحياة وأتذوق طعم الوجود وأتلمس معنى الرحمة..

همست لها يوماً والكرة العسلية في عينيَّ تبحر في عينيها السوداوين:

ـ ماما ليلى.. أنا أحبكِ كثيراً خذيني معكِ..

غشت عينيها سحابة دمع ثم قالت بهمس شفيق:

ـ لا أستطيع يا حبيبي في الوقت الحالي.. ربما فيما بعد.. من يدرى؟

وغبت في أحضانها من جديد، وأنا أود لو توقفت الدنيا في هذه اللحظة وهذا الزمان لأبقى معها إلى الأبد..

يوماً بعد يوم إزداد تعلقي بها لدرجة الجنون.. أضحى وجودي معها هو الوجود وما خلا ذلك عدم في عدم.. لحظاتي معها هي زادي الذي أقتات منه لأستطيع تحمل حياة الدار المملة الكئيبة الباردة.. جرعات الحب التي أتلقاها منها تساعدني على الصمود في معاركي مع الرفاق وجفاف الحياة من حولي..

جاءتني مرتبكة ذات يوم.. جاهدت لتخلص نفسها من ذراعي قبل أن تقول:

ـ اسمعني جيداً يا فيصل.. أنا لست أمكِ الحقيقية..

كلمات غريبة تطرق أذني ولا أسمعها.. تملأ الهواء من حولي

ولا أتنفسها تتساقط كحبات المطر على رأسي وعينيَّ وأذنيَّ فتنزلق دون أثر..

ابتسم بوجهها، أحاول أن أعود لأحضانها من جديد لأشبع من حنان فقدته أياماً طويلة تستوقفني بنبرة جادة.. يداها الرقيقتان تمسكان بكتفي بقوة رفيقة.. عيناها يكسوهما بريق حزين..

تراكم الصقيع داخلي وأنا أسألها:

ـ ماذا يعني هذا؟

حقاً لم أفهم.. ماذا يعني أم حقيقية أو أم مزيفة؟.. الأم هي التي أستشعر فيها معاني الأمومة كاملة من حب وحنان ورعاية واحتضان.. هي من تهفو لها نفسي وكل جوارحي.. من أرى وجودي بين عينيها وتفيض عيناي بروعة وجودها.. أماه.. أمي.. ماما.. لم أنطق هذه الكلمة لسواها، وأنا أعني كل حرف فيها أ.. أحبك.. م.. مودة.. ي.. ينبوع من الحنان.. اعتدت أن أنادي مربياتي بماما.. ماما هاجر وماما خديجة وماما منى و.. لكن معها وحدها يتغير اللفظ وتتطابق الكلمة ومعناها، وتكتسي الأحرف برداء المحبة الصادقة الخالصة بلا تزلف أو رياء..

ماما ليلى.. ماذا تعنين؟ لماذا أنت كئيبة؟ كيف يتبدى العالم بهذا السواد في لحظة واحدة، لمَ تبدو ملامح أعز مخلوقة على وجه الأرض مكفهرة.. متعبة يائسة..

همست: ـ افهم يا حبيبي.. أنا لم ألدك.. أمك التي أنجبتك ستحضر لزيارتك قريباً.. فقد أفهمتها كل شيء..

انتفاضة غريبة سرت في كياني.. همست لها وعالمي الصغير يتداعى:

ـ وأنتِ يا ماما..

أجابت ساهمة:

ـ أنا مريضة يا فيصل.. وسأذهب في رحلة طويلة قد لا أعود منها أبداً

قفزت من مكاني هلعاً، وتشبثت بها باستماتة ورعب العالم كله يزحف باتجاه قلبي كيف أفقد دنيتي الوحيدة؟ ومخدعي الذي آوي إليه في ليلي البهيم.. بل كيف أتنفس هواءً لا تتنفسه أمي..

شرقت بدمعي:

ـ خذيني معكِ يا أماه.. خذيني معك.. لن أعيش دونك..

شعرت بجسدها يهتز بقوة ثم تعالت الشهقات تشق صدرها لتنساب الدموع مدراراً فتغمر وجهي وثيابي..

قبلتني كثيراً وأدركت من اصفرار وجهها وانقلاب سحنتها وحزنها البادي بأنني لن أراها من جديد..

لم تمنحني فسحة من الوقت لأودعها، بل انسلت كما جاءت بهدوء ودون ضجة.. وحينما استعدت كتابي من زميلي تلفت حولي ولم أجدها..

ليالٍ طويلة قضيتها باكياً منتحباً أخشى ألا أراها بعدها أبداً.. أياماً أخرى انقضت قبل أن تبلغني ماما خديجة أن أمي الحقيقية ترغب في

رؤيتي، هرولت باتجاه الحجرة طمعاً بأن تكون ماما ليلى.. لكنني فوجئت بامرأة أخرى لا أعرفها.. امرأة ممتقعة الوجه.. شاحبة.. غاض جمالها وسط الأردية السوداء التي ترتديها..

شهقت حينما رأتني وكادت تصرخ فزعاً.. تسمرت عيناها على عيني بذهول ثم انتقلت عيناها تمسح شعري بهلع.. هتفت بصوت باهت.. روبير..

ثم أجهشت بالبكاء..

دمعت عيناي، لكنني لم أستطع الاقتراب منها أبداً.. رفعت وجهها بعد فترة من الوقت ومضت تمسح دموعها الكثيرة ثم همست:

ـ سامحكِ الله يا ليلى.. فليغفر الله لكِ ويرحمك رحمة واسعة..

صرخت بحدة هاتفاً:

ـ ماما ليلى.. ماذا حدث لها؟

قالت بصوت مثقل بالألم ومشخن بالجراح:

ـ لم يحدث لها شيء.. لقد سافرت في رحلة طويلة..

غصة ألم تجرعتها مرغماً وأنا أهتف:

ـ وهل ستعود؟

تجاهلت السؤال وأخرجت من حقيبتها ألعاباً وحلوى.. بيد أنني سألتها من جديد هل ستعود؟

قالت بحشرجة بكاء:

ـ في الوقت الحالي أنا ماما سارة، سأزورك باستمرار مثلما كانت

تفعل ماما ليلى وسأجلب لك اللعب والهدايا وستكون ان شاء الله مسروراً وسعيداً..

أنا لا أريد لعباً ولا هدايا.. أريد الأمل الذي فقدته والحلم الذي أرنو إليه.. اشتاق للمسات حانية من صدر مترع بالحب، تهفو نفسي للأمان المغلف برداء الأمومة، تتوق خصلات شعري المتمردة الشقراء إلى أصابع بعينها لتعزف عليها أجمل الألحان.. أريد ماما ليلى فقط..

اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أقول:

- أريد ماما ليلى فقط.. ولا أريد غيرها..

نطق وجهها بالأسى فقالت ساهمة:

- ستعيش يا صغيري وتعرف حتماً أن الأمومة حلم يحظى به البعض ويحرم منه البعض الآخر، لكنه يبقى حلماً..

- وماما ليلى

هتفت بانكسار:

- انها حلم أيضاً وستصحو منه ذات يوم يا صغيري..

أفقت لنفسي غارقاً بدموعي وقد تلاشت ماما سارة تماماً، وكأنها أضغاث أحلام وبقيت رائحة عطرها تعبق بالمكان، تشي بأحزان عمر كامل يخلو من بقايا حلم الأمومة العذبة..

أتطلع إلى النافذة البعيدة وأحلم..

يوماً ما سأخرج من هذا المكان لأطارد أحلامي الضائعة..

(أوراق مستقبلية مبعثرة بين جنبات طفل مكلوم)

الفهرس

مقدمة الناشر 5

«انعتـاق» 7

«فى لجج التيه» 39

«وسقطت ورقة التوت» 115

«العزف على نغمات الأوجاع» 175

«نفوق» 233

«السماء تلد القمر» 241

«أحلام مؤجلة» 303

«حلم مشنوق بغلالة من حرير» 313

مختلف
شبكة روايتي الثقافية
www.rewity.com

D I R T Y   E Y E S

روايات

عيون قذرة

عيون قذرة للكاتبة والأديبة العربية قماشة العليان، إنجاز رائع وجميل وهادف، يجمع في دفتيه الأسلوب الرقراق والعذب، والأفكار الجذابة الموحية التي تعيشها مجتمعاتنا، في لحظات حياتها الفردية والجماعية، وتصوير خلاق وواقعي لنفسيات الناس ومشاربهم وأهوائهم وتصرفاتهم في علاقاتهم الشخصية واليومية، وممارسة نشاطاتهم وتبادل منافعهم، وهي عرض لمجموعة القيَم التي ترسم العادات والتقاليد والأهداف والغايات، كل ذلك بمنهج حواري سردي مغر ومسلٍ، دفاق بالحيوية، تلعب فيه الشخصيات أدوارها بخفة ودقة ومهارة، ويُغيب وجه الكاتبة خلف الستار، دون أن تترك تأثيراتها الذاتية على مسيرة العمل الروائي، إنما تدع الأحداث تجري بسهولة ويسر، ويلعب أبطال الرواية أدوارهم بوعي وإدراك، فهي والحالة تستجيب لمتطلبات فكرنا وأدبنا العربي، وتمده بعمل روائي مميز.

من المقدمة

SR 25

ISBN 9953-36-736-1

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ١١-٥٤٦٠
العنوان البرقي: موكيالي،
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨